المملكة الأردنية الهاشمية

مجلة
مجمع اللغة العربية الأردني

مكتبة مجمع اللغة العربية الأردني
الرقم المتسلسل ٢٦٦٥
رقم التصنيف
التاريخ ٢٤/ ٦/ ٩٨

العـــدد الأول
صفر ١٣٩٨ هـ.

المجلـــد الأول
كانون الثاني ١٩٧٨ م.

كلمة العدد

بسم الله الرحمن الرحيم

استهلال

يُسعِدُنا ان نقـدّم الى العالم العربي هذا العدد الأول من (مجلّـة مجمع اللغـة العربية الاردني) ، راجـين ان تستمرَّ أعداد هذه المجلـة بعد اليوم في المضيّ في طريقهـا ، بجهود المخلصين من ابنـاء هذه الأمة العربية المجيدة ، الحريصين على لغـة الضاد العزيزة ، وعلى خدمـة النهضة العلميـة في وطننا العربي الكبـير .

لقـد مضى على تاسيس مجمعنا الاردني عـامٌ وبعضُ العام ، بعد ان تغلّب علـى بعض الصعاب التي اعترضت سبيلـه في بدايته ، وقد أصبح في وسعـه الآن أن يمضي قُدُمًا في تحقيق الأهـداف السامية التي قام من اجـل تحقيقها في خدمة اللغة العربيـة ، والمشاركة في خدمة التراث العربي والاسـلامي الزاهر ، والحضارة العربية المعاصرة .

والمجمـع يضمّ جهوده المتواضعة الى جهـود أشقّائه من المجامع العربية العريقة ، بعـد ان أصبح عضوا في اتحاد المجامـع ، وبعد ان استكمل عدّتـه ، واصبح موضع امل في أن يعمـل عملا فعّالا مثمرا في تادية رسالته العلمية واللغويـة .

ونحن نؤمن بان المجلّـة ركن من اركان العمـل المجمعيّ لا غنى عنه ، تستقطب جهـود الاعلام من اهل الفكر ، مـن الاخوة العرب ، ومن الزملاء المستشرقين ؛ فالمجلـة هي صوت المجمع وصـوت سدنة

اللغة العربية والتراث العربـــي والاسلامي معا . ونحن نامـــل ان يؤدّي هذا الصوت الأمانـــة التي يرتفع لتأديتها ، بجدارة وكفاءة وصـــدق .

لقـــد بذلنا جهدا خيّرًا من اجل ان يكون هـــذا العدد الأول جديرا بمكانه في استهلال صدور المجلـــة ، ولكننا نعلم ان الكمال للـــه وحده . ولهذا نرجو أن يكون لنـــا من تسامح الاخوان وتقديرهم مـــا يعذر عن النقص،ومـــا يحفز على المضيّ قُدُمًا لمـــا نرجو ، ويرجون منا ، مـــن الكمـــال الممكـــن .

واللّـــه ولـــيّ التوفيـــق .

مقرّر لجنة المجلـــة
نائب رئيس المجمـــع
الدكتور محمـــود السمرة

ابن رشد في أدبه

للدكتور عبد الكريم خليفة

مقدمـــة

تهدف هذه الدراسة الى القـاء الضوء على جانب مهـمّ من جوانب انتاج عَلَـم من اعلام الفكر في حضارتنا العربية الاسـلامية ؛ وهذا الجانب يتمثل في « ادب » ابـن رشد ، وهو واحد مـن اشهر الكتّاب ومن اكثرهم خصبا وانتاجـا .

وان هـذه الدراسة شائكة في نظرنا ، وذلـك لصعوبة الفصل بين مجال الفكـر والفلسفة من ناحية،والادب مـن ناحية اخرى . فان مفاهيم الادب وتعريفاته تتعـدد وتختلف باختلاف الاتجاهات الفكريـة والثقافية والاجتماعية عنـد الباحثين . وربما كان اهـمّ من ذلك كلّه ان نصل الى مفهـوم الادب عند الكاتب ذاته . ليس مـن السهل ان تحدد مفهوم الادب عند ابن رشـد ، دون النظر في فلسفته وفـي مفهوم الادب عند معلمـه الاول « ارسطو » .

اليس من الخطـأ ان تعتبر مفهوما واحدا للأدب ، تحـاول إقحامه على جميع انشطة الفكـر الانساني ؟ ... الا تتداخل مفاهيـم الادب هذه بالوانه ومذاهبـه ؟ ..

لا شكّ ان هنالك فرقـاً كبيراً بين ادبٍ واقعيّ تحتل فيـه جدّيّة الفكر مكانة ممتـازة ، وادبٍ لاهٍ يُضفي عليه الاديب رونق النكتة والظرف .

فقد كان ابن رشـد جادًّا ، وكانت الدراية اغلب عليه من الرواية . وبلغت جِدّيّته الى الحـد الذي عبَّر عنه صاحب كتاب التكملـة بقوله : « ... وعُنِيَ بالعلم مِـن صغره الى كبره،حتى حُكيَ عنـه انه لم يدع النظر ولا القراءة منذُ عَقِلَ الا ليلة وفـاة ابيه ، وليلة بنائه على اهله ... وانه سَوَّدَ في مـا صنَّفَ وقيَّدَ وألَّفَ وهذَّب واختصر نحـوًا منَ عشرة آلاف ورقة . ومال الـى علوم الأوائل،فكانت لـم فيها الامامة دون اهل

عصره » (١) .ونحن لا يهمّنا في هـذا المجال مدى دقة هذه الروايـة ، ولكنّ ما توحي بـه من نظرة ابن رشد الجادّة الـى الحياة وتحكيمه العقل ، وذلـك بغلبة الدراية عنده على الروايـة ...

فاذا نظرنا مثـلا الى المساجلة الفكرية باعتبارها احـد الفنون الأدبية الراقية ، الا يحقُّ لنـا ان نُصنِّفَ في اطارها تلـك المساجلة التي دارت بين ابن رشـد والغزالي ؟ فقد وصفها العقـاد بقوله : « فلـم يحفظ لنـا تاريخ الفكر مساجلة بين حكيمين في قـوة المساجلة التي دارت بـين ابن رشـد والغزالي،ومضاء سلاحها،ونفـاذ حججها وبراهينهـا ... » (٢) .

وهنـا يشير الكاتب في الواقع الـى معركتين فكريتين مـا زال اثرهما العميق في التفكير الفلسفي الاسلامي . فقد اثـار الأولى الغزالي في كتابه : « تهافـت الفلاسفة » واثـار الثانية ابن رشـد بكتابه : « تهافـت التهافـت » .

وبالرغم من أن ابن رشـد قد ذاع صيته لـدى الافرنج في مجالين اساسيين من المعرفـة ، هما الطبّ والفلسفة ، فـانّ جوانبه الفكريّة والثقافية الأخرى لـم تكن اقل إشراقا ؛ فهو على حـد تعبير بعض الروايات ، كمـا سنرى فيما بعد : « كـان يُفزَع الى فتواه في الطـبّ كما يُفزَع الى فتواه في الفقه ، مع الحظ الوافر من الاعراب والآداب » (٣) .

وإنّ الدارس للحركة العلميـة في ذلك العصر ، لا يَعجَب من هـذا كله،فقد عاش ابن رشـد في بيئة علمية عاليـة جمعت مشاهير عصره ، بعينه في ذلك طبـعٌ مؤاتٍ واستعداد فطريّ اصيـل .

امّـا في مجال الحركة العلمية فـي الاندلس ، ورغبةِ اهلهـا في العلم ، فنحن نستذكر مـا اورده المقّري ، اذ قال : « وامّـا حال اهل

---

(١) التكملـة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ .
(٢) العقـاد ، ص ٥٥ .
(٣) شـرح ، ص ٢٧ .

الأندلس في فنون العلـــم ، فتحقيق الانصاف في شأنهم في هـــذا الباب ، انهم احرص النـــاس على التميّز : فالجاهل الذي لم يوفّقه اللـــه للعلم يجهد أن يتميّز بصنعـــه ، ويربأ بنفسه أن يُرى فارغـــا عالة على الناس ، لأن هـــذا عندهم في غاية القبح،والعالـــم عندهم معظَّمٌ من الخاصـــة والعامة ... فالعالم منهـــم بارع ، لأنه يطلب ذلك العلـــم بباعث من نفسه ، يحمله علـــى ان يترك الشغل الذي يستفيد منـــه ، وينفق ما عنده حتى يعلـــم . وكلّ العلوم لها عندهم حـــظّ واعتناء الا الفلسفة والتنجيم ، فان لهمـــا حظّاً عظيما عند خواصّهم ، ولا يُتظاهَر بهـــا خوف العامة . فانّه كلّمـــا قيل « فلان يقرأ الفلسفة » أو « يشتغـــل بالتنجيم » اطلقت عليه اســـم زنديق ، وقيّدت عليه انفاسه . فـــان زلّ في شبهة رجموه بالحجارة او حرقوه قبـــل ان يصل امره للسلطان ، او يقتلـــه السلطان تقرّباً لقلوب العامـــة.وكثيرا ما يأمر ملوكهم باحراق كتـــب هذا الشأن اذا وجـــدت ... » (٤) .

إنّ ظاهرة التضييق علـــى حرية الفكر ، التي اشـــار اليها المقّري ، قد اصابت بلهيبها ابن رشـــد ذاته في محنته التي حلّت بـــه في أخريات عمره ؛ وإنّ هـــذه الظاهرة لم تكن في الحقيقة لتقتصر علـــى الأندلس ، بل امتدّت من مشرق دار الاســـلام الى مغربه الأقصى ، وذلـــك في فترات معيّنـــة .

ولـــو القينا نظرة علـــى احداث الفترة الزمنية التي لقي بها ابـــن رشد محنته ، لوجدنا امثلـــة كثيرة في هراة وواسط ودمشق وبغداد (٥) .

اسمه ونسبـــه وكنيته :

هو محمـــد بن ابي القاسم احمـــد ابن أبي الوليد محمـــد بن أحمد بن رشد ، يكنى ابـــا الوليد . وهو حفيد قاضـــي الجماعة بقرطبة . (٦) .

---

(٤) النفـــح ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .
(٥) انظـــر العبـــر ، ج ٤ ، ص ٢٨٥ .
(٦) النباهي ، ص ١١١ . انظـــر : ابن ابي اصيبعة ، ص ٥٣٠ ، ج ١ ، ص ١٠٥ .

ولـد بقرطبة سنة ٥٢٠ هـ. ١١٢٦ م. وادرك مـن حياة جَدّه شهرا سنة عشريـن (٧) . وقد اشتهر في اوروبـا في القرون الوسطى باسـم AVEROES (٨) .

نشأ ابـن رشد في بيت علـم وفضل ، وكان ابوه احمد بن محمد بن احمد بن رشد ابـو القاسم ، قد تولّى القضاء (٩) . وتتحدّث المصـادر عن نشأة ابي القاسم هذا ، فتقول : « إنه من اهل بيت فقـه وعلم » (١٠). وربما ساهمت شهرة ابـن رشد الحفيد وابن رشد الجَـدّ ، في قلّة المعلومات التي وصلتنا عن ابـي القاسم . وتوفي والـد ابن رشد سنة ٥٦٣ هـ. (١١) . وهـذا يعني ان الاديب الفيلسوف ابن رشـد ، قد ذاعت شهرته العلميـة في حياة والـده .

اما جَدُّه محمـد بن احمد بن احمد بن رشـد (١٢) فيُروَى ان اصلـه من بلـدة سرقسطة (١٣) . وكان قاضـي الجماعة بقرطبة ، وصاحِبَ الصلاة بالمسجـد الجامع بها ، يكنى ابـا الوليد ... وكان قطبها ،عالما حافظا للفقـه ، مقدّمًا فيه على جميع اهـل عصره ، عارفًا بالفتوى على مذهب مالك واصحابـه ، بصيرًا باقوالهم واتّفاقهـم واختلافهم ، نافذا في علـم الفرائض والأصول ، من اهـل الرياسة في العلم والبراعة والفهم مع الديـن والفضل والوقار والحلم والسمت ، والهدي الصالح .

ويستمرّ صاحب كتـاب الصلة فيقول :"سمعت الفقيه ابـا مروان عبد الملك بـن مسرة صاحبنا اكرمه اللـه ، ومكانه من العلم والفضل والثقة مكانه ، يقـول : شاهدت شيخنا القاضي ابـا الوليد، رحمه اللـه، يصوم يوم الجمعة دائمـا في الحضر والسفر" (١٤) .

---

(٧) العبـر ، ج ٤ ، ص ٢٨٧ ، شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٣٢٠ .

(٨) Encyclo . Vol. II , P. 410 - 413

(٩) المصـدر نفسـه .

(١٠) بغيـة الملتمس ، ص ١٥٦ .

(١١) المصـدر نفسـه .

(١٢) النباهـي ، ص ٩٨ .

(١٣) الصلـة ، ج ٢ ، ص ٥٧٦ ، مـن هامش الأصل ، قـال عمر بن دحية : اصله من بلـدة سرقسطة .

(١٤) الصلـة ، ج ٢ ، ص ٥٧٦ : النباهـي ، ص ٩٨ .

ولـد ابو الوليد ابن رشد (الجـد) في شوال سنة ٤٥٠ هـ. (١٥) . وقد روى عن ابـي جعفر احمد بن رزق الفقيه ، وعـن ابي مروان ابن سراج ، وابي عبد اللـه بن خيرة ، وابي عبد اللـه محمد بن فرج ، وابي علـي الغساني ، واجاز لـه ابو العباس العذري ما رواه (١٦) .

وتَقلَّد ابـو الوليد القضاء بقرطبة ، وسار فيه على حـدّ تعبير الروايـة بأحسن سيرة واقوم طريقة ، ثـم استعفى عنه فأعفـى ؛ ونشر كتبـه وتواليفه ومسائله وتصانيفه (١٧) . ومـن تواليفه كتاب المقدمـات الأوائـل كتب المدوَّنـة ، وكتاب البيان والتحصيل لمـا في المستخرجة من التوجيـه والتعليل ، واختصار المبسوطـة ، واختصار مشكل الآثـار للطحاوي الى غير ذلك من تواليفه . ويعقّـب على ذلك صاحب كتاب الصلـة بقوله : « سمعنا عليـه بعضها ، واجاز لنـا سائرهـا » (١٨) .

ومن مؤلفاته ايضـا ، « الفتاوى » (١٩) . فقد جمـع ابن الفرا شيخ الجامع الكبير فـي قرطبة فتاوى ابي الوليد ابـن رشد (الجدّ) ، في كتاب خَطّـي (٢٠) . ولا شك ان هذه المكانـة العلمية الرفيعة التي كان يشغلها الجـد ، قد كان لها آثارهـا العميقة وطوابعها الواضحة في شخصية ابـن رشد (الحفيد) وتكوينه العلمـيّ والثقافيّ . وتوفي ابو الوليد ابن رشد (الجـد) ، ليلة الأحد ، ودفـن عشي يوم الأحد الحادي عشر مـن ذي القعدة سنة عشرين وخمسمائـة ، ودفن بمقبرة العباس ، وصلّى عليه ابنه ابـو القاسم ، وشهده جمـع عظيم من الناس ؛ وكـان الثناء عليه حسنا جميلا (٢١) . وهكذا فقد ولـد ابو

---

(١٥) الصلـة ، ج ٢ ، ص ٥٧٧ .
(١٦) المصـدر نفسـه .
(١٧) النباهـي ، ص ٩٩ ، الصلـة ، ج ٢ ، ص ٥٧٧ .
(١٨) الصلـة ، ج ٢ ، ص ٥٧٧ .
(١٩) الأعـلام ، ج ٦ ، ص ٢١٠ .
(٢٠) يوجد هـذا المخطوط ، على حـد رواية الجامعة / فرح انطون ، ص ٨ في مكتبة باريس وقد نقـل اليها من دير سان فيكتور فـي اسبانيا .
(٢١) الصلـة ، ج ٢ ، ص ٥٧٧ .

الوليد ابن رشـــد (الحفيد) سنة ٥٢٠ هـ. بقرطبة ونشـــأ فيها ، في بيت علـــم وفضل، ممّا كان له أكبر الأثر في تكوينـــه الفكري والثقافي .

مجريـــات حياتـــه :

ولـــد ابن رشد بقرطبة سنة ٥٢٠ هـ. ، ونشأ فيهـــا حيث درس الفقه والطبّ وعلـــوم الأوائل ، وتتلمذ على مشاهير علمائهـــا ... وفي سنة ٥٤٨ هـ. نـــراه في مراكش ، حاضرة الدولـــة الموحّديّة التي بسطت سلطانها علـــى الأندلس والمغرب . وربما كان ابـــن طُفيل ، المفكّـــر المشهور ، وطبيب البـــلاط الموحّدي، هو الذي اشـــار عليه بالقدوم الى عدوة المغرب ؛ اذ قـــام ابن طُفيل بتقديم « ابن رشـــد » الشاب الى أبي يعقوب يوســـف سلطان الموحّدين ؛ وتروي لنـــا المصادر قصّة هذه المقابلة التي كـــان من نتائجها حثّ ابن رشـــد بوضع شروحٍ مُيَسَّرة لأرسطـــو ... (٢٢) .

وتعاقبت الأحداث في حياة ابن رشـــد ... ففي سنـــة ٥٦٥ هـ. تولّى القضاء باشبيلية ، وبعـــد ذلك بسنتين اصبح قاضي قرطبـــة . وبالرغم من مشاغله الكثيرة ، فقـــد ألّف أهمّ كتبه في هـــذه الفترة ..

وفي سنة ٥٧٨ هـ. استدعاه يعقـــوب المنصور، الذي خلف ابـــاه يوسف، لكي يصبح طبيبـــه بمراكش ، فقد تقدمت السن كثيرا بابن طفيل . ولـــم يلبث ابن رشد طويلا في البـــلاط الموحّدي ، اذ نـــراه بعد فترة قصيرة يعود الـــى قرطبة ، لكي يشغل فيها منصـــب قاضي القضاة .

كان ابن رشـــد ذا حظوة عند خليفة الموحّدين ، يعقـــوب المنصور، في بداية الامر، ثـــم مالبث ان نقم عليه ، بعـــد ان اتُّهم بالزندقة . فامر الخليفة باحراق كتـــب الفلسفة ، ما عدا كتب الطـــبّ والحساب ، وفرض على ابن رشـــد ان يقيم في « اليسانة » وهي بلـــد قريب من قرطبة ، كانت اولا لليهود ، وان لا يخـــرج عنها (٢٣) . وقد نقم السلطان ايضـــا

---

(٢٢) انظـــر : Encyclo . Vol. II , P. 410 - 413

(٢٣) انظـــر : ابن ابي اصيبعة ، ص ٥٢٢ .

على جماعة اخرى من الفضلاء الأعيان ، وامر ان يكونوا في مواضع اخر ، واظهر انه فعل لهم ذلك بسبب ما يُدَّعَى فيهم انهم مشتغلون بالحكمة وعلوم الأوائل . وهم ابو جعفر الذهبي، والفقيه ابو عبد الله محمد بن ابراهيم، قاضي بجاية، وابو الربيع الكفيف ، وابو العباس الحافظ الشاعر القرابي (٢٤) .

وفي الحديث عن نهاية محنة ابن رشد ورفاقه يقول ابن ابي اصيبعة : « وبقوا مدة، ثم ان جماعة من الأعيان باشبيلية شهدوا لابن رشد انه على غير ما نسب اليه ، فرضي المنصور عنه وعن سائر الجماعة، وذلك في سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، وجعل ابا جعفر الذهبي مزوارا للطلبة ومزوارا للأطباء (٢٥) .

وقد أورد « رينان » قطعة من سيرة ابن رشد للأنصاري (وفق مخطوط المكتبة الامبراطورية ملحق عربي سنة ٦٨٢ ، ص ٧) جاء فيها عن محنة ابي الوليد :(٢٦)

« فكمدت سوق السعايات ، وضرب عن كل طالب ومطلوب ، والأعداء كانوا لا يسأمون من الانتظار ، ويرقبون أوقات الضرار ، فلما كان التلوُّم من المنصور بمدينة قرطبة ، وامتدّ بها أمد الاقامة ، وانبسط الناس لمجالس المذاكرة ، تجددت للطالبين آفاقهم ، وقوي تالبهم واسترسالهم ، فأدلوا بتلك الالقيات، واوضحوا ما ارتقبوا فيه من شنيع السوءات ، الماحية لأبي الوليد كثيرا من الحسنات . فقُرِئت بالمجلس، وتُدووِلَت اغراضها ومعانيها، وقواعدها ومبانيها، فخرجت بما دلّت عليه اسوأ مخرج . وربما ذيَّلها مكر الطالبين ، فلم يكن عند اجتماع الملأ الا المدافعة عن شريعة الاسلام ؛ ثم آثر الخليفة فضيلة الابقاء ، وأغمَد السيف التماس جميل الجزاء ، وامر طلبة مجلسه وفقهاء دولته بالحضور بجامع المسلمين ، وتعريف الملأ بأنه مَرَقَ من الدين ، وانه استوجب لعنة الضالين . واضيف اليه القاضي ابو

---

(٢٤) المصدر نفسه .
(٢٥) انظر : ابن ابي اصيبعة ، ص ٥٢٢ .
(٢٦) انظر : رينان ، ص ٤٣٨ — ٤٤٤ .

عبد اللـــه ابن ابراهيم الاصولي في هـــذا الازدحام ، ولُفَّ معه في حريق هذا الملام ، لاشياء ايضـــا نقمت عليه في مجالس المذاكرة ، وفي اثنـــاء كلامه مع توالي الايـــام ... » ثم يستمر الانصاري في الحديـــث عن الاجتماع بالجامع الاعظم بقرطبـــة ، الى ان يقول : « فنالهم مـــا شاء اللـــه من الجفاء ، وتفرَّقوا علـــى حكم من يعلم السرّ واخفى ؛ ثـــم امر ابو الوليد بسكنى اليسانة ، لقول من قال : انه ينسب في بني اسرائيل ، وانه لا يُعْرَف لـــه نسبة في قبائل الاندلس ... » ثـــم يتابع الحديث عـــن ابن رشد وصاحبه الذي لفـــه الحريق معه فيقـــول الانصاري « وليس في زمانهما مـــن بكمالهما ولا من نسج علـــى منوالهما ، وتفرق تلاميذ ابي الوليـــد ايدي سباء » (٢٧)

ومـــن الواضح انَّ هنالك اسبابـــاً خفيَّة قد دفعت الى نكبـــة ابن رشـــد : فالانصاري مثلا يواصل حديثـــه فيقول : « ويذكر ان من اسباب نكبته هـــذه اختصاصه بابي يحيى اخـــي المنصور والي قرطبة » . وقد أورد ابن ابـــي اصيبعة اسبابا اخرى . قـــال القاضي ابو مروان : « وممّا كان في قلـــب المنصور من ابن رشـــد انه كان متى حضر مجلس المنصور ، وتكلّم معـــه او بحث عنده في شيء مـــن العلم يخاطب المنصور بان يقول : تسمع يـــا اخي . وايضا فان ابن رشـــد كان قد صَنَّف كتابا في الحيوان ، وذكـــر فيه انواع الحيوان ، ونعت كل واحد منهـــا . فلما ذكر الزرافة وصفها ثـــم قال : « وقد رايت الزرافة عنـــد ملك البربر »، يعنـــي المنصور . فلما بلـــغ ذلك المنصور صعب عليه ، وكان احـــد الاسباب الموجبة في انـــه نقم على ابن رشد وابعده ... (٢٨) .

وكانت هذه المحنـــة التي اصابت ابـــا الوليد ، مناسبة اغتنمها خصومه للتشنيع عليـــه (٢٩) .

وبعـــد عودة الخليفة المنصور الـــى مراكش ، ما لبث ان عفـــا عن ابن رشـــد ورفاقه واستدعاه اليهـــا . ولكنْ ما لبث ابن رشد ان

---

(٢٧) انظـــر : المصدر نفسه .

(٢٨) ابن ابـــي اصيبعة ، ص ٥٣٢ .

(٢٩) انظـــر : النباهي ، ص ١١١ ؛ رينـــان ، ص ٤٣٧ ـــ ٤٤٤ .

توفي فيها ، بعد ذلك بقليل ؛ فكانت وفاته كما أوردها الأنصاري ، ليلة الخميس التاسعة من صفر سنة خمس وتسعين وخمسمائة بموافقة عاشر دجنبر . ودفن بجبانة باب تاغزوت . وبعد ثلاثة اشهر حمل الى قرطبة ، فدفن بها في روضة سلفه بمقبرة ابن عباس (٣٠) .

شخصية ابن رشد واثرها في ادبه :

كان لشخصية ابن رشد اثرها العميق في ادبه ، فقد طبعته بطابع العمق والجدية ، ونأت به عن الفنون الأدبية التقليدية ؛ ولا عجب اذا راينا العقلانية والواقعية تطبعان ادبه وانتاجه الفكري في جميع فنون المعرفة ، ولذا كانت الدراية اغلب عليه من الرواية (٣١) .

عُني أبو الوليد ابن رشد بالعلم من صغره الى كبره ، وكانت لهذه الحياة الجادّة آثارها في تكوين شخصيته . فكان على حد تعبير بعض الروايات ، على شرفه ، اشدَّ الناس تواضعا واخفضهم جناحا (٣٢) . ويورد ابن ابي اصيبعة حديثا للقاضي ابي مروان الباجي يقول : « كان القاضي ابو الوليد ابن رشد حسن الراي ، ذكيًّا ، رثّ البزّة ، قويّ النفس ، .. » (٣٣) .

كان لهذه المقومات الشخصية اثرها البعيد في حياة ابن رشد ، وما تركته من طوابع مميّزة في ادبه . فكان الى جانب السيرة الحميدة ، قد وهب ذاته للعلم والمعرفة ، وقَصَرَ حياته على خدمة وطنه .

فهذا صاحب التكملة يتحدث عن هذه الجوانب في شخصية ابن رشد فيقول : « وولي قضاء قرطبة بعد ابي محمد بن مغيث فحمدت سيرته ، وتأثلت له عند الملوك وجاهة عظيمة ، لم يصرفها في ترفيع حال ، ولا جمع مال ، انما قصرها على مصالح اهل بلده خاصة ، ومنافع اهل الأندلس عامة (٣٤) . وكان الى ذلك كلّه ،

---

(٣٠) انظر : رينان ، ص ٤٤٢ .
(٣١) انظر : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ .
(٣٢) المصدر نفسه .
(٣٣) ابن ابي اصيبعة ، ص ٥٣١ .
(٣٤) التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ .

سمحا كريم النفس،فكـان يبذل العطاء لقُصّاده ، ويُلام أحيانـا على البذل لمـن لا يُحبّونه ولا يُكفّون عـن اتّهامه فيقول : إنَّ اعطاء العدوّ هو الفضيلة ، أمـا اعطاء الصديق ، فلا فضل فيـه . وقد اعطى مرة رجلا اهانه ، وحذّره من فعل ذلك بغيره لانـه لا يأمن بوادر غضبه (٢٥) .

واذا كـان ابن رشد متسامحا في أمـر نفسه ، فانه لـم يكن متسامحا في أمـر غيره ؛ ومن ذلك قصّته مع الشاعـر ابن خروف حين هجا أبـا جعفر الحميري العالم المؤدب ، فقـد أوجع الشاعر ضربا، وانذره ألاّ يعود لمثلهـا .

كانت شخصية ابن رشـد مطبوعة على مزاج الفيلسـوف الحكيم ، تنأى بـه عن الاتجاه الى تلك الفنون الادبيـة والفنية ، في الظرف والنغم والايقاع ، كما كـان الشأن مع جلّة حكماء ذلك العصر وأطبائه ، مثـل ابن طفيل،وابن باجة،وابن زهـر،وغيرهم . وهكذا كان ابن رشـد يحسن المساجلة ولا يحسـن المنادمة . ولا يبالي تزييف لغـة « البلاط » في سبيل تحقيق لغـة العلم،ورفع الكلفة مـن مجالس الباحثين فيه (٢٦) . وربما كانت هـذه الصفات من الأسباب الخفيّة التي أدّت الـى التنكيل بهذا المفكر الاسـلامي العظيم .

لقد اجمع أكثـر الدارسين لابن رشـد على وصفه بانه « اكثر شُرّاح مؤلفات ارسطو عمقـا » (٢٧) . كان ابن رشـد معجبا الاعجاب كله بالمعلم الأول « ارسطـو » .

ولكن يبقى السـؤال الضخم أمام دارس أدب ابـن رشد ، وهو : الى أي حـدّ تأثر ابن رشد شخصيا بآراء ارسطـو وفلسفته في الأخلاق والسياسة والخطابة والشعـر ؟ وبعبارة اخرى فنحن نتساءل الـى أي حـدّ نستطيع أن نعتبر هذه الآراء تمثّـل فلسفة ابن رشد واتجاهاتـه في فهـم العلوم والآداب ؟

---

(٢٥) انظر : العقـاد ، ص ١٩ .
(٢٦) انظر : العقـاد ، ص ٢٦ .
(٢٧) انظر : بين الديـن والفلسفة ، ص ٢٨ .

ومما لا شك فيه ان هنالك عاملين اساسيين أثّرا في مفهومه المتميّز للأدب ، وهذان العاملان هما شخصيّته الجادة ، وتكوينه الثقافي ، واشتغاله بعلوم الأوائل بانصرافه الى دراسة ارسطو والتعمّق بشرح فلسفته وآرائه .

وان نظرة شاملة في مؤلفات ابن رشد (٣٨) تظهر لنا الطابع العقلاني لأدب ابي الوليد ؛ فمؤلفاته بصورة عامة يمكن تقسيمها الى اربعة اقسام : فهنالك شروح او مصنّفات فلسفية وعلمية ، وشروح او مصنفات طبية ؛ وكذلك هنالك مصنّفات كلامية وفقهية ، ومصنّفات ادبية ولغوية .

وكان مجال التأليف عند ابن رشد قد تأثر بطبيعة نظرته الفلسفية ؛ فقد حرص دائما على تأكيد ذلك المذهب الفلسفي الذي تميّزت به الفلسفة العربية في الأندلس خاصة ، والفكر العربي بصورة عامة ؛ وفحواه تقسيم الأقيسة الى ثلاثة اصناف : برهانية وجدلية وخطابية . وبناء على ذلك يقسم الناس الى فئات او طبقات ثلاث متقابلة : هم اهل البرهان ، فالجدليون ، فالخطابيون . وهو يعني باهل البرهان الفلاسفة او الخاصة ، وبالخطابيين جمهور الناس الغالب او العامة ، وبالجدليين طائفة من الناس هي دون الفلاسفة مرتبة ، الا انها مع ذلك تتميّز عن الجمهور ، هم المتكلمون (٣٩) .

وربما يُسْهُل على دارس مؤلفات ابن رشد ، بعد هذا ، أن يصنّفها وفق هذه الأقيسة . فنحن نعتقد مثلا أن كتابة « تهافت التهافت »

---

(٣٨) في مؤلفات ابن رشد انظر : ابن ابي اصيبعة ، ص ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، التكملة ج ٢ ، ص ٥٤٤ ــ ص ٥٥٥ ، الذهبي ، ص ، رينان ، ص ٧٩ ــ ٩٣ وهما من اكثر القوائم ضبطا وتفصيلا ؛ وهناك نشرة الاب « بونج » من مخطوطات ابن رشد الموجودة في انحاء العالم . وقد اشارت المصادر ايضا الى تلك القائمة المهمة التي تحوي مؤلفات ابن رشد في المخطوطة رقم (٨٨) بمكتبة الاسكوريال باسبانيا .

(٣٩) انظر : فخري ، ص ٣٣ .

هو مساجلة ادبيـــة قام بائنائها بفحص دقيق،وتأويل عميق متبصّر لكتـــاب « تهافت الفلاسفة » للغزالي . فهـــو ينعي بحرارة على الغـــزالي حين يصرّح بانه لـــم يقصد من تهافته بيان الحقّ في نفســـه ، وانما قصد التشويش على الفلاسفـــة ، ونزع الثقة بهـــم ... (٤٠) . وكذلك تستطيع أن تدرج في إطـــار الأدب ، وفق مفهوم ابن رشـــد ، كتابه الذي سمّاه « فصل المقـــال فيما بين الحكمة والشريعة مـــن الاتصال »، وكتاب"منهاج الأدلة في علـــم الأصول"... وغيرها ، دون أن نضـــع حـــدًّا فاصلا بين علم الكلام واثره فـــي الأدب .

امـــا في مجال اللغة ، فقد اشارت المصادر الـــى « كتابه في العربية الذي وسمـــه بالضروري » (٤١) . وكذلك كتابـــه في الكلام على الكلمة والاسم المشتق (٤٢) . وهكـــذا نستطيع القول إن مجالـــه الأدبي قد اتّسم بتلك المعركـــة الفكرية التي تركت اثـــرا عميقا في التفكير الاسلامي ؛ هذا مع العلـــم ان الفلسفة الادبية لم تشغل ســـوى حيّز صغير فـــي مذهب هـــذا الفيلسوف ، بازاء فلسفته المـــادية . فقد كان الخلاف ، بينه وبين المتكلمين في الفلسفة الأدبيـــة،شبيها بالخلاف بينه وبينهـــم في فلسفتـــه الطبيعية (٤٣) .

لقـــد كانت شخصية ابن رشـــد واضحة متميزة في ادبـــه،وفي اجتهاده الفكـــري،وفي فلسفته . وإنّ تصانيفـــه التي وسمها بالشروح ، كانت على مستويات مختلفـــة من حيث المنهج والغاية التـــي يرمي اليها . وهو في ذلك كلّـــه كان يميز احيانا ، حتى في هـــذه الشروح ، بين رايـــه وراي المتن الذي يشرحـــه .

وهكذا فان شخصية هـــذا القاضي الفيلسوف ، التـــي طُبِعت على الجِـــدّ ، قد تركت آثارها العميقة فـــي مفهومه للأدب . فقد كان

---

(٤٠) انظر : بين الديـــن والفلسفة ، ص ١٩٧ .
(٤١) التكملـــة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ .
(٤٢) انظر : رينـــان ، ص ٩٠ .
(٤٣) انظر : فـــرح ، ص ٥٨ .

يتعفّف عن حضور مجالس اللهو والطرب ، مما استباحه جملة من علماء عصره وحكمائه . وقد بلغ من تعفّفه عمّا لا يراه خليقا بعلمه ومكانه من القضاء انه ، « احرق شعره الذي نظمه في الغزل أيام شبابه » . وبذلك ، مع الأسف ، حُرِم الدارسون من مصدر مهم من مصادر دراسة أدبه وحياته .

وفي هذا الاطار العقلاني لمفهوم الأدب ، وتغليبه هذا الجانب على الجانب الفني ، نورد الرواية التالية :

قال ابو الفضل التفاشي : جرت مناظرة بين يدي ملك المغرب المنصور يعقوب بين الفقيه ابي الوليد ابن رشد والرئيس أبي بكر ابن زهر ، فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة : ما ادري ما تقول ، غير انه اذا مات عالِمٌ باشبيلية ، فأُريدَ بَيْعُ كتبه، حُمِلَت الى قرطبة حتى تُباع فيها ، وإن مات مطرب بقرطبة فأُريدَ بَيْعُ آلاته، حُمِلَت الى اشبيلية (٤٤) .

ارتباط الأدب عند ابن رشد بالحقيقة والمعرفة :

نظر ابن رشد الى الأدب نظرة شاملة وعميقة ، وقد فهم رسالته الأدبية من خلال اتجاهين أساسيين استغرقا حياته الأدبية كلّها . وهذان الاتجاهان يتميزان بالبحث عن الحقيقة وواجب الوجود، من ناحية ، وعن المعرفة التي هي عبادة للخالق ؛ ويلتقي ابن رشد في ذلك مع الفارابي وغيره من المفكرين الاسلاميين الذين يعتبرون البحث عن المعرفة عبادةً للهِ سبحانه وتعالى وتسبيحا له في ملكوته . ولنستمع الى ابن رشد في هذه العبارة التي حُذِفَت على حد تعبير « رينان »، من شرح ما بعد الطبيعة في الطبعات اللاتينية ، وقد ترجمها مسيو « منك » من العبرية .

قال ، قال ابن رشد : « يقوم دين الفيلسوف الخاص على دراسة ما هو كائن ؛ وذلك لأن ارفع عبادة يمكن أن يعبد الله بها ، تقوم

---

(٤٤) اللمع ، ج ١ ، ص ١٤٧ .

على معرفة ما صنع ، لـــا يؤدي اليه هذا من معرفتنـــا اياه على حقيقته كلها . وهذا هـــو أصلح الأعمال عند اللـــه ... » (٤٥) .

اتجـــه ابن رشد الى البحث عن الحقيقة ، تاركا لنـــا في ذلك نتاجا خصبا وأدبـــا رفيعا يقع على حـــد تعبير بعض الروايـــات، في حوالي عشرة آلاف ورقـــة .

وهو في بحثـــه عن الحقيقة ، كان لـــه موقف متميّز عن المسائل الكبرى التي اثارت الجـــدل في عصره وفيما تلاه من القـــرون الوسطى . فقد ثـــار الجدل حول مسألة قِدَم العالم ، ومسألة علـــم الله بالجزئيات ، ومسألة النفس وبقائها ؛ هـــذا فضلا عن مسالتين أخريين ، ثـــار حولهمـــا الجدل واحتدم، وهمـــا : مسألة الصفات الالهيـــة، ومسألة الحقيقتين . والمسألـــة الاخيرة مؤداها أن حقيقة الشرع وحقيقـــة العلم والحكمة شيء واحـــد، يختلف في العبارة ولا يختلـــف في الجوهر . وقد شَغَلَت هذه القضية اقـــلام الكتّاب والمفكرين في ذلـــك العصر . فوضع ابن طفيل قصّتـــه المعروفة « حي بـــن يقظان »، ووضع ابن رشد كتابه الموسوم « فصل المقـــال فيما بين الحكمة والشريعـــة من الاتصال » . فالفكرة التي أملت على ابـــن طفيل قصته ، هي ذاتهـــا التي أملت على ابن رشـــد كتابه . وان الفرق بين الأسلوبين يعود الى الفـــرق بين شخصيّتَـــي الكاتبـــين .

فابن طفيل ، كمـــا يبدو من أخباره وآثـــاره ، صاحب مزاج طريف ، يُحسن فـــنَّ المنادمة والمسامرة ، في حين أن شخصية ابـــن رشد الجادة ، ونظرته العقلانية الـــى الأشياء ، قد تردد اصداؤها في ادبـــه ، مما حدا بمن ترجموا لـــه بوصفه بأن الدراية كانت اغلب عليـــه من الرواية (٤٦) . وكان وصفه هـــذا في مجال الفقه ، ولكنه ينسحب بطبيعـــة الحال على حياته الثقافية والفكرية كلهـــا . فقد تميز ابن رشد منذ وقت مبكـــر في

---

(٤٥) رينـــان ، ص ١٧٦ .

(٤٦) التكملـــة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ .

مجال الفقه ، بالنظرة العقلية والقياس في الأحكام . هذا مع العلم أن محصوله في الرواية كان واسعا . وان المصادر تُحدّثنا مثلا بأنه كان يحفظ الموطّأ عن ظهر قلب (٤٧) .

وان نزعة التوفيق بين الشريعة والفلسفة تُعتَبَر معقد الأصالة والطرافة في تفكيره . أما في مجال المعرفة ، فلم يَتوانَ ابن رشد في البحث والتنقيب عن جميع المعارف الانسانية دراسة وتدقيقا وشرحا ، وفي مختلف الحقول ، في الطب والمنطق والفلك والرياضيات والفلسفة وغيرها من صنوف المعارف الانسانية

فالبحث وراء المعرفة ، في نظر ابن رشد يُقرّبُه الى فهم حقيقة الخالق ؛ فهو عبادة وتسبيح للّه في ملكوته وبالتالي فان هذا المسرى يؤدي به الى فهم جوهر الدين وحقيقته حيث يُتمّم « الوحي » ما عجز عنه العقل . وهكذا فان الأدب ونتاج الفكر الانساني يرتبط في نظر ابن رشد بالحقيقة والمعرفة من حيث الغاية والهدف .

الخطابة عند ابن رشد :

وفي هذا الموضوع لا بُدَّ لنا أن نقف عند كتاب « تلخيص الخطابة » ، حيث يبدأ ابن رشد الكلام فيه في كل فقرة بقوله : « قال » ثم يورد بضع كلمات من أوائل الفقرة، ويمضي بعد ذلك في الشرح ، دون أن يتميز ما لأرسطو مما له هو ذاته ، ويستطرد أحيانا ويأتي بكثير من الأمثلة من عنده، ولكنه في هذا كلّه يتابع ترتيب النص الاصلي لأرسطو ويتقيّد به . ويتوسع أحيانا ، فيزيد كثيرا عن حجم نص أرسطو (٤٨) . وقد فرغ ابن رشد من كتابه هذا يوم الجمعة الثالث من شعبان من عام سبعين وخمسمائة ، بقرطبة (٤٩) .

وقد تَوسَّع ابن رشد في ايضاح معاني أرسطو التي يذكرها النص ؛ وهو يعترف في نهاية الكتاب أن ما سَجَّله لم يتعدَّ فهمه

---

(٤٧) انظر : رينان ، ص ٦٣ .
(٤٨) انظر : تلخيص الخطابة ، ص ر .
(٤٩) تلخيص الخطابة ، ص ٣٣٢ .

واستيعابه لهذه النصوص ، اذ يقـول : « وقد لخصنا منها مـا تأدى الينا فهمه،وغلب على ظننا انـه مقصوده ؛ وعسى اللـه أن يَمنّ بالتفرغ التام ، للفحص عـن نص اقاويله في هذه الأشيـاء (٥٠) .

وان هذا الاتجاه يحملنا على الاعتقاد بطابع ابن رشـد وشخصيته في هذه الشروح ، ولا سيمـا في « تلخيص الخطابة »،فتراه مثـلا يستبدل في كتابه هـذا بالأمثلة اليونانية نظائرها في اللغـة العربية ، متلائما مع البيئة العربية الاسـلامية التي يكتب لها ويعيش فيهـا ؛ فيورد شواهد من الفقـه والتاريخ الاسلامي واللغة العربية . وقد نجـح ابن رشد نجاحا كبيرا فـي تطبيق القواعد والنماذج التي يذكرها أرسطو ، على اللغة العربية وتراثهـا ، ولا سيما في المقالة الثالثة : اقسام فـن الخطابة ، في صفات الأسلوب ... الـخ (٥١) .

فان ابن رشـد يتبنّى مذهب « المعلم الأول » أرسطـو في الخطابة، كما يتبناه في الشعـر ، كما سنرى فيما بعد.« فصناعة الخطابـة » تناسب صناعة الجـدل ، وذلك أن كلتيهما تَؤُمّان غاية واحـدة وهي مخاطبة الغير ... ويوجـد استعمالهما مشتركا للجميع ؛ اعنـي أن كـلّ واحد من الناس يستعمـل،بالطبع، الاقاويل الجدليـة والاقاويل الخطابية ... (٥٢) . وفي موضع آخـر يقول : « وكلّ واحد مـن الناس يوجد مستعملا لنحو مـا من انحاء البلاغة ، ومنتهيا منها الـى مقدار ما ، وذلك في صنفـي الاقاويل اللذين احدهما المناظـرة،والثاني التعليم والارشاد . واكثر ذلـك في الموضوعات الخاصة بهـذه الصناعة،وهي مثل الشكاية والاعتذار وسائر الاقاويل التي في الأمور الجزئية ... (٥٣) .

فالكلام عنده علـى مذهب أرسطو ، مركّب مـن ثلاثة : من قائل ، وهو الخطيب؛ومـن مقول فيه ، وهو الذي يعمل فيـه القول ؛ ومن

---

(٥٠) تلخيص الخطابة ، ص ٣٣٢ .
(٥١) أنظر : تلخيص الخطابة ، ص ٢٤٨ ــ ٣٣٢ .
(٥٢) تلخيص الخطابة ، ص ٣ .
(٥٣) تلخيص الخطابة ، ص ٤ .

الذين يوجه اليهم القول ، وهم السامعون . والغاية بالقول انما هي متوجهة نحو هؤلاء السامعين . والسامعون لا مَحالة إمّا مُناظِر ، وإمّا حاكم ، وإمّا المقصود اقناعه ... والحاكم في الأمور المستقبلة ، هو الرئيس ، والحاكم في الأمور الكائنة هو الذي ينصبه الرئيس مثل القاضي في مدننا هذه وهي مدن الاسلام . واما الناظر فانما يناظر بقوة الملكة الخطابية (٥٤) .

ولنستمع لابن رشد كيف يطبّق نظريات ارسطو في تفصيل الأقاويل الخطابية على نصوص من اللغة العربية ، بل يستشهد على ذلك بآيات من القرآن الكريم . قال : والمكرور والمعاطف في الأقاويل الخطابية ، هو ان يكون اول القول وآخره بلفظ واحد أو قريب من الواحد .وهذا مثل قولهم : « القتل انفى للقتل » ، ومثل قوله تعالى (الحاقة ما الحاقة ، وما ادراك ما الحاقة) .. (٥٥) .

وهنالك امثلة كثيرة ؛ بل ان المقالة الثالثة كما اشرنا سابقا ، هي محاولة جادّة من ابن رشد ، لكي يتمثّل نظريات ارسطو في الخطابة ويطبقها على اللغة العربية وآدابها . ولنستمع اليه يقول :

« وأما الأسماء المترادفة ، فصالحة جدًّا لصناعة الشعر ، وقد تصح ايضا لصناعة الخطابة . والشاعر يستعمل هذا الصنف لأسباب اخصّها به استعمالها لتصحيح الوزن والقافية ، مثل قوله :

« وهِنْدٌ اتى مِن دونها النأيُ والبُعْدُ » (٥٦) .

فابن رشد يشير بهذا النص الى بيت للحطيئة من داليّته المشهورة التي يمدح بها بغيض بن عامر ، ومطلعها :
« الا طَرَقَتْنا بَعدما هجعوا هِندُ ــ وقد سِرْنَ خَمساً وآتلأبَّ بنا نَجدُ » .

وتمام البيت الذي استشهد به ابن رشد هو :

---

(٥٤) تلخيص الخطابة ، ص ٢٨ ــ ٢٩ .
(٥٥) تلخيص الخطابة ، ص ٢٨٨ .
(٥٦) تلخيص الخطابة ، ص ٢٦٣ .

ألا حَبّذا هِندٌ وأرضٌ بها هِندُ : وهِنْدٌ أتي مِن دونها النأى والبعد

وفي حديثه عـن توابع الالفاظ يقـول :

« وينبغي ان تعلـم أن الأخذ بالوجوه (٥٧) ليس لـه غناء في الخُطَب المكتوبة،وانمـا غناؤه في المُتَلَوَّة ؛ وان عادة العـرب في استعمالها قليلة . وأما من سلف من الأمـم ، فربما اقاموها في الأشعار مقـام الالفاظ ، اعني التشكيلات ، ويحذفون اللفـظ الدالّ على ذلك المعنى امـا ارادة للاختصار ، وإما طلبـاً للوزن والالذاذ ؛ وهذا لم تجر بـه عادة العرب . ولهذا صار ما يقول أرسطـو في كثير من هذه الأشياء ، كمـا يقول ابو نصر ، غير مفهوم عندنـا ولا نافع . والأخـذ بالوجوه انما هو نافع اكثر في الخطب التـي تتلى على جهة المنازعة ، لانـه انما يحتاج الـى الاستعانة بجميع الأشياء المقنعـة في موضع المنازعة لتحصـل الغلبة .

وأمثال هـذه الخطب هي الخطب التي كانت بين علـي ومعاوية . وأمثال ذلك في الأشعار ،كالأشعار التي كانت بـين جرير والفرزدق (٥٨) .

وهكذا فقـد أضاف ابن رشد اضافات أصيلـة في الشروح التي وضعهـا على مصنَّفات أرسطـو . ولم يَكتفِ بالنقل ، بل ترك آثـار عبقريته الفذّة على تلـك النظريات والآراء ، التي قامـت بدور مهمّ في النهضة الادبيـة فيما بعـد .

ابـن رشـد والشعـر :

لـم يكن أبو الوليد ابن رشـدا شاعرا ولا ذا طبيعة شعريـة ؛ فان اتجاهه الفكـري ، وما جُبِل عليه من جدّية في التفكـير والسلوك ، كانا ينأيان بـه عن حياة الفـن والشعر .

ولـم يكن ابن رشد في عالـم الشعر،مع ذلك كله ، بأقل من أولئـك النجباء ، الألبّـاء من نظرائه من كبار الفلاسفة ، والأطبـاء والفقهاء ،

---

(٥٧) وقـد عرَّف « الأخذ بالوجوه » بقولـه : « الأمور المستعملة مـع الالفاظ على جهة المعونة في جـودة التفهيم وايقاع التصديق وبلوغ الغرض المقصود » . انظر : تلخيص الخطابـة ، ص ٢٥٠ .

(٥٨) تلخيص الخطابـة ، ص ٢٥١ — ٢٥٢ .

كابن سيناء وابـــن حزم وغيرهما ، في المشرق ، كما هـــو في المغرب والاندلس ؛ وقد كان الشعر في الاندلس،على حـــد تعبير بعض الروايات ، سائرا على جميع الالسنـــة في الاندلس ؛ فالشعر يجري علـــى ألسنة الرجال كما يجري على ألسنـــة النساء ، ويجري على ألسنـــة الشعراء كما يجري على ألسنـــة الفقهاء والعلماء . ولكنَّ شعـــر هؤلاء العلماء لم يكن ليتجاوز النظـــم والتأليف المحكم بين المقاطع والالفاظ . ونحـــن اذا استثنينا بعض الامثلـــة القليلة ، فاننا نستطيع القـــول : إن جميع هؤلاء العلماء قـــد نظموا الشعر وانتحلوه ، دون أن يكونـــوا ذوي شأن في مجال الغنائية او الفـــن ، ولكنه حلية يتَّصف بها كـــل نجيب . وكان ابن رشـــد من كبار هؤلاء النجباء الالبّاء ، فلا بـــدّ من أن يضيف الشعر الى جملة علومـــه وكفاياته .

فهذا ابـــن الابار يصفه فيقـــول :

« وكان يُفزَع الـــى فتواه في الطب كما يُفزَع الـــى فتواه في الفقه ، مع الحظّ الوافر مـــن الاعراب والآداب . حَكَى عنـــه ابو القاسم بـــن الطيلسان انـــه كان يحفظ شعر حبيب والمتنبـــي ، ويُكثر التمثّل بهما في مجلسه ، ويورد ذلك احســـن ايراد » (٥٩) .

ويحدّثنا ابـــن سعيد ، صاحب المغرب ، وقد كـــان قريب عهد من الفترة التي عاش فيها ابـــن رشد ، فيقول : « ادركه والدي وقـــرأ عليه ، وقال في وصفـــه الشقندي : « فقيـــه الاندلس ، وفيلسوفها الـــذي لا يَحتاج في نباهته الى تنبيـــه » . وانشد من شعره قولـــه :

مـــا العِشـــقُ شأني ، ولكـــنْ لستُ أُنكِرُهُ
كـــم حَـــلَّ عقـــدة سلوانـــي تَذَكُّـــرُهُ

مـــن لـــي بِغَضِّ جفوني عـــن مخبِّرة الـــ
أجفـــان قـــد اظهَرَتْ مـــا لســـتُ أُضْمِرُهُ

---

(٥٩) التكملـــة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ .

لـــولا النُّهـــى لأطعْـتُ اللَّحْـظ ثانيـــةً
فيمـــن يَـرُدُّ سنـــا الالحـــاظ مَنْظَـرُهُ

مـــا لابْـــنِ ستّـــينَ قادَتْـــه لِغايَتِـــهِ
عشريـــةٌ فنـــأى عنـــه تَبَصُّـــرُهُ

قـــد كـــان رضوى وقـــاراً فهـــو سافيـــةً
الحُسْنُ يـــورِدُه ، والهون يُصـــدِرُهُ (٦٠) .

وفي هـــذا الموضوع ، يتحدث الفيلســـوف الفرنسي المشهور ، ارنست رينـــان، فيقول :

« ونعلم من ليـــون الأفريقي أن ابن رشـــد كان قد نظم عدة قصائد خلقية وغزلية ، فأحرقهـــا في مشيبه ؛ وينقل ليون الينا قطعة منهـــا تجعلنا نفترض بالحقيقـــة ، كون الحكمة ، من بعض النواحي ، لـــم تأت ابن رشد الاّ مـــع السنين .. (٦١) . ومهما يكن من أمـــر ، فقد راض ابن رشد نفسه علـــى التوتّر فبالغ في رياضتهـــا ، وربّما دفعه ذلك الى حرق اشعـــارٍ نظمها في صباه ؛ وبذلك، مع الأســـف، فَقَدْنا لونًا مهمًّا من نتاج عبقريته ، يمكـــن أن يُلقي ضوءا على حياته الخاصـــة ونتاجه الادبـــي .

لـــم يكن ابن رشد ممن نَظَـــم الشعر وانتحله ، على مذهب نظرائه من العلماء والفلاسفة، ولكنه كان لـــه موقف من الشعر ، بصورة عامـــة ، يتداخل مع موقف أرسطـــو ونظريته في الشعر . والواقـــع ان تلخيصه « فـــن الشعر » لأرسطو يشهد بعلوّ كعبه في الادب العربـــي ، ولا سيما شعر مـــا قبل الاسلام .

وتجـــد في كل صفحة من هذا الكتاب ، على حـــد تعبير المستشرق الفرنسي ارنست رينـــان ، استشهادا بعنترة وامرىء القيس والاعشـــى والنابغة وابي تمـــام والمتنبي وكتاب الاغانـــي ... (٦٢) .

---

(٦٠) المغـــرب ، ج ١ ، ص ١٠٤ ــ ١٠٥ .
(٦١) رينـــان ، ص ٦٢ ــ ٦٣ .
(٦٢) انظر : رينـــان ، ص ٦٣ .

ويربط ابن رشد بين الموسيقى والشعر ، كما هو الأمر عند أرسطو ؛ فالموسيقى بنظره تُعْنَى بتثقيف النفس وتمريسها على الفضائل الخلقية . وهو يعني بالموسيقى الأقاويل المحلية ذات اللحن ، على حد تعبيره . فكانت بهذا الفن خادمة لصناعة الشعر الذي يؤثر في الصِبْيَة والأحداث أكثر من الخطابة والبرهان — وهما ضربان من ضروب الاقناع — . فاذا رقوا عن هذا الطور استُعمِلَت معهم الأقاويل الخطابية والجدلية ، وفي الطور الأخير البرهانية التي يراد بها الفلاسفة أو الحكماء خاصة (٦٣) .

فابن رشد ينظر الى الشعر ، وفق نظرة أرسطو ، وذلك من خلال وظيفته في التربية وتأثيره في الناشئة ؛ ومن ناحية أخرى فانه يرى فيه صنفا من صنوف الاقناع ؛ والاقناع أحد سبيلين رئيسيين لغرس الفضائل في نفوس سكان الدولة . فالأقاويل الخطابية والشعرية يخاطَبُ بها الجمهور ، وقد اعتمدها أيضا أفلاطون في « الجمهورية » (٦٤) .

فابن رشد يقف من الشعر من خلال وظيفته التربوية موقفا هادفا ؛ فمن القصص التي ، كما يقول ، ينبغي نبذها ما كان حاثًا على طلب اللذة أو على ابتغاء المال ، لأنها تحول دون التمرُّس بحياة الجندية . وهذه المفاسد ، كما يقول ابن رشد ، يكثر ذكرها في أشعار العرب ، « فلم يكن أضر من تلقينها للصبية منذ نعومة أظفارهم » ؛ وهو ما درج عليه معلموهم منذ القدم (٦٥) .

لا شك أن أبا الوليد يقف موقفا انتقائيا من الشعر العربي في مجال التربية . وهذا أمر ينسجم والأهداف التربوية السامية ، التي رسمها منذ البداية ، من وجوب غرس الفضائل في نفوس أبناء المدينة الفاضلة . ولا يمكن أن يكون هذا الموقف حُرْها للشعر العربي

---

(٦٣) انظر : فخري ، ص ١٢٣ .
(٦٤) انظر : فخري ، ص ١٢٣ .
(٦٥) انظر : فخري ، ص ١٢٦ .

بصورة عامة ، وهو الذي كان يحفظ شعر حبيب والمتنبي ، ويُكثر التمثل بهما في مجلسه .

كان لابن رشد باع في قول الشعر ، ولكنّه لم يكن يمثل جوانب عبقريته المشرقة ؛ وكانت له آراء ونظرات فنية ونقدية فيه امتزجت بآراء ارسطو ونظرته للشعر امتزاجا كلّيّا . ونحن نعتقد أن ابن رشد قد حالفه التوفيق في مجال الشعر كما حالفه في مجال الخطابة ، من حيث محاولته لتطبيق نظريات ارسطو على نماذج اصيلة في اللغة العربية وآدابها ، شعرا ونثرا ...

ادب ابن رشد ونزعته الانسانية والاجتماعية :

لقد ذاع صيت ابن رشد بين « اللاتين » لأمرين ؛ لكونه طبيبا وكونه شارحا لأرسطو ؛ بيد ان فخره شارحا اعظم من فخره طبيبا بمراحل . فمهما يكن من شهرة نالتها « الكليات » لم تبلغ ما ناله « قانون » ابن سيناء من اعتبار بالغ (٦٦) . وانما انتهى بشرحه الأكبر الى تكوين قطب ثبت في الفلسفة ، « فالطبيعة تفسر بارسطو، وارسطو يفسر بابن رشد » (٦٧) .

وألّفَ ابن رشد، عدا هذه الشروح ، عددا كبيرا من الكتب يُعْسُر احصاؤها تماما . وقد شَمَلت مؤلفاته مختلف مجالات المعرفة الانسانية : في الفلسفة ، وعلم الكلام ، والفقه ، والفلك ، والطب ، والنحو ، واللغة .

ونحن اذا تجاوزنا مفهوم الأدب من حيث هو نتاج فكري هدفه التسلية والموعظة الى مفهوم أعمّ ، وذلك من حيث هو نتاج فكري يؤثر الكاتب من خلاله في القارىء ويحركه نحو الأفضل ، نكون قد اقتربنا كثيرا لكي نصنّف في هذا الاطار مجموعة من مؤلفات ابن رشد الأدبية ، وأهمّها :

---

(٦٦) انظر : رينان ، ص ٧٣ .
(٦٧) المصدر ذاته .

١ ــ كتاب « تهافت التهافت » ، وقد وضعه ابن رشد لكي يدحض به كتاب الغزالي الذي عنوانه « تهافت الفلاسفة » .

٢ ــ كتاب « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » ، وقد حاول فيه ابن رشد أن يوفّق بين الشريعة والفلسفة .

٣ ــ كتاب « الكشف عن مناهج الأدلّة » .

ولكي نستطيع أن نفهم اتجاهات ابن رُشد في مصنّفاته المختلفة ، لا بُدَّ لنا أن نتعرف على نظرة ابن رشد للكاتب ، من ناحية ، ولنوعية الجمهور الذي يكتب اليه من ناحية أخرى . فالناس في نظره مختلفون حسب استعداداتهم وقدراتهم ، ومن هذا التفاوت في الفِطَر والعقول ، جعل الناس على حد تعبيره طوائف ثلاثا :

١ ــ الخطابيّون ، وهم الجمهور الغالب الذي يصدق بالأدلة الخطابية .

٢ ــ اهل الجدل ، ومنهم رجال علم الكلام ؛ وهم الذين ارتفعوا من العامة ولكنّهم لم يصلوا لأهل البرهان اليقيني .

٣ ــ البرهانيون ، بطبعهم وبالحكمة التي أخذوا أنفسهم بها .

وبناء على ذلك يقول ابن رشد بانقسام الشريعة الى ظاهر له اهله ، وهم العامة واشباههم ، وباطن له أهله ، وهم ذوو البرهان (٦٨).

وان نظرية ابن رشد في التعلُّم تقوم على هذه الفروق الفردية ، اذ كان ينادي دائما « بأنَّ جَعْلَ الناس شرعا واحدا في التعلُّم خلاف المحسوس والمعقول » ؛ هذه النظرية التي كانت معروفة جيدا عند الكثير من الفلاسفة قبله ، مثل الفارابي وابن سيناء وغيرهما ...

كان ابن رشد يرى وجوب تقيد الكاتب بنوعية الجمهور الذي يكتب اليه . فقد حرم مثلا الحديث مع الجمهور في علم الله على النحو

---

(٦٨) انظر : بين الدين والفلسفة ، ص ٩٣ .

الفلسفي . وقد أخذ على الغزالي اثباته التأويل في غير كتب البرهان ، وتقديمه ذلك الى جمهور الناس . وشجب المتكلّمين ، وبخاصة المعتزلة ، أنهم بتأويلهم التي صَرَّحوا بها للجمهور ، أوقعوا الناس في شتات وتباغض وحروب ، ومزقوا الشرع (٦٩) .

ولكننا نجد ابن رشد يقع في مثل هذا الطبع ، فيعتذر ، بأن الجمهور قد عرف من أولئك الذين يلومهم هذه التأويل . فكان لا بدَّ له أن يتكلم فيها ، وذلك لبيان الحق من جهة ، ولدفع الأذى عن الجمهور من جهة اخرى .

وان هذا اللون من الكتابة التي خرج بها من اطار كتب الخاصة ، اهل البرهان ، الى نطاق العامة ، اهل الجدل والخطابة ، ليست في جوهرها سوى مساجلات ومناظرات كتابية ، يحاول الكاتب دحض آراء خصومه ، واصلاح ما أفسدته ، على حد تعبيره ، لدى الجمهور . بل ينصّ احيانا أن بعض الأفكار ، لا سبيل الى انشائها في هذا الكتاب ، مما يؤكد أن كتاب « تهافت التهافت » ، ليس من الكتب التي تُدَّخَر للخاصة،وانما هو كتاب للعامة،على حَدّ مفهومه ؛ اذ يقول احيانا في مناقشة بعض الموضوعات : ، « وهذا العلم لا سبيل الى انشائه في هذا الموضع » (٧٠) .

وان اسلوب ابن رشد في « تهافت التهافت » ، يبتعد كثيرا عن الأساليب البرهانية ، فقد خرج به من هذه الدائرة من حيث الهدف ، ولكنه يتلوَّن احيانا بانفعالية تُخرج الكاتب عن وقاره وموضوعيته الى السباب والتهكم اللاذع .

فيشير الى ابي حامد الغزالي فيقول : « فاتيانه بمثل هذه الأقاويل السفسطائية قبيح ، فانه يُظَنُّ به انه ممن لا يذهب عليه ذلك ، وانما أراد بذلك مداهنة اهل زمانه » (٧١) وهذه تهمة ، ولا شكَّ ، خطيرة يوجّها ابن رشد الى ابي حامد . وفي موضع آخر يقول .

---

(٦٩) انظر : بين الدين والفلسفة ، ص ١٠١ .
(٧٠) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٩٢ .
(٧١) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٩٣ .

« قلت : هذا الكلام،الذي هو جواب عن الفلاسفة ، في نهاية السقوط » (٧٢) . وفي مكان آخر « قلت : هذا كله سفسطائي خبيث » (٧٣) . وكذلك : « هذا بَيِّن بنفسه » وقائل هذا ، هو الملبس ، لا الفلاسفة ، فان الملبس هو الذي يقصد التغليط لا الحق . واذا اخطأ في الحق فليس يقال فيه : انه ملبس » (٧٤) . وفي تعليق له حول بعض الأفكار يقول : « وهذا كله عند الفلاسفة هوس وتخليط » (٧٥) . وكثيرا ما يَتَّهم ابنُ رشد ابنَ سينا وشيعته فيقول : « فانظر هذا الغلط ، ما أكثره على الحكماء ؟ فعليك أن تتبين قولهم هذا : هل هو برهان أم لا ؟ اعني في كتب القدماء ، لا في كتب ابن سينا وغيره ، الذين غيَّروا مذهب القوم في العلم الالهي ، حتى صار ظنيا » (٧٦) .

ويتهم أحيانا ابن سيناء،والفارابي أحيانا ، بعدم فهم مذاهب قدماء الفلاسفة ، فيقول : « قلت : هذا كله تَخَرُّص على الفلاسفة من ابن سيناء وأبي نصر ، وغيره ... (٧٧) . وقد يهاجم الغزالي بعنف ، مع دحضه لآراء ابن سينا اذ يقول : « وأما الكلام فيما صدر عنها (أي العقول) فانفرد ابن سينا بالقول الذي حكاه (أي الغزالي) من الفلاسفة وتَجَرَّد هو للرد عليهم ، ليوهم انه ردّ على جميعهم .

وهذا ، كما قال ،"تَعَمُّق ممَّن قاله في الهوس » (٧٨) . وها هو أيضا ينعي على الفارابي وابن سينا مقالهما ، اذ يصيح مندهشا : « والعجب كلّ العجب ، كيف خفي هذا على أبي نصر وابن سينا ، لأنهما أول من قال هذه الخرافات،فقلَّدهما الناس ، ونسبوا هذا القول الى الفلاسفة ... » (٧٩) .

---

(٧٢) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ١٦٠ .
(٧٣) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٢٤٢ .
(٧٤) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٢٥٣ .
(٧٥) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٢٨٢ .
(٧٦) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٣٠١ .
(٧٧) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٣٠٦ .
(٧٨) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٣٨٥ .
(٧٩) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٣٩٧ .

وان مثل هـذه الاشارات التي تنم عن اسلوب انفعالـي كثيرة جـدا . وهو في اسلوبه هذا قد يَعْنُف الى حـدّ السباب،ويهزأ الى حـد السخرية اللاذعة . ففي مناقشته لبعض آراء ابـي حامد يقول : « فهو صادق في ذلـك ، اذ لم يبلغ الرجـل المرتبة من العلـم المحيطة بهذه المسألة . وهذا هـو الظاهر من حاله فيما بعد .. » (٨٠) .

وقد وقع ابـو حامد الغزالي في تيّار السباب والعنف أيضـا ؛ ولنستمع الى الغزالي وقد جاوز حـدّ الانفعال الى السباب تقريبا اذ يقول :

« قال ابـو حامد رادًّا على الفلاسفـة :

« قلنا : مـا ذكرتموه تحكُّمات ، وهي علـى التحقيق ظلمات فوق ظلمات ، لـو حكاه الانسان عن منام رآه ، لاستدلّ بـه على سوء مزاجـه ، أو أورد جنسـه في الفقهيات ، التي قصارى الطلب فيهـا تخمينات ، لقيل : إنهـا ترّهات ، لا تفيـد غلبة الظنون » .

فهي على حـدّ تعبير ابي حامد ، تحكّمـات ... وظلمـات ... وترّهات ... الـخ . وعندما يناقشـه ابن رشد ، يقابله انفعالا بانفعال ، وانتقاصـا بانتقـاص .

يقول ابن رشـد في الرد على الغزالي،بعد أن أورد مـا حكاه سابقا : « قلـت : « لا يبعد ان يعرض مثل هـذا للجهال مع العلماء ، وللجمهور مـع الخواصّ ، كما يعرف ذلك لهـم في المصنوعات ؛ فان الصُنّاع ، اذا أوردوا صفـات كثيرة من مصنوعاتهم على العوام،وتضمنوا الأفعال العجيبة عنهـا ، هزىء بهم الجمهور ، وظنوا انهـم مبرسمون ، وهـم في الحقيقة الذين ينزلون منزلة المبرسمين مـن العقلاء ، والجهال من العلماء . وأمثال هـذه الأقاويل لا ينبغي ان نتلقى بها آراء العلمـاء وأهـل النظـر » (٨١) .

---

(٨٠) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٤٠٩ .

(٨١) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٣٢٠ ــ ٣٢١ .

وهكذا فنحن نستطيع أن نصنّف كتب ابن رشد هذه خارج دائرة الخاصة ، وانها موجهة الى العامة من القراء،وهي بذلك تخرج من ميدان البحث الفلسفي الرصين ، الى ميدان المساجلات الأدبية وأساليبها ... لقد كتب ابن رشد مؤلفاته هذه وقد وجهها الى العامة ، وفق مفهومه ، يريد اصلاح ما افسدته أقوال السابقين . فهو يحاول اصلاح ما افسده سابقوه بالتصريح بآراء مُفسِدة ، وتآويل ضالة ، تلقفها غير أهلها ، فعمَّ بذلك ضررها ... (٨٢) .

وفي هذه المساجلة الفكرية ، يقول العقاد : « فلم يحفظ لنا تاريخ الفكر مساجلة بين حكيمين في قوة المساجلة التي دارت بين ابن رشد والغزالي ، ومضاء سلاحها،ونفاذ حججها،وبراهينها ... » (٨٣) .

ولم يكن ابن رشد في شروحه المشهورة وفي تصانيفه ، العلمية منها والفقهية والأدبية ، سوى مفكّر عظيم يُوَجِّهُ جميع طاقاته وجهة انسانية رفيعة ، هَدَفُها الأسمى تنمية الفضائل لدى أفراد الأمة ، وخلقُ مجتمع اسلامي قويم .

ونحن نلمس هذه النزعة الواقعية في مختلف مصنفاته،الى جانب تلك النزعة الانسانية السامية .

ونحن،اذا استثنينا بعض الاشارات المقتضبة الى قضايا أخلاقية وسياسية ، نلمحها في بعض مؤلفاته ، كتهافت التهافت ، والكشف عن مناهج الأدلة،وسواها ؛ فقد اقتصر ابن رشد في تآليفه في الاخلاق والسياسة ، على شرح الأخلاق الى نيقوماخس . وجوامع سياسة افلاطون ... (٨٤) . وقد فَصَّل ابن رشد في شروحه هذه ما فعله في شرح الخطابة والشعر . فهو لا يكتفي بشرح الجمهورية ، بل يعمد الى تطبيق بعض مبادئها على الأوضاع السياسية والاجتماعية السائدة في البلاد الاسلامية آنذاك ، وخاصة الأندلس والمغرب .

---

(٨٢) انظر : بين الدين والفلسفة ، ص ١٠١ .
(٨٣) العقاد ، ص ٥٥ .
(٨٤) انظر : فخري ، ص ١١٨ .

فصلاح المجتمع وسعادته ، هو الهدف الأسمى ، الذي كان يرمي اليه ابن رشد في جميع مصنفاته ، العلمية منها والفلسفية واللغوية ؛ فقد ختم كتابه المشهور في ميدان الفقه « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » ، بقوله :

« وينبغي قبل هذا أن يُعْلَم أن السنن المشروعة العملية المقصود منها هو الفضائل النفسانية ، فمنها ما يرجع الى تعظيم من يجب تعظيمه ، وشكر من يجب شكره،و في هذا الجنس تدخل العبادات ... ومنها ما يرجع الى الفضيلة التي نسميها « عفّة » ... ومنها ما يرجع الى طلب العدل والكفّ عن الجور ... ومنها السنن الواردة في الأعراض ، ومنها السنن الواردة في جمع الأموال وتقويمها ، وهي التي يُقصَد بها طلب الفضيلة التي تسمَّى السخاء،وتجنُّب الرذيلة التي تسمى البخل ؛ والزكاة تدخل في هذا الباب من وجه، وتدخل في باب الاشتراك في الأموال ؛ وكذلك الأمر في الصدقات .

ومنها سنن واردة في الاجتماع الذي هو شرط في حياة الانسان وحفظ فضائله العلمية والعملية ... ومن السنن المهمّة في حيّز الاجتماع السنن الواردة في المحبّة والبغضة والتعاون على اقامة هذه السنن ؛ وهو الذي يسمَّى النهي عن المنكر والأمر بالمعروف ... الخ .. » (٨٥) .

فمن الواضح أن ابن رشد يرى أن الدين يرمي بشعائره واوامره الى غايات انسانية واجتماعية رفيعة ، هَدَفُها صلاح المجتمع وسعادته . وكان لابن رشد ، من خلال ادبه،موقف واضح من اهم القضايا الاجتماعية والسياسية ؛ فقد كان له راي واضح في السياسة، والاجتماع،والتربية،والمراة،وحرية الانسان ؛ ففي مجال السياسة ، فان نظرته كانت مبنية على فلسفة افلاطون ، وقد بسطها في شرحه « جمهورية » هذا الفيلسوف وجوهر تعاليمها ، انه يجب القاء

---

(٨٥) انظر : بداية المجتهد ، ج ٢ ، ص ٤٦٤ .

زمام الأحكام الى الشيوخ والفلاسفة ليديروها بقسط وعدل . ويجب حث الناس على الفضائل بتعليمهم البيان والعلوم التي تثقف العقل (٨٦) .

ويتناول ابو الوليد ثلاث قضايا هي بمثابة المدخل الى علم السياسة ، وهي :

اولا ــ ما هي الشروط التي ينبغي أن تتوافر لكي توجد هذه الفضائل المشار اليها ... اذ ليس الغرض من هذا العلم معرفة ماهية هذه الفضائل ، كما يقول ارسطو ، بل العمل بها .

ثانيا ــ كيف يمكنُ غرسُ هذه الفضائل في نفوس الأحداث ، بحيث تنمو تدريجيًّا ، وكيف تصان بعد أن تبلغ مرتبة الكمال ؟ وكيف يمكن استئصالُ الشر من نفوس الاشرار .

ثالثا ــ ما هي الصفات والفضائل التي تشتدُّ اذا اقترنت بفضيلة ما ، وتضعف اذا اقترنت بفضيلة اخرى ؟ اي كيف تؤثر هذه الفضائل احداها في الأخرى (٨٧) .

وكان ابن رشد يكره الاستبداد العسكري والاقطاعات العسكرية ، ويرى استغناء الدولة عن القضاة والأطباء ، دليلا على انتظام شؤونها . ويقوم مُثُل الدولة الأعلى على عدم الاحتياج الى قاض ، ولا الى طبيب ؛ وليس على الجيش واجب غير السهر على حرس الأمة . وما يحدث لو اكلت كلاب الراعي غنمه ؟ وتُعَدُّ إقطاعات الجيش آفة الدول (٨٨) .

وقد رأى ابن رشد أن الحاكم الظالم هو ذلك الذي يحكم الشعب من اجل نفسه لا من اجل الشعب . وأنَّ شرَّ الظلم ظلم الكهنة ؛ وان احوال العرب في عهد الخلفاء الراشدين كانت على غاية من الصلاح ، « فكأنما وصف أفلاطون حكومتهم ، لما وصف في « جمهوريته » الحكومة الجمهورية الصحيحة التي يجب أن تكون مثالا لجميع الحكومات » .

---

(٨٦) انظر : ريتان ، ص ١٧٠ ، لرح ، ص ٥٩ .

(٨٧) انظر : فخري ، ص ١٢٢ .

(٨٨) ريتان ، ص ١٧٠ ، وهذا النص اورده من طبيعيات ص ٣١ ــ PRIHERM

ولكنَّ معاوية هدم ذلك البناء الجليل القديم ، واقام مكانه دولة بني اميـة وسلطانها الشديد ، ففتح بذلك بابا للفتن مـا تزال الى الآن قائمة قاعدة حتـى في بلادنا هذه (أي الأندلس) . » (٨٩) . أمـا موقفه من المـرأة فهو يساوي بين المـرأة والرجل من حيث الطبيعة فيقول : وتختلف النسـاء عن الرجال درجة لا طبيعة ، وهـنَّ اهل لكل ما يفعل الرجال من حـرب وفلسفة . الـخ ... ، ولكن على درجة دون درجتهم . وهـنَّ يُفْقْنَهم احيانا، كما في الموسيقـى ، وذلك مع كون كمال هـذه الصناعة يقوم علـى التلحين مِن قِبَل رجـل والغناء مِن قِبَل امرأة . ويدلُّ مثال بعض الـدول الافريقية على استعدادهن الكبـير للحرب ؛ ولا يُعَدُّ من الخوارق امكـان انتهائهن الى الحكومة الجمهوريـة . أولا يرى ، كما هـو الواقع ، ان اناث الكلاب تحرسُ القطيـع كما تحرس ذكورها ؟ والى هـذا اضاف ابن رشد قولـه :

« لا تَدْعُنا حالنـا الاجتماعية نبصر كل مـا يوجد من امكانيات في المـرأة ؛ ويظهر انهن لم يخلقن لغـير الولادة وارضاع الأولاد" .

وقـد قضت هذه الحال من العبودية فيهن علـى قدرة القيام بجلائل الأعمال.ولـذا فاننا لا نرى بيننا امـرأة مزيَّنة بفضائل خلقية . وتمرُّ حياتهن كما تمـرُّ حياة النباتات ، وهـن في كفالة ازواجهن انفسهم . ومن هنا ، ايضا ، اتـى البؤس الذي يلتهم مدننـا ؛ وذلك لأن عدد النسـاء فيها ضعف عـدد الرجال ، ولا يستطعن كسب الحاجـيّ بعملهـن . » (٩٠) .

وتَطَرَّق ابن رشـد الى حرية الانسان ، ووصل هـذا المفهوم الانساني الرفيع بمـا ورد عنه في آي القـرآن الكريم . فالانسان غير مطلق الحريـة تماما ولا مقيَّدُها تماما . وذلك انـه اذا نُظِر اليه

---

(٨٩) انظر : رينـان ، ص ١٧١ .

(٩٠) رينـان ، ص ١٧٠ ــ ١٧١ وقد نقل النصوص عـن « طبيعيـات » ص ٢١ (PRIHERM) ، ص ٤٨ .

من جهة نفسه وباطنه ، فهو حُرٌّ مطلق لأن نفسه مطلقة الحرية في جسمه . ولكن اذا نُظِر اليه من جهة حوادث الحياة الخارجية ، كان مقيَّدا بها ، لما لها من التأثير على أعماله . « وهو يقول :" ان هذا هو السر في أن القرآن يجعل الانسان تارة مختارا وتارة مقيَّدا . » (٩١) .

ويسير ابن رشد على منوال أفلاطون في قضايا التربية ، فيحذِّر في مجال تربية الصغار من التمثيل بالحكايات الكاذبة « اي الأساطير » التي ترسخ في اذهانهم مُتفسِد سريرتهم (٩٢) . وهو على مذهب أفلاطون بالتربية الجماعية ، وحاجة الفرد لأقرانه . فقد تبيَّن أن اكتساب المرء لأي من هذه الفضائل دون معونة الأقران مستحيل ، إذ ان الانسان يحتاج الى من عداه ، في اكتساب الفضيلة ؛ فهو كائن مدني بالطبع (٩٣) .

وفي حديثه عن الخصال المكتسبة التي ينبغي على الحاكم أو الرئيس أن يتصف بها ، يرسم ابن رشد منهاجا تربويا واضحا ، فيما يتعلق بالرئيس ، من الطفولة الأولى حتى يبلغ سن الخمسين ، لأنه على حَدِّ تعبيره يجب تفويض الحكومة الى الشيوخ .

فبعد أن يتحدث عن الطفولة الأولى للحاكم أو الرئيس ، يقول : ومنها ، أي من الخصال المكتسبة ، الاقبال على العلوم المختلفة والتوفُّر على دراستها . وتبدأ هذه الدراسة بعلم الحساب ، فالهندسة ، فعلم النجوم ، فالموسيقى ؛ وهي علوم لا تُطْلَب من أجل الكمال الانساني ، شيمة الطبيعيات والالهيات ، بل من أجل إعداد الفكر للاقبال على هذين العلمين ... وحين يبلغ الحكّام سنّ السادسة عشرة أو السابعة عشرة ينبغي أن يُقبلوا على تعلم الفروسية حتى سن العشرين ، وعندها يأخذون بتعلم الفلسفة حتى سنّ الثلاثين . فاذا بلغوا الخامسة والثلاثين دُفِعت لهم رئاسة الجيش ، طوال

---

(٩١) انظر : مسرح ، ص ٥٨ .
(٩٢) انظر : فخري ، ص ١٢٤ .
(٩٣) فخري ، ص ١٢٠ .

خمس عشرة سنـــة ؛ فاذا بلغوا سن الخمســين ، باتوا قادرين على الاضطلاع بمهـــام الرئاسة وادارة شؤون الدولـــة ...

أمـــا التربيةُ الاخلاقيةُ لجميع المواطنـــين ، فهي تقوم،في نظر ابن رشـــد ، على تلقينهم الفضيلة بتعليمهـــم الخطابة والشعر والجدل . ولا شكَّ أن فيلسوفنـــا يقصد الانتقاء في مجـــال الخطابة والشعـــر والجدل ، فهـــي وسائل من أجـــل تربية الفضيلـــة في نفوس جميع المواطنين . ومن هنـــا نستطيع أن نفهم قولـــه عندما يُعقّب على ذلك قائلا : « والشعر مفســـد ، ولا سيما شعر العرب » (٩٤) . فـــان ابن رشـــد لا ينال من قيمة الشعر الفنية ، ولـــم يهدف ان ينتقص من شعر العرب من حيث هـــو ، ولكنه يرى أن يختار المربـــي من هذه الأشعار ما يكفل بتلقين الفضيلـــة ، وتربيتها في نفـــوس المواطنين .

العلاقة بـــين الشكل والمحتـــوى :

يشغل الجدل ، بصورة عامـــة،مكانة مهمة من مؤلفات ابـــن رشد . وهو على حـــد تعبير رينان : « يدخل اليـــه من الرشاقة ما هو ممتع . ومما كان يقع احيانـــا ، أن يرتقي بحماسته العلمية ، وكَلَفِـــه بالفلسفة الى نبرة من الخلقية ، بليغة الـــى الغاية . ويسود الاسهاب شروحـــه، ولكن بـــلا جفاف . وتتجلى شخصية المؤلف فيمـــا يعرف أن يسوقه الى المواضع المهمة مـــن استطرادات وتأمـــلات ... » (٩٥) .

والحقيقة أن هـــذه الاشارات تُكَوِّن اهـــم خصائص ابن رشد في اسلوب كتابته . أمـــا جفاف اسلوبه فلا بـــد لنا ان نستذكر حقيقة مهمة ، حيث أن طبعات كتبـــه في الحقيقة لا تعرض في نصوصهـــا العربية سوى شرح قـــام على ترجمة عربية من ترجمة سريانية مـــن اصل يوناني . أما في نصوصها باللغـــات الأجنبية فهي تقوم على ترجمة لاتينية مـــن ترجمة عبرية . هذا مـــع العلم ان كثيرا من مصنفاته قـــد فُقِدَت أصولها العربيـــة .

---

(٩٤) أنظر : رينـــان ، ص ١٧٠ ــ ١٧١ .
(٩٥) رينـــان ، ص ٦٧ .

وان الدارس لادب ابـن رشد ومصنّفاته يمكن ان يلمـح ركائز يمكن ان تُميِّز نظـرة ابن رشد في اسلوبه، من ناحية، وفي فـن الكتابة، من ناحية اخرى . فهنالـك طبيعة الجمهور الذي يكتب اليـه الكاتب ؛ وهذه النظرة رايناهـا واضحة تماما في ابحاثنا السابقة ؛ فهـو ينادي بأن على الكاتب أن يكون علـى بصيرة من نوعيـة الجمهور الذي يكتب اليـه ، وبالتالي بنوعية الأفكـار وطبيعة الأبحاث التي يقدمها الـى قرائه ، والا وقع في خطيئة كبـيرة، وأدّى جهده الى الانسـاد . « فليس كل صنف من اصناف النـاس ينبغي أن يُسْتَعْمَل معهـم البرهان ، في الأشياء النظرية التي يراد منهـم اعتقادها . وذلك إمّـا لأن الانسان قد نشأ على مشهورات تخالف الحـقَّ ، فاذا سلك بـه نحو الأشياء التي نشأ عليها ، سَهُل اقناعـه ، وإمّا لأن نظرته ليست مُعَدَّة لقبـول البرهان اصلا ، وإمّـا لأنه لا يمكن بيانه لـه في ذلك الزمان اليسير الذي يراد منـه وقوع التصديق فيـه ... » (٩٦) .

فهو في ذلك يقـول بوجود علاقة وثيقة بـين طبيعة الجمهور وحقائق المعرفة التـي يمكن أن تُعْرَض عليهم . هـذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى ، يجعـل للانفعالات النفسيـة دورا مهمًّا نحو استمالة الحكام والناظرين ، حيـث يقول : ... الأشياء المعينـة في وقوع التصديق ، مثـل التكلم في الخوف والرحمـة والغضب، وما اشبه ذلك من الانفعالات النفسانية التـي ليست مُعَدَّة نحو الأمـر المقصود تبيينه أولا وبالذات ، وانمـا هي مُعَدَّة نحو استمالة الحكـام والناظرين ، ولذلك كانت كأنهـا مُوَطِّئَة للتصديق لا فاعلة لـه ... (٩٧) .

ويجعل ابن رشـد للألفاظ مكانتها في زيـادة التصديق ؛ وإن هذه المكانة تختلـف باختلاف طبيعة المعارف ، وذلك على حـد تعبير ابن رشد، لأن للألفاظ في ذلـك معونة في زيادة التصديق الحاصـل عن

---

(٩٦) تلخيص الخطابـة ، ص ١١ .

(٩٧) تلخيص الخطابـة ، ص ٥ .

البرهان وقوته ، كالحال في الصنائع الأخرى ، فانها يلفى لها معونة في ايقاع التصديق المستعمل فيها وان كانت في ذلك تختلف .

فأقلُّها حاجةٌ في ذلك صناعة الجدل ، ثم من بعدها صناعة السفسطة ، ثم من بعدها الخطابة ، ثم من بعدها صناعة الشعر . فهاتان الصناعتان اكثر حاجةً الى ذلك ...

وانما صارت الألفاظ والأصوات تفعل في هاتين الصناعتين هذا الفعل من اجل انها تخيل في المعنى رفعة او خسة ، وبالجملة امرا زائدا على مفهوم اللفظ ، مثل غرابة اللفظ ، فانها تخيل غرابة المعنى ، ولذلك فخامته تخيل فخامة المعنى . والنغم كذلك يفيد فيه هذا المعنى ... وليس يُقْصد ذلك احد عندما يتكلم على طريق الهندسة ولا على طريق العدد (٩٨) .

فقد ادرك ابن رشد العلاقة الوثيقة بين الشكل والمحتوى ، وقد اقترب في مفهوم ذلك الى المدى الذي لا يرى منه الشكل منفصلا عن المحتوى ، بل ان الصورة مرتبطة ارتباطا عفويا مع المادة . فابن رشد يرى مع ارسطو ان الكون هو تغير في الجوهر ، وانه لا يتكوَّن شيء من لا شيء ، بل من موضوع . وهذا على حدّ تعبير ابن رشد في تفسير ما بعد الطبيعة حيث يقول : "... المذهب الذي اخذناه عن ارسطو ، وهو ان الفاعل انما يفعل المركب من المادة والصورة ، وذلك بأن يحرك المادة ويغيرها حتى يخرج ما فيها من القوة الى الفعل ... » .

ان هذه النظرة الفلسفية للعلاقة بين المادة والصورة قد انعكست تماما في موقف ابن رشد من الأدب بصورة عامة ، حيث يرى المادة متصلة اتصالا عفويا بالشكل،وليست منفصلة عنه . وهي النظرة التي يأخذ بها النقد الأدبي في مناهجه الحديثة .

---

(٩٨) تلخيص الخطابة ، ص ٢٥٣ .

وربما كانت هـذه النظرة الى العلاقة بـين الشكل والمحتـوى ، بين المـادة والصورة ، وتطبيقها علـى الأدب ، وفق مفهومه العقلاني لـه ، اهمّ قضيّتين يمكن ان يطرحهما الدارس لأدب ابـن رشد . أما القضية الاخرى ، فقـد اشرنا اليها فيما سبق،وهـي ارتباط الأدب بالحقيقـة والمعرفة ، في نظـر ابن رشد ...

ابن رشد في مجـال اللغة والبلاغة والنحـو :

كان للُّغة اثـر كبير في تحديد فكر ابن رشـد ، وتطويع نظريات ارسطو وفلسفته الى واقـع الحضارة العربية الاسلامية بمفاهيمهـا وعقيدتها ، بـل الى لغتها وادبهـا .

فقد اعتذر ابن رشـد عن ذكر الأمثلة اليونانية لأنه رآهـا مجهولة تماما لدى القارىء العربـي الذي يتوجّه اليه ، ولا تتـلاءم أيضا مع الجـوّ الاسلامي الذي يكتب لـه ويعيش فيه ؛ على أنـه استبدل بهذه الأمثلة اليونانية نظائرهـا في الاسلام ، فاستشهد بشواهد من الفقه والتاريخ الاسلامي واللغـة العربية ... حيث أراد ان يطبّـق القواعد والنماذج التي يذكرها ارسطو على اللغة والأدب والخطب العربية .. (٩٩).

وكان ابن رشـد يقول منذ البداية ، بأن الشريعـة الاسلامية تحضُّ من خلال الآيـات القرآنية والحديث على النظـر الفلسفي . وهـي توجب استعمال البرهـان المنطقي ، على حـد تعبيره ، لمعرفة اللـه تعالى وموجوداته . ويستشهد على ذلـك بآيات من القرآن الكريم ، فيورد مثلا الآية الكريمة : « فاعتبروا يـا أولي الأبصار » (١٠٠) . ويبيّن أن الاعتبار هنـا ليس الا استنباط المجهـول من المعلوم ، وهو القياس الفلسفي أو المنطقـي المعروف (١٠١) .

وبنـاء على هذا الاتجاه ، فقـد استخدم ابن رشد امثلة عربية واسلامية كثيرة في كتـاب « تلخيص الخطابة » وفي كتـاب « الشـعر »

---

(٩٩) انظر : مقدمـة تلخيص الخطابـة ، ص ي .
(١٠٠) صـورة الحشر ٢/٥٩ .
(١٠١) انظر : بين الديـن والفلسفة ، ص ٩١ .

أيضا . وبالرغم من أنهـا شروح لكتب أرسطو ، غير ان ابـن رشد في التلخيص أو التحليل يتكلّـم باسمه الخاص دائما ، فيعرض مذهـب الفيلسوف مضيفا ، حاذفـا ، باحثا في الرسائل الاخرى ما تكمل بـه الفكرة، متّخِذًا ترتيبـا ومنهاجا من اختياره ؛ وهكذا على حـدّ تعبير الفيلسوف الفرنسي « رينـان » : « فان التلخيصات رسـائل حقيقية كرسائل أرسطو » (١٠٢) . ففـي حديثه مثلا عن الأمور المستعملة مـع الألفاظ على جهـة المعونة في جودة التقسيم وايقاع التصديـق وبلوغ الغرض المقصود ، وهي على حـدّ تعبير ابن رشـد نفسه ، التي جرت عادة القدماء ان يُسَمُّوها الأخـذ بالوجوه . فيقول : « وذلـك ان هذه الأشياء ، لمـا كان من شأنها ان تميل السامعين الـى الاصغاء والاستماع والاقبال على المتكلم بالوجـه ، وتفريغ النفس لمـا يورده ، أُستُعير لها هذا الاسم . وهذه الأشياء صنفان : إمّا اشكال ، وإمّا اصوات ونغم ...

والأشكال، بالجملة ، يقصد بها أحـد امرين : إمّا تفهيم المعنـى وتخييله الموقع للتصديـق ، كما روي عن النبي ، صلى اللـه عليه وسلم ، انـه قال في آخر خطبة : « بُعِثتُ انـا والساعة كهاتين » واشـار باصبعيـه يقرنهمـا ... (١٠٣) .

وتراه يخرج في شروح الـى دراسات مقارنـة ، فيتحدث عن موقع بعض النظرات البلاغيـة في اشعار الأمم ، ويقارنها بما هـو في لغـة العرب وآدابها . فنرى ابن رشـد يتحدث في موضع آخر مـن « تلخيص الخطابة » فيقـول : « وفيها ايضا انهـا تُستَعمَل بضرب من الوزن في الكلام الخطبـي ... وهذا الضرب من النغـم ضروري في اوزان اشعار من سلـف من الأمم ما عدا العرب ؛ فـان من سلف من الأمم كانوا يزنون ابياتهـم بالنغم والوقفات ، والعـرب تزنها بالوقفات فقط . ومنها ايضـا ان تُستَعمَل اشعارا في افتتاح القـول وختمه ومواضع الوقـف ... » (١٠٤) .

---

(١٠٢) رينـان ، ص ٧٤ .
(١٠٣) انظر : تلخيص الخطابـة ، ص ٢٥٠ .
(١٠٤) تلخيص الخطابـة ، ص ٢٥١ .

وقد نُظر الى البلاغة بهذه النظرة المبدعة ، حيث استطاع ان يتمثّل نظريات ارسطو من خلال نثر اللغة العربية وشعرها ... ويستخدم، بطبيعة الحال ، الاصطلاحات البلاغية التي سبقه اليها البلاغيون الأعلام قبله، اذ يقول مثلا : « والاستعارة التي تكون من هذا النوع كثيرة موجودة في اشعار العرب وخطبها ، والأقاويل التي يخصّها اهل لساننا من الناظرين في الشعر والبلاغة بالاستعارة هي داخلة في هذا الجنس ، ولذلك يقولون : إن المجاز استعارة وتشبيه » (١٠٥) .

وكان لابن رشد مجال واسع في التعريب ، وكيفية استخدام الالفاظ للدلالة على معان مستجدَّة ؛ وكذلك توليد الكلمات عن طريق الاشتقاق وغيره . فقد ذُكِرَتْ لنا المصادر المختلفة بين قائمة كتبه ، كلاما له على الكلمة والاسم المشتق (١٠٦) .

ففي حديثه عن تأثير الالفاظ والأصوات في الاقاويل يقول : « والذين وقعوا أولا على تأثير هذه الأحوال من الالفاظ والاصوات في الأقاويل هم الشعراء ، وذلك أن هذا المعنى أظهر ما يكون في الأقاويل الشعرية ، مع أن الوقوف على الأقاويل الشعرية هو متقدم بالزمان على الأقاويل البلاغية ... » (١٠٧) .

ويُعمِّق نظرته في استعمال الالفاظ في لغات مختلفة ، فيقول : « وأما اللغات فهي صنفان، أحدهما ... مثل ان يستعمل الحجازي لغة حِمْيَريّة ؛ والصنف الثاني ان يستعمل في مخاطبة امة ما ، لفظا ليس من الفاظ اهل لسانهم ، وانما هو من لسان امة أخرى ، مثل ما يوجد في لسان العرب الفاظ كثيرة من الفاظ الفرس والأمم المجاورة لها . وهذا يُستَعمل على وجهين : احدهما ان يأتي بذلك اللفظ بعينه من غير ان يغيِّر بنيته وتركيبه : والوجه الثاني ان يُغَيِّره تغييرًا يقرب

---

(١٠٥) تلخيص الخطابة ، ص ٢٩٤ .

(١٠٦) انظر : القائمة التي اوردها رينان ، ص ٤٥٦ ــ ٤٥٧ . وفق مخطوط الاسكوريال .

(١٠٧) تلخيص الخطابة ، ص ٢٥٣ ــ ٢٥٤ .

من الأبنيـــة المستعملة في لسانهم ليسهل بذلـــك عليهم النطق بـــه،مثل : السِّجّيل وغير ذلك مما هـــو موجود في كتب اللغـــة (١٠٨) .

فابن رشد يقف هنـــا موقفًا واضحًا ومتميزا ، تجـــاه قضية التعريب ، سواء أكـــان ذلك بإحياء الفاظ ميتة ، مثـــل استعمال الحجازي الفاظا حميرية ، أم استعمـــال اللفظة الأجنبية ، كما هي ، وادخالهـــا الى العربية،من ناحيـــة،او ادخالها بعد اضفاء رونـــق العربية عليهـــا ... وقد أورد لفظـــة « السجّيل » وهي لفظة قـــرآنية ... وهنالك أيضا الفاظ موضوعة ، يحدّدها ابـــن رشد من خلال شرحه فيقـــول : « وهي الألفاظ المخترَعة في لســـان جنس ما ، يُخترعها أهل ذلك اللســـان ، على نحو التركيب الـــذي لحروفهم » (١٠٩) . ويبحث « تلخيص الخطابـــة » اللفظة من حيثُ أصـــوات الحروف وتناسقها او عدمـــه . وهنا أيضا ، تمتزج آراء أرسطـــو بآراء شارحه ابن رشـــد ، الى الحد الذي تُرى فيه شخصية الشـــارح واضحة بارزة ، وذلك من خـــلال تقصّياته وإيراده الأمثلة في نطـــاق العربية وحروفها واصواتهـــا،اذ يقول :

« وامـــا المغلّطة فهي الألفاظ التي يعسر النطق بهـــا ، وذلك يعرض لأسباب : منها أن تكون تلـــك الحروف حروفا يُعْسُر النطق بهـــا ، وإن كانت قليلة ؛ ومنها ان يكـــون سبب العسر فيهـــا كثرة الحروف التي رُكّبت منها ، والتـــي يعسر النطق بها ، إمّـــا أن يكون من أجل مخرج الحرف نفسه وأن ينطق بـــه وحده ، مثل كثير من حروف الحلـــق ، وإمّا أن يكون العسر يحدث لـــه عند تركيبه مع غيره ؛ وذلك إمّـــا لتقارب مخارجها ، وهذا هـــو سبب الادغام في لســـان العرب ، وإما لتكرارها ، مثل قولهـــم : « قصصت اظفاري » . ولذلك بعض العـــرب يبدلون احدى الصادين « يـــاء » في مثل هذا . وربما كـــان السبب في ذلك تضادّ المخارج . ولذلك قَـــلَّ في لسان العرب اســـم يوجد على وزن

---

(١٠٨) تلخيص الخطابـــة ، ص ٢٥٧ .

(١٠٩) تلخيص الخطابـــة ، ص ٢٥٩ .

« فِعلى » الا مـــا حكوا من « الفِعلى » . واكثر الانقلابـــات والتغيُّرات التي يضعها النحاة هـــذا هو سببها (١١٠) .

وهنـــا نستبين خصائص نظرة ابن رشـــد في النحو ، وقد كانت لـــه مساهمة فيه . ولا عجب من ذلك ، فالنحو عنـــد أهل الأندلس ، على حـــد تعبير المقّري « في نهاية من علـــوّ الطبقة ، حتى أنهم في هذا العصر فيـــه كأصحاب عصر الخليـــل وسيبويه ، لا يزداد مـــع هرم الزمان الا جِدَّة ؛ وهـــم كثيرو البحث فيه ، وحِفْظ مذاهبـــه كمذاهب الفقه . وكلُّ عالِمٍ في أيّ علـــم لا يكون متمكنا من علـــم النحو ، بحيث لا تخفى عليـــه الدقائق، فليس عندهم بمستحقّ للتميُّز ، ولا ســـالـــم من الازدراء ... » (١١١) .

ولـــم يخرج ابن رشد عن هـــذه القاعدة ، فقد أسهم في هـــذا المجال بكتاب سمـــاه « الضروريّ في النحو » (١١٢) . وان هذه التسمية ، تذكّرنا بكتاب أبي بكـــر الزبيدي القرطبي الذي وضعه قبـــل ذلك بحوالي قرنين من الزمـــن واطلق عليه « الواضـــح » .

ذكرت أكثر المصـــادر التي اوردت مصنَّفات ابن رشـــد ، كتابه هذا في النحـــو ، ولكن مع الأسف لم يصل الينـــا ، ولا نعرف عنه شيئا ؛ فربما ما زال تائها فـــي بعض الاقبية او زوايا المكتبات ، وربما فُقِـــدَ الى الأبد كمـــا فُقِدَت مصنَّفات كثيرة من هـــذا التراث الضخم ، نتيجةً النكبات والحروب ومـــا حلَّ بالأندلس مـــن استئصال لجذور حضارة عربية اسلامية اصيلـــة . وإنَّ التسمية بحـــدّ ذاتها « الضروري في النحو » توحي لنـــا باتجاهه العملي ، في استخـــدام ما هو ضروري من قواعد النحـــو ؛ وهذا الاتجاه ينسجم تماما مع طبيعة فلسفـــة ابن رشد العقلانية والواقعيـــة ... وهو في ذلك استمرار لهـــذه المدرسة

---

(١١٠) تلخيص الخطابـــة ، ص ٢٥٨ .

(١١١) انظر : النصـــح ، ج ١ ، ص ٢٠٦ .

(١١٢) انظر : قائمة كتـــب ابن رشد التي اوردهـــا رينان ، ص ٤٥٦ ــ ٤٥٧ وفـــق مخطـــوط اسكوريـــال .

القرطبية ، التي اتّجهت اتّجاها عمليا مناهضةً لتعقيدات النحاة ، وانشغالهم بجزئيات لا فائدة منها .

وجملة القول، فقد كانت لابن رشد جهود طيّبة في مجال البلاغة والنقد ، وفي مجال النحو والاشتقاق، والترجمة والتعريب والشرح ؛ وان هذه المجالات لتستحقّ الدراسة المتعمقة في مصنفات هذا الفيلسوف الاسلامي، الذي كان على حد تعبير ابن الأبار : « كان يُفْزَع الى فتواه في الطب كما يُفْزَع الى فتواه في الفقه، مع الحظ الوافر من الاعراب والآداب » ...

خاتمة

ربما كان ابن رشد من المفكّرين القلائل في الدنيا ، الذين اهملتهم امّتُهم وعُنِيت بهم امم أخرى ؛ لقد تجاوزت مصنفات ابن رشد حدود الزمان والمكان ، وكانت ركيزة اساسية في النهضة الأوروبية فيما بعد .

عَرَّفت اوروبا القرون الوسطى ابن رشد باسم (Averroes) وطارت شهرته لديها بالطبّ، من ناحية، وبالفلسفة من ناحية اخرى . وربما كان من الطبيعي ان لا يُعْنَى الفرنج بالجوانب الأخرى في فكر ابن رشد ، في مجال الفقه واللغة والأدب . وقد بقيت جميع هذه الجوانب ، مع الأسف، في زوايا الاهمال والنسيان ... ولا شكَّ أن العصور المظلمة التي توالت على الأمة العربية والاسلامية ، كانت تقف وراء هذا الاهمال .

لم يكن ابن رشد فيلسوفا وطبيبا فحسب ، بل كان فقيها مجتهدا ، كما ينمُّ عليه كتابه « بداية المجتهد » ؛ كما كان اديبا كاتبا، يعالج اهم القضايا السياسية والاجتماعية والأخلاقية التي تَمَسُّ كيان أمته . وقد سار على درب صديقه « ابن طُفيل » وكثير من الفلاسفة المسلمين الذين سبقوه ، في محاولة التوفيق بين الحكمة والشريعة ، وبين ما يصل اليه من طريق الوحي والرسل ...

ولـــذا فنحن نستطيع ان نعتبر بحـــقٍّ ما كتبه في « تهافت التهافت » وفي كتابه « فصل المقـــال » ... وكذلك في « كشف مناهج الأدلّـــة ... » وغيرها ، من الأدب العقلاني الرفيـــع الذي يحاول الكاتب فيـــه معالجة قضايا انسانيـــة واجتماعية واخلاقية وسياسيـــة ، يهدف من ورائها اصلاح ما فســـد في بنيان هذه الأمـــة .

ولم يقف ابن رشـــد عند هذه الحدود من الأدب ، بـــل تَعدَّاها الى قول الشعر ، والإسهـــام في البحوث اللغوية والبلاغية،ولا سيمـــا في مجال النحو والتعريـــب والاشتقاق والنقد ... الـــخ ... وإنَّ شروحه لمصنّفات أرسطـــو لم تكن لتقعد بـــه عند حد النقل ، بل كانت تتعداه الى حـــد الابداع في فهم فكر « المعلم الاول » وتَمثّلـــه ، وتطبيقه على بيئته العربية الاســـلامية،ولا أدل على ذلـــك من تعقيبه في خاتمة كتـــاب « تلخيص الخطابـــة » بقولـــه : « وهنا انقضت معاني هـــذه المقالة الثالثـــة ، وقد لخَّصنا منها مـــا تأدى الينا فهمه،وغلب على ظَنِّنا انـــه مقصـــوده ... » (١١٣) .

---

(١١٣) انظر : تلخيص الخطابـــة ، ص ٢٢٢ .

المصـــادر والمراجـــع

ابـــن الأبـــار : ابن الأبار القضاعي البلنســـي ، التكملة لكتـــاب الصلة ، ج ١ ــ ٢ ، القاهرة ، ١٣٧٥ هـ ــ ١٩٥٦ م .

ابن ابي اصيبعة : موفق الديـــن ابو العباس احمد بن القاسم بـــن خليفة بـــن يونس السعدي الخزرجـــي المعروف بابن ابـــي اصيبعة ، عيون الأنباء في طبقـــات الأطباء ، بـــيروت ، ١٩٥٦ م .

ابـــن الأثـــير : عـــز الدين ابو الحسن علي ابن ابـــي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحـــد الشيباني المعروف بابن الأثـــير ، الكامل في التاريخ ، ج ١ ــ ١٢ ، بـــيروت ، ١٣٨٦ هـ ــ ١٩٦٦ م .

ابـــن بشكـــوال : ابـــو القاسم خلف بن عبـــد الملك ، الصلـــة ، مصـــــر ، ١٩٦٦ م .

ابن تغرى بردى : جمال الدين ابـــو المحاسن يوســـف تغرى بردى الأتابكي ، النجـــوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ١ ــ ١٢ ، القاهـــرة .

ابـــن رشـــد : ابـــو الوليد محمد بن احمـــد بن محمد بن احمد بن رشـــد القرطبي ، بداية المجتهـــد ونهاية المقتصد ، ج ١ ــ ٢ ، القاهـــرة .

" " : ابـــو الوليد ابن رشد ، تلخيص الخطابـــة ، تحقيق عبـــد الرحمن بدوي ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .

" " : ابـــو الوليد ابن رشـــد ، تلخيص السفسطـــة ، تحقيق محمـــد سليم سالم ، القاهرة ، ١٩٧٢ م .

ابـــن رشـــد : ابـــو الوليد محمد بن رشـــد ، تهافت التهافت ، ج ١ ــ ٢ ، تحقيـــق الدكتـــور سليمان دنيـــا ، القاهـــرة ، ١٩٦٤ م .

ـــ ـــ : ابـــو الوليد محمد بن أحمد بن محمـــد بن رشد القرطبي ، رسائـــل ابن رشد ، حيدر أبـــاد الدكن ، ١٣٦٦ هـ ــ ١٩٤٧ م .

ابـــن سعيـــد : علي بن موسى ، المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ــ ٢ ، مصـــر ، ١٩٦٤ م .

ابـــن طفيـــل : ابـــن طفيل الأندلسي ، حي بـــن يقظان (لابن سينا وابـــن طفيل والسهروردي) ، تحقيق احمـــد امين ، القاهـــرة ، ١٩٥٩ م .

ابـــن العمـــاد : ابـــو الفلاح عبد الحي بـــن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، ج ١ ــ ٨ ، مصر ، ١٣٥٠هـ

الأنصـــــاري : ابو عبد اللـــه محمد الأنصاري ، فهرست الرصّاع ، تـــونس ، ١٩٦٧ م .

الذهبـــــي : الحافظ الذهبي ، العِبَر في خبـــر من عبر ، ج ١ ــ ٥ ، الكويـــت ، ١٩٦٣ م .

الضبـــــي : احمـــد بن يحيى بن احمد بن عميرة ، بغيـــة الملتمس في تاريخ رجال اهـــل الأندلس ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .

رينـــــان : ارنست رينـــان ، ابن رشد ، والرشدية ، ترجمـــة عـــادل زعيتر ، القاهرة ، ١٩٥٧ م .

زيـــــدان : جرجي زيـــدان ، تاريخ آداب اللغـــة العربية ، ج ١ ــ ٤ ، القاهـــرة .

الزركلـــــي : خـــير الدين الزركلي ، الأعـــلام ، ج ١ ــ ١١ .

العقـــــاد : عباس محمود العقاد ، ابن رشـــد ، القاهرة .

الغزالـــي : الامام الغزالـــي ، تهافت الفلاسفة ، تحقيق الدكتور سليمان دنيا ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .

فـــرح : فـــرح أنطون ، ابن رشد وفلسفته ، الاسكندرية ، ١٩٠٣ م .

فخـــري : ماجـــد فخري ، ابن رشـــد فيلسوف قرطبـــة ، بـــيروت ، ١٩٦٠ م .

المقّـــري : احمـــد بن محمد التلمساني ، نفح الطيب مـــن غصن الأندلس الرطيـــب وذكر وزيرها لسان الدين بـــن الخطيب ، ج ١ ــ ١٠ ، بيروت ، ١٣٦٧ هـ ــ ١٩٤٩ م

موســـى : محمـــد يوسف موسى ، بين الديـــن والفلسفة ، القاهـــرة .

النباهـــي : الشيخ أبو الحسن بن عبد اللـــه بن الحسن النباهي المالقـــي الأندلسي ، كتاب المرتبـــة العليا فيمـــن يستحـــق القضاء والفتيـــا ، بيروت .

— BROCKELMAN - Geschichte d. Arab. Literatur Ers. Sup. LEIDEN , 1937 .

— The Encyclopaedia of Islam , LEYDEN , 1927 .

— Encyclopaedia of Religion and Ethics , vol. I-VIII , NEW-YORK , 1962 .

نشأة الثقافة العربية الإسلامية
نظرة إلى العراق

للدكتور عبد العزيز الدوري

ان نشأةَ الثقافة العربية الاسلامية ظاهرةٌ معقّدة تتطلّب دراسة بيئاتها والعناصر المكوِّنة لها ، والاتجاهات والتطورات الخاصة . وفيما يلي محاولة اولية لرسم الخطوط العامة (١) .

ادّى التوسُّع العربي الاسلامي — الذي رافقه الشعور برسالة — الى فتح ابواب البلاد الخصيبة الى الشمال امام القبائل المندفعة باستمرار من الجزيرة العربية ، وشجّعت الخلافةُ الهجرةَ الى الأمصار واعتبرتها لازمة للانتماء الكلّي للأمة (٢) . واعتبرت العودة الى البادية ، بعد الهجرة ، امرا مكروها (٣) . وهذا ادى الى استقرارٍ متزايد للقبائل في البلاد المفتوحة .

واتجهت سياسة التمصير ابتداء الى وضع المقاتلة في مجموعات متماسكة في المراكز الجديدة ، في دُور هجرة مثل البصرة والكوفة ، وفي قرى او مناطق قرب المدن القديمة (كما في الأجناد في الشام) ، او في أماكن استراتيجية (كما في انحاء من الجزيرة الفراتية) .

واستمرت القبيلة او العشيرة اساسا في تنظيم السكن والعلاقات الاجتماعية في الأمصار . وكانت القبيلة — عند خروجها من الجزيرة — تتوزع عادة بين اكثر من مركز او منطقة ، ثم نُظِّمت المجموعات القبلية ، لأغراض التعبئة العسكرية، في وحدات كبيرة ، على الأسباع (ثم الأرباع) في الكوفة مثلا، وعلى الأخماس في البصرة .

وساعدت الاقامة في بلد واحد ، وظهور مصالح جديدة ، والمصاهرات بين القبائل ، اضافة الى تاثير المفاهيم الاسلامية، على ظهور ولاءات محلية ، واوجدت ظروفا ثقافية جديدة ، وساعدت

على قيام تكتّلات جديدة (٤) . وهـذا يوضح كيف ان القبائـل الواحدة او القريبة ، والتي تعيش في امصار او اقطار مختلفة ، لم تتّخذ موقفا واحدا في القضايا العامـة . وكل ذلك ساعد على ظهـور اتجاه نحو الوحدة بين القبائل فـي المصر الواحد .

وكان كـلٌّ من الكوفة والبصرة بابا للبادية الـى السواد ؛ وهذا يوضح لِحَدٍّ مـا اطّراد الهجرة اليهما . واكّد هـذه الهجرةَ استمرارُ الصلات بـين عشائر المصرين وبين اقربائهـا من القبائل الرحالة في البوادي المجاورة . هذا الى ان جماعات من المقاتلة (خاصة من ربيعة وتميم) استمرّت على العيش في الباديـة مع استعدادها لتلبية النـداء للمشاركة في الحملات حين استقـر الآخرون في الكوفـة والبصرة (٥) .

ولـم تُشَجَّع الاقامة بين السكان المحليين في البـدء ، ونُظِر اليها بشيء من الإنكار (٦) . وهكذا فان عزلة المقاتلـة ، وهي ضرورة عسكرية واجتماعية في البـدء ، كان لها اثرها في توفير جـوٍّ للوحدة والاستمرار الثقافي ، وساعدت علـى جذب الآخرين الى اطار المجموعـات العربية ــ الى الاسـلام والعروبة .

ــ وكانت اللغة العربيـة اساس الهُوِيَّة العربية ، فالنـاس عرب او عجم بلغتهـم . اما المفاهيم المتّصلة بالنسب والتـي تنطوي على مفهوم الجذور البشريـة عند القبائل ، فانها لـم تَطمس هذا الاساس . فحين قال الحجّاج لاهـل الكوفة : « لا يؤمنكم الا عربـي » ، وثب بعضهم بالقارىء يحيى بـن وثاب ، وهو مولى ، لعزلـه عن الامامة ، فاعترض الحجاج قائلا : « وَيْحَكم إنمـا قلتُ عربي اللسان » (٧) . وهكـذا صارت اللغة ، لا الـدم ، اساس العروبة (٨) .

ولمـا كانت العربية لغـة القرآن ، فقد ارتبطت بالاسلام ، مما اكسبها حرمـة وساعد على انتشارها . فكـان دخول الاسلام يعني تَعَلُّـمَ العربية ، وربّما المشاركـة في الثقافة العربية . وتكاد « العربية »

ان تكون مرادفة للاسلام في الفترات الاولى (٩) . فلما سأل أبو جعفر (المنصور) مولى لهشام بن عبد الملك عن هويّته ، قال : « ان كانت العربية لساننا فقد نطقنا بها ، وان كانت ديننا فقد دخلنا فيه » (١٠) .

ـ كانت القبائل العربية تندفع باستمرار الى الاراضي الخصبة . وقد انتشرت في الجزيرة الفراتية بين دجلة والفرات قبل الميلاد ، وكان بعضها متبديا والآخر مستقرا (١١) . فكان مركز قضاعة في الحضر (١٢) ، وكانت ربيعة وتنوخ في الجزيرة (١٣) ، والتمر بن قاسط في عين التمر (١٤) . وانتشرت تغلب من عين التمر وعانات على الفرات شمالا حتى جبل بشري،وكانت من رعاة وفلاحين (١٥) . وكان في حاضر الرقة (ريفها) قوم من العرب (١٦) . وكانت اياد في الفرات الأوسط واطراف الجزيرة الفراتية ، ثم تحرّكت في فترة الفتوح الى الجزيرة (١٧) .

وكانت في الحيرة قبائل عربية ـ تنوخ والعباد وجماعات اخرى (الاحلاف) ، وامتدَّ بعضها الى الانبار (١٨) . ويقول الهمداني : « الانبار والحيرة والقصر الابيض ... وسنداد والخورنق والسدير وبارق ، محاضر العرب القديمة من حيز العراق » (١٩) . وانتشرت بكر بن وائل في البوادي المُطِلّة على السواد بين القادسية والخليج العربي (٢٠) .

هكذا وبنهاية القرن السابع للميلاد كانت مناطق الفرات الأسفل والأوسط والجزيرة الفراتية قد تَعَرَّبت لِحَدٍّ كبير .

وفي فترة الفتوح وبعدها جاءت قبائل وجماعات جديدة الى العراق ؛ فقد ارتفع ديوان البصرة مثلا من ١٠ر٠٠٠ الى ٢٠ر٠٠٠ أيام عثمان ، ثم الى ٤٠ر٠٠٠ و (٨٠ر٠٠٠ من العيالات) أيام علي ، ثم الى ٨٠ر٠٠٠ (و ١٢٠ر٠٠٠ من العيالات) في ولاية زياد بن ابيه (٢١) ، ثم الى ٩٠ر٠٠٠ (١٤٠ر٠٠٠ من العيالات) في ولاية عبيد الله بن زياد (٢٢) . وفي الكوفة ارتفع الديوان من ٢٠ر٠٠٠ سنة ١٧ هـ. الى ٤٠ر٠٠٠ سنة ٢٥ هـ. (٢٣) ، الى ٦٠ر٠٠٠ في اواسط القرن الاول الهجري (٢٤) .

ونزلت مجموعات قبليـة ، من تميم وبكر واليمن ــ خاصة خولان وهمدان والأزد ــ الموصل في خلافة عمـر . وتَحَوَّلت الحديثة ، على الزاب الأعلى ، الـى قرية عربيّة بمن نزلها من العـرب (٢٥) . ونزلت قبائل عربيـة في سنجار وراس العين (٢٦) ، وجاءت جماعـات كبيرة من قيس الى الجزيرة . ثـم ان معاوية اتى بمجموعات مـن قيس واسد واوطنهم اماكـن ستراتيجية بين الرقة وسنجار ، كمـا ثَبَّت ربيعة في ديارها مـن الجزيرة (٢٧) . واستمرَّت الهجـرة الى الجزيرة الفراتية، وادَّت الى تكوين ديـار مضر وديار ربيعة (٢٨) . لـذا راى مروان بن محمـد ، آخر الأمويين ، انـه يستطيع الاستناد الى قيس في تكويـن قُوّاته،وانتـدب منها عشرين الفـا (٢٩) .

ــ وكان للعوامـل الجغرافية والبشريـة أثرها في العراق ، فقد كان ملتقى الثقافات السـاميّة والآريّة،اضافة الى كونـه مهد الحضارة الساميّـة .

كـان سكان العراق (النبـط) ، وهم ساميّون يتكلمون الآرامية . أما الفرس فكانوا فئة حاكمة في المدن الرئيسية (مثل طيسفون ونصيبين) ، وبينهم الملاّكون الكبـار والجنود في الحاميات ، وجُلُّهم طردوا اثنـاء الفتح أو أُسِروا (٣٠) . ولكـنَّ بعضهم بقي في المـدن،مثل الحيرة ونصيبين وسنجار،او علـى الحدود الشرقيَّة للسهول ، بينما جـاء آخرون الى المراكز الجديدة (خاصّة الكوفـة والبصرة) . وبقي كثير مـن الدهاقين ، وبعضهم من اهـل البلاد (نبطا او عربـا)،واسلموا وحافظوا علـى اراضيهـم (٣١) .

وكانت لفظة « نبـط » ابتداءً ذاتَ دلالة بشرية (٣٢) ، ثـم صارت بعدئذ مرتبطة بالفلاحة والـريّ (٣٣) . وكان يشار للنبط عادة بـ « اهل السواد » او « العلـوج » تمييزا لهم عن العجـم (٣٤) . وتتباين الروايات عن وضعهم ، بين مـا يشير الى الشعور بالرابطـة والكيان (٣٥) وبين الادعاء بالأصـل الفارسي (٣٦) .

اعتُبر المسلمون النبط غير محاربين، ولم يتعرَّضوا لهم في أثناء الفتح (٣٧) . يذكر المدائني أن عمر بن الخطاب « رفع الرقَّ عنهم ، ووضع عليهم الخراج في رقابهم، وجعلهم أكرة الأرض » (٣٨) . وكان بامكانهم استغلال الأرض وبيعها وتوريثها ورهنها (٣٩) . واذا أسلموا أُعفُوا من الجزية عادة، ولكنهم يستمرّون على دفع الخَراج . ورأى عمر بن عبد العزيز أن لهم الحرية في ترك الأرض عند اسلامهم ، ولكن أرضهم تؤول الى القرية، والاّ صارت للدولة .

ومع أن النبط أُعتُبِروا أحرارا من حيث المبدأ ، الا أن المفاهيم المحلّية الموروثة التي تربطهم بالأرض والاعتبارات الاقتصادية أثّرت على وضعهم . وكانت الهجرة من الريف الى المدينة أمرًا مألوفا ، بل وواسعة أحيانا ؛ وهي ظاهرة ساعدت على التعريب . ومما يُيسّر التعريب أن النبط ساميّون يتكلّمون لغة لها قرابة بالعربية . ولعلّ هذا يفسّر سكوت المصادر عن انتشار التعريب بينهم (٤٠) .

هناك اشاراتٌ قليلة الى موال من النبط مع أنهم — عدديا — يكوّنون جمهرة الموالي ؛ ولعل ذلك يعود الى ارتباطهم بالعرب في الأصول والثقافة . فالحَجّاج ، وقد اغضبه اشتراك مجموعة من القراء في ثورة ابن الأشعث ، قال عنهم « انما الموالي علوج ، وانما أُتِيَ بهم من القرى » ؛ ونفاهم الى قراهم (٤١) . وتَميَّز بعض النبط في أمور المال (٤٢)، مثل عمرة وحسان النبطي (٤٣) ، وفي الحرب، مثل مقاتل بن حيان . وكان لهم اثرهم خاصة على العربية في الكوفة (٤٤) .

ولقي العربُ في الفرات الاوسط (٤٥) وتَغْلِبُ في الجزيرة (٤٦) ، معاملةً مفردة، مما يُشعِر بالتوجيه الاسلامي ، اذ كانوا أحرارا في بيع اراضيهم ، وعند اسلامهم تصبح أرضهم عشرية .

كان أثر العرب في المدن والريف واسعا ؛ فقد أصبح التسجيل في الديوان محدودا زمن المروانيين ، ولم يعد مفتوحا للجميع ؛ وكان على الذين لا يسجلون في الديوان (وبالتالي لا يأخذون العطاء) ان يبحثوا عن وسائل أخرى للعيش ، في التجارة او الزراعة او

المهـــن . يذكر المبرد ان المهلّب دَسَّ الجواسيس الـى عسكر الخوارج فأتـوه باخبارهم « فاذا حشوة مـــا بين قصار وصباغ وداعـر وحداد ... » (٤٧) . ويبـدو أن هذه الظاهرة عامـــة لا تختصّ بالعراق ، ففي أخبار حملة ابـــن ابي بكرة على سجستـــان (٦٩٩/٧٩) قاتلت جماعة متطوّعة مـــن مذحج وهمدان (٤٨) . كمـــا ان بعض الاعراب القادمين الى المـــدن، مثل البصرة، صاروا في عـــداد « المساكين » على أطرافها (٤٩) . هـــذا الى أن بعض المقاتلة بقوا فـــي البوادي المطلّة على الســـواد يرعون مواشيهم وابلهم (٥٠). وتَرِدُ أخبـــارُ شعراء يتنقّلون بين قبائلهم في البوادي وبـــين عشائرها الموجودة في المراكـــز الحضرية، وخاصّة تميـــم (٥١) . وهذه الجماعات اختلطت بِحُرّيّـــةٍ باهالي البلاد السابقـــين .

والتفت العـــرب ، وخاصة الاشراف واهل المـــدن، الى امتلاك الأراضي، وحصلوا عليهـــا بطرق مختلفة ـــ بالاقطاع من الصوافـــي ، وباحيـــاء الأرض المـــوات (خاصة في منطقة البصرة) ، وبتجفيـــف المستنقعات (خاصة قـــرب الكوفة) ، وباستثمار الأراضي الخالية (٥٢) ، وبالشراء، وخاصة فـــي منطقة الحيرة حيث كان بيـــع الأراضي مباحا (٥٣) . وكان جَـــلُّ الضياع في البصرة مـــن الأرض الموات التي تـــم احياؤها بحفر القنوات وباستـــيراد الأيدي العاملة (من الزنج خاصـــة) . وشمل الشراء أراضي الخـــراج على نطاق واسع، حتى ان منع بيـــع الأرض الخراجية من قبـــل عمر بن عبد العزيز وأخلافـــه لم يوقف هذا النشاط . وساعد الاحياء علـــى توسيع الملكيات .

ادى هـــذا الاقبال على الأرض الـــى ظهور ملكيات كبيرة ، بعضها يشمل قرى بكاملهـــا . وقد أدّت هذه التطورات الـــى خلخلة المجتمعات القرويّة المتماسكـــة والى فتحها للمؤثرات الخارجيـــة .

واعتاد العـــرب أن يستخدموا « وكـــلاء » للإشراف على ضياعهم ، وكان على الوكـــلاء ان يجلبوا الفلاحين الـــى الأرض، او ان يشغلوا فلاحين من القرى المجاورة . ومما يُسَّر مهمـــة الوكلاء ضرب الاقطاع القديم

وحالة الفراغ الناشئة عن ذلك،مما دفع الفلاحين للتحرك الى مواطن العمل الجديدة . وقد ادّى هذا الوضع ، اضافة الى العلاقات المتزايدة بين القرى والمراكز العربية ــ وهي الأسواق الرئيسية للريف ــ ، والصلات بين القرى والقبائل في البوادي المجاورة للكوفة والبصرة ، الى انتشار العربية تدريجيا وبصورة متزايدة في الأرياف (٥٤) .

وفي مطلع القرن الثاني للهجرة بدأ العرب بالاستقرار في القرى ، وساعدت السياسة العباسية على ذلك ؛ فقد اتخذ العباسيون موقفا سلبيًّا من بعض القبائل (المضرية) منذ بداية عهدهم ، ثم انتهوا الى اسقاط العرب من الديوان ايام المأمون والمعتصم ، وهذا دفع العرب الى التوسع في الاستقرار على الأرض (في الريف) ، والى اتخاذ مِهَن اخرى . فانتشر العرب في سواد الكوفة (٥٥) ، وانتقل الكثيرون من البوادي المجاورة الى الأرياف (٥٦) ؛ وهكذا ترد اشارات الى قرى عربية (٥٧) . وفي الجزيرة الفراتية تزايد عدد الجماعات العربية التي استقرت في القرى وانتشرت في الريف (٥٨) . ويعطي ديونيس التلمحري البيّنات على وجود عدد كبير من القرى العربية في الجزيرة (٥٩) ، ويُشعِر بوقوفهم الى جانب اهل القرى المحلّيين في وجه الادارة العباسية (٦٠) ، ويشير الى حصول مصاهرات بين الطرفين (٦١) . وهذا يشير الى تغيُّر العلاقات بين العرب والآخرين، والى توسّع التعريب ؛ وهو تطوّر بلغ مدى بعيدا في القرن الثالث الهجري،وجعل التعريب شاملا .

ويُنتَظر ان تكون العربية الدارجة في الريف ضعيفة ، كما يُتوقّع ان لا تنجو عربية القرويين من اللحن (٦٢) ، وهذا لا يمنع ان تكون لغة البعض حسنة ؛ فقد اشار الجاحظ الى ان بعض اهالي سواد الكوفة يتكلّمون عربية حسنة بألفاظ متميزة،ومع ذلك يُحِسّ السامع بأنهم نبط (٦٣) .

وكان انتشار الاسلام ، وحركة العرب ، ونظام الولاء ، عوامل في نجاح العربية وفي التعريب .

ترجع جذور الولاء الى الجزيرة العربية قبل الاسلام . وقد يكون أثر عرب الجنوب مُهِمًّا في تطوُّر الولاء ، ولكن تراثهم لا يزال ينتظر الدراسة . فهناك اشارات في النقوش الجنوبية الى أن قبائل (سيدة) كانت تربط مجموعات أضعف بها عن طريق الحلف بسبب المصلحة لا النسب . وقد تَطلَّب استغلال الأرض ربط جماعات خارجية بالقبيلة،وأدّى الى نوع من الطبقية الاجتماعية،فهناك جماعات تستثمر الأرض (العائدة لقبيلة) لقاء جزء من الحاصل ، وهناك طبقة ادنى محميَّة تعمل لقبيلة في فلاحة الأرض (٦٤) .

أما بين عرب الشمال فان الولاء بالعتق او الحلف او الحماية كان مألوفا . وكان بامكان جماعات أن ترتبط بقبائل قوية بالحلف، ويُسَمَّون موالي موالاة (٦٥) . والحلف لا يعني بالضرورة المساواة في المنزلة،مع انه قد يعني مساواة في بعض المسؤوليات (٦٦) .

هذه المفاهيم استمرت في صدر الاسلام ؛ ففي ديوان عمر بن الخطاب جُعِلَت القبيلة ومواليها في سجل (ديوان) واحد وبعطاء واحد (٦٧) ، وفي الكوفة والبصرة حالفت الكتائب الفارسية (حمراء ديلم والأساورة) ، اضافة الى الأندغان والسيابجة ، قبيلة تميم (٦٨) . وانتقل بنو العم من الأهواز الى البصرة وحالفوا بني تميم (٦٩) .

وكان الموالي ابتداءً من أُرِقّاء (اسرى حرب) أعتقوا (موالي عتاقة) (٧٠) ، ولكنَّ جُلَّ الموالي كانوا من أحرار اسلموا وانتقلوا الى المراكز العربية ، واكثرهم نبط (٧١) . وبعد أن أوقف عمر بن الخطاب سبي العرب (٧٢) ، صارت كلمة « مولى » تشير الى غير العرب ، بينما تشير كلمة « حليف » عادة الى العرب (٧٣) .

واستمر الولاء بهذه المفاهيم أيام الأمويين ؛ فقد صَنَّف عمر بن عبد العزيز الموالي الى : موالي عقد (اتفاق) وموالي رحم،وموالي عتاقة .

وكان ارتباط البعض بأمير أو قائد سببا لظهور « مولي التباعة » ؛ وهو اتجاه يفسر ما فعله العباسيون بعدئذ (٧٤) .

وكان الولاء يعني « الاسلام » « والعربية » في وقت واحد (٧٥) : فالأعاجم (من غير المسلمين) كانوا يَرَون انَّ مَن دخل الاسلام صار عربيا (٧٦) . وكان الموالي يتعلمون العربية ويتخذونها لغتهم ؛ وهكذا اعتبر الحَجّاج القراء من الموالي عرباً (٧٧) . ويلاحظ أن بعض الموالي سُمُّوا بـ « المستعربة » (٧٨) ، وهو تعبير يطلق عادة على عرب الشمال . جاء في اللسان « والعرب المستعربة هم الذين دخلوا فيما بعد فاستعربوا . قال الأزهري : المستعربة عندي قوم من العجم دخلوا في العرب، فتكلموا بلسانهم،وحكوا هيئاتهم،وليسوا بصرحاء فيهم » (٧٩) . ويبدو ان المصاهرات ، وكانت مألوفة قبل فترة الحجاج ورائجة في الكوفة ايام عمر بن عبد العزيز (٨٠) ، ساعدت على توسيع التعريب . وهكذا اخترق الولاء اطار النسب القبلي،ووسّع الاطار العربي،وساعد على انتشار العربية .

ظهر الاسلام في بيئة مدنية ، وأكّد على طلب العلم ، وعنه نشأت اتجاهات الدراسة الأولى في المجتمع الاسلامي . وهذه الدراسات ، مع اهتمامات العرب الثقافية الموروثة ، كَوَّنت الخطوط الأولية للثقافة العربية الاسلامية . واستمرّ الحال كذلك لدرجة ان النظر الى الثقافات القديمة كان عرضيًّا خلال فترة تتجاوز القرن . وفي حين ان العربية اضطُرّت لمواجهة المفاهيم القبلية المحافظة والضيقة، بما فيها من عصبيّة،قبل ان تستطيع تحقيق قاعدة ثقافية واسعة ، فان الاسلام كان قوة دافعة متوسعة ، وكان بشكل ملحوظ عونا للعربية .

تركّزت الفعاليات الثقافية في صدر الاسلام في دور الهجرة ـ البصرة والكوفة خاصة ـ ، واقتصرت في الأساس على الموضوعات الاسلامية والدراسات العربية . كان هشام بن عبد الملك (ت ١٢٥ هـ) يرى ان اسس الثقافة هي القرآن ، والآثار ، واحاديث العرب، واشعارها،وايامها ، وأنساب قريش وسائر بني نزار (٨١) .

وبدأت الفعاليات الثقافية بين العرب ، وبدرجة متواضعة ،

بين الموالي الذيـن اتقنوا العربية (٨٢) . وتأثرت هـذه الفعاليات بتيارين اساسيين : الأوّل ــ الاسـلامي ، ممثلا في الدراسات القـرآنية والحديث والفقـه والمغازي ، والثاني ــ العربي (القبليّ) وهو استمرار لميـول سابقة ، في الشعر والايـام والاخبار والانسـاب واللغة .

ويسترعي الانتباه ان التطورات الثقافية سـارت في خطوط متوازية ومتدرجة : روايـات فردية ومحدودة ابتداءً ، ثـم حلقات من الطلبة يأخذون عن شيـخ ويضيفون ابحاثهم الى علمه (٨٣) ، ثـم تراكُم للمعرفة والدراسات يؤدي الـى ظهور مدارس محلّيّـة ، واخيرا تبادُل المعرفة والتأثير بين المراكـز او المدارس المحلّية عن طريـق الرحلات، مما ادى الى ظهور علمـاء متميزين رسموا خطوط التطور المقبـل . ويتضح هذا التطور في دراسـة الحديث والفقه والتاريخ وفي الدراسات اللغوية .

واجهت الأمـة الاسلامية الناشئة مشـاكل وحاجات مباشرة ــ منها انشاء الخلافـة ومشاكلها ، ومعاملة المغلوبين والاراضي المفتوحة ، وتطبيق المبادىء الاسـلاميـة في الامصار لمواجهة الحاجات الجديـدة . وكانت هـذه النواحي بالغةَ الاهميّـة للتطور الثقافي .

لقد شهد القرن الاول للهجرة رسمَ الخطوط الاساسية لمؤسسة الخلافة، مع ما رافقها من تبايُن واختلاف في الاتجـاه ؛ ونشأت الاحزاب السياسية وطَوَّرت آراءهـا التي كان لها بعض الاثـر في الفقه (٨٤) . وظهرت آراء في الجبر والاختيار ومسـؤولية البشر عن اعمالهم ، وبـدأ التنظيم الاداري والمـالي من التراث المحلّي بعد تعديله بضـوء مفاهيم اسلامية ، وكان يختلف في واقعـه بين قُطر وآخر ، ثـم عُرِّب وطُوِّر بالتدريج لينتهي الى إطار موحَّد فـي بلاد الخلافة في اواخـر الفترة الاموية .

وفي حين ان الفعاليـات الثقافية بدأت عربية اسـلامية ولم تأخذ من الثقافات القديمـة الا في فترة تالية ، فـان الموقف من التراث الاداري والمـالي المحلّي المتباين في الاقطار اتخـذ اتجاها معاكسا ، اذ عُـرِّب وطُوِّر لينسجم مع المفاهيـم الاسلامية بصورة تدريجية، حتـى ادخل اخيرا في النطاق الاسـلامي الثقافي والحضاري .

ارتبطت الفعاليات الثقافية بالحاجات الناشئة : فالدراسات الاسلامية الاولى تتصل بالقرآن ، اذ حاول القراء أن يعلّموا الناس القراءة الصحيحة،وان يُبصّروهم بالمفاهيم الاسلامية (٨٥) . بَعَث عمر بن الخطاب بعض الصحابة الى الأمصار (مثل ابن مسعود في الكوفة، وابي موسى الاشعري في البصرة) ليعلّموا الناس القرآن والسنة (٨٦) . قال اهل الكوفة لابن مسعود : « جُزيتَ خيرا فقد علّمتَ جاهلنا،وثبّتَّ عالمنا،وأقرأتنا القرآن،وفقّهتنا في الدين » (٨٧) . ويُرْوَى الكثير عن عدد تلاميذ ابن مسعود وعن نشاطهم في الكوفة ، اذ كانوا « يُبُرِّج هذه القرية (الكوفة) » كما قال سعيد بن جبير (٨٨) . وقد نالوا منزلة اجتماعية عالية بسبب تقواهم وحرصهم على رسالتهم (٨٩) . وشاركوا في الحياة العامة وفي الاحداث الكبرى من ايام عثمان الى ثورة ابن الاشعث (٩٠). وكانوا يدافعون عن المبادىء الاسلامية،وعن العدالة الاجتماعية . وانضمّ اليهم بعض الاشراف ، وتزايد عدد الموالي بينهم (٩١) ، ولَعلَّ هذا يوضح سبب الارتباك في بداية ظهورهم . وتُشْعِرُ فعالياتهم بالصلة الوثيقة بين النشاط الثقافي وبين الحياة العامة .

وشهد جيل التابعين بين القراء قضاة ، واصحاب فتيا (٩٢) ، وعلماء (٩٣) ، وفقهاء (٩٤) . يقول ابن سعد،« ثم كان التابعون بعد اصحاب رسول الله من ابناء المهاجرين ؛ والانصار وغيرهم فيهم فقهاء وعلماء،وعندهم رواية الحديث والآثار والفقه والفتوى » (٩٥) . وشملت دراساتهم الحديث والنحو والتفسير والفقه (٩٦) .

وكان دور القراء والعلماء والقضاة مُهِمًّا لتطوّر الفقه وبجنب الاعتماد على القرآن رجعوا الى السنة ؛ ويشار الى سنّة الرسول في فترة مبكرة . ثم ان المشاكل الجديدة في الامصار ادت الى الاجتهاد بالراي منذ زمن الراشدين (٩٧)، وواضح أن قيام الخلافة ومعاملة البلاد المغلوبة تطلّبت الاجتهاد والراي . وبالاضافة الى ذلك كان هناك الاتجاه الى اعتماد المفاهيم والقيم الاسلامية في مختلف نواحي الحياة،والى تطويع العرف المحلي ليلائم الاسلام .

وقد لجأ الصحابة الى الاجتهاد بصورة فردية أو بالشورى ، وصارت أقوالهم جزءا من الآثار ، كما كان للتابعين رأيهم واجتهادهم . وأدى الوضع في الحديث الى تحديد استعماله من قِبَل البعض ، بينما لجأ آخرون ـ مع التشدّد في النقد ـ الى الآثار . وكان الرأي يعطى بالقياس،أو وفق متطلبات المصلحة . ونشأ خَطّان في الفقه : فقه الرأي وفقه الاثر ، وذلك بضوء التوسُّع في استعمال الرأي أو تقييده . ولم يكن التقسيم يستند الى قاعدة جغرافية (الكوفة ـ المدينة) بل الى الوجهة الخاصة بالفقيه (٩٨) .

وأدّى التباينُ في الظروف المحلية ومدى الاخذ بالرأي أو الاستناد الى الحديث والآثار،الى ان تظهر بصورة تدريجية سنن محلية أو طرق « عمل » . وتطورت هذه البدايات المحلية بعد فترة،ليخلفها الاجماع بمفهومه العام،وليكون اصلا آخر من اصول الفقه .

وقد ادت الجهود الجماعية والمتكاملة للعلماء الى قيام مدارس فقهية في العقود الاولى من القرن الثاني للهجرة . ويسترعي الانتباه أنه لا توجد خلافات اساسية بين هذه المدارس في المبادىء أو الطريقة . وعلى العموم فان الرجوع للرأي كان أوسع في العراق ، بينما كان التأكيد على الحديث اقوى في المدينة . وتَتَمَيَّز بعض العلماء بدراساتهم الواسعة وبعلمهم في المدارس (المراكز العلمية)،مثل ابراهيم النخعي (٩٦/٧١٥) وحماد بن ابي سليمان (١٢٠/٧٣٨) في الكوفة ؛ والزهري (١٢٤/٧٤١) وربيعة الراي (١٣٦/٧٥٣) في المدينة ، وكان دورهم بداية التطور الذي ادى الى ظهور ائمة المذاهب (ابو حنيفة ، مالك ، الشافعي ، احمد بن حنبل) . وهذا التطور من الدراسات المشتركة المتكاملة (في المدارس) الى قيام ائمة (في الفقه) ـ وهو اتجاه يظهر أيضا في حقول ثقافية اخرى ـ يُشعِر بنضج المدارس الفقهية ، مما ادى الى ظهور المذاهب بطلوع القرن الثالث للهجرة (٩٩) .

وبدأت دراسة حديث الرسول (ص) في فترة مبكرة بين الصحابة ،

ثم شملت الدراسة آثار وسنن الصحابة . وكانت التطورات والحاجات الجديدة سببا لذلك ، كما ادت هذه الى الوضع في الحديث ، فالمصالح السياسية والحزبية والمحلية والمذهبية وجدت مجالا في وضع الاحاديث ، وادى الوضع بدوره الى التدقيق في نقد الحديث ؛ وهو تدقيق بدأ في المتن،وتركّز تدريجيا وبمرور الزمن على الاسناد ، وجاء علم الجرح والتعديل مثلا رائعا للتدقيق والحيطة والتوثيق .

وكان الاهتمام بجمع الحديث مبكّرا زمن الصحابة والتابعين في صحف واجزاء،وتلا ذلك « تقييد » الاحاديث في الصحف والروايات في اواخر القرن الاول واوائل القرن الثاني للهجرة ، ثم بدأ « التصنيف » او جَمعُ الاحاديث حسب الموضوعات لفائدة المشتغلين بالفقه وذلك في الربع الثاني للقرن الثاني للهجرة . وادّى حرص المحدثين على احاديث الرسول (ص) الى عمل مجموعات للحديث مرتّبة حسب رواتها من الصحابة من اواخر القرن الثاني للهجرة،ورافق ذلك تأكيدٌ خاصّ على الاسانيد . ومما يلاحَظ انَّ كُتُب الطبقات الأُولى جاءت من نفس الفترة . واخيرا ، وخلال القرن الثالث للهجرة،وُضِعت المجاميع الاكثر شمولا وتدقيقا ، وهي كتب الصحاح ، ونُظّمت على فصول الفقه (١٠٠) .

واُستُخدِمَت الكتابة لحفظ الحديث جنبَ الرواية الشفوية ؛ وقد عرف الزهري بكتابة الحديث (١٠١) . وجاءت المجموعات الاولى للحديث من الثلث الثاني للقرن الثاني للهجرة ؛ وهي نفس الفترة التي جاءت منها المؤلفات الاولى في التاريخ (١٠٢) .

بدأ التفسير مبكرا في قراءة القرآن وكان على صلة وثيقة بعلم الحديث . وكانت المحاولات الاولى في الاساس شروحا لغوية للنصوص، واشارات الى ظروف نزول الآيات . وقد افيد من الشعر (الجاهلي) لتوضيح بعض الكلمات ، كما استند التفسير الى المأثور ــ حديث الرسول (ص) واقوال الصحابة (١٠٢) .

وتَطَوَّر التفسير بسرعة في عصر التابعين ، وأَخَذَ بعضُهم بالراي اضافة الى الآثار والشروح اللغوية ، ورجع البعض الى اهل الكتاب لتوضيح بعض الاشارات القرآنية ، فتسربت الاسرائيليات، واثارت شيئا من الشكّ والتحفّظ (١٠٤) . وهكذا بدت بوادر اتجاهين في التفسير : التاكيد على المأثور ، والرجوع الى الراي .

وقد أهتَمَّ بالدراسات القرآنية جماعاتٌ لهم اتجاهات دراسية مختلفة ؛ اذ نرى القراء واللغويين والمحدِّثين يشتغلون بالتفسير . وقد اسهم بعض القراء، مثل نصر بن عاصم (٨٩ هـ/٧٠٧ م.) ويحيى بن يعمر (١٢٩ /٧٤٦) وبعضُ اللغويين، مثل عيسى بن عمر الثقفي (١٤٦/٧٧٦) وابي عمرو بن العلاء (١٥٢/٧٧٠) في التفسير .

واستُعمِلَت الكتابة في التفسير زمن التابعين ، وَوُضِعَت تفاسير من أواخر القرن الاول (مجاهد ١٠٤/٧٢٢ ، قتادة ١١٨/٧٣٦ ، عطاء الخراساني ١٣٣/٧٥١) .

واتسمت التفاسير من أواخر القرن الثاني بصورة عامَّة بطابع الجمع ، واحتوت على موادّ تاريخية وفقهية ولغوية . كما وُضِعَت في هذا القرن تفاسير لغوية لها اهمية خاصة، مثل مجاز القرآن لابي عبيدة معمر بن المثنى (٢١٠/٨٢٥) ومعاني القرآن للفراء (٢٠٧/٨٢٢) .

ولجأ المعتزلة الى الراي في التفسير (منذ القرن الثاني) مستفيدين من المواد اللغوية . ووضع المحدِّثون ــ الذين تحوي مجموعاتهم في الحديث عادة على قسم في التفسير ــ تفاسير منذ النصف الاول من القرن الثالث الهجري، معتمدين على الآثار بالدرجة الاولى .

وهكذا ظهر خَطّان واضحان في التفسير : التفسير بالآثار ، وهذا بلغ قمته في تفسير الطبري (٣١٠/٩٢٣) ، والتفسير بالراي، الذي بلغ درجة عالية في الكشاف للزمخشري (٥٣٨/١١٤٣) (١٠٥) .

ـ ازدهر الشعـــر خلال القرن الاول الهجري ، وتأثـــر بالاوضاع السياسية والاجتماعية الجديـــدة في المراكز الجديدة ، كمـــا تأثر بالمفاهيم والقيم الاســلامية . ومـــع أن الكثير من الشعر ينطوي علـــى استمرار للشعر القديم في الاســلـــوب والاخيلة ، فان موضوعات جديـــدة ظهرت بالاضافة الـــى النظرات والمنطلقات الجديدة (مثل الشعـــر الاسلامي ، شعر النقائض ، الشعـــر السياسي ، شعر الغزل) ؛ هـــذا الى وجود الشعر الحضري جنـــب شعر البادية ؛ كما ان تطـــوراتٍ جديدةً حصلت في الاسلوب . وجـــاءت حركة التجديد الشعريـــة في العصر العباسي الاول بشعر اكثر رقـــة واعلى ثقافة ، واكـــدت على موضوعات جديدة . ومع هـــذا بقي للشعر القديم منزلة رفيعـــة في عالم النظم (١٠٦) .

خرج العـــرب من الجزيرة بِلُغَـــةٍ راقية وشعر رائع وتراث حضري جنوبي . وكانت للقبائـــل لهجاتها (لغاتها) ولكـــنَّ سكناها مجتمعةً في المراكز الجديدة ادت الـــى ظهور عربية مشتركة فـــي التخاطب . يقول الجاحظ : « واهـــل الامصار انما يتكلمون على لغـــة النازلة فيهم من العرب ، ولذلك تجـــد الاختلاف في الفاظ من الفاظ اهـــل الكوفة والبصرة والشام ومصر » (١٠٧) . ولكنَّ القـــرآن الكريم اعطى المثـــال للعربية في الكتابة ، واعطاها وحـــدةً واستمرارًا عبـــر العصور .

وبدات الدراسات اللغويـــة في فترة مبكّرة ، وهي تُشْعِـــر بالحرص على قراءة القـــرآن بصورةٍ صحيحة،والحماس لنقاء اللغة العربيـــة . لقـــد أستَعْمَلَت العربيةَ اعدادٌ متزايدة من الموالـــي، وتعرَّضَت لِلَّحـــن . واختلط العـــرب بالاعاجم في الامصـــار ، كما فُتحـــت بيوتهم للسبايا ، مما اثَّر في لغـــة الكثيرين (١٠٨) . ويَتَّخذ اللحـــن خطورة واضحة في قراءة المصحـــف ؛ وهي مشكلة تعرَّض لهـــا حتّى البعض من الاعراب . جـــاء في رسالة لعثمان تخوُّفه مـــن الابتداع « بعد اجتماع ثلاث فيكم ؛ تكامُل النعمـــة،وبلوغ اولادكم من السبايـــا،وقراءة الأعراب والاعاجـــم القـــرآن » (١٠٩) .

بـدأ اللحن في أواسط القرن الاول للهجـرة وانتشر في فترة التابعين ، وأدى الى رَدِّ فِعْـلٍ قويٍّ في الدوائر العربية وبين بعض الموالـي المتعربين، لحماية العربية وللحفاظ علـى صفائها . يُبيِّن الزبيدي أن ظهـور الاسلام ودخول الناس فيـه وكثرة من وُجـد تحت لوائه ادّى الى ان « اجتمعت فيه الالسنة المتفرقـة واللغات المختلفة،ففشا الفساد فـي العربية . فَعَظُم الاشفاق من فُشُـوِّ ذلك وغَلَبَتِه ، حتى دعاهم الحذر مـن ذهاب لغتهم وفساد كلامهـم الى أن سَبَّبوا الاسباب في تقييدها لمـن ضاعت عليه،وتثقيفها لمـن زاغت عنه » (١١٠) . كـل ذلك أوجد دافعا قويـا للدراسـات العربيـة (١١١) .

وترتبط بدايات النحـو اولاً بقراءة القـرآن ؛ فقد أُحدِثَت نُقَط لتمييز حركات الاعجام في القـرآن مِن قِبَل ابي الاسود الدؤلي (٦٩هـ/ ٦٨٨ م.) ، ولـذا يُنْسَب اليه وضع النحـو . ويعود الى الفترة ذاتها وَضْعُ النقاط لتمييز الحـروف المتماثلة،لضمان القـراءة السليمة (١١٢) .

وكان رُوّاد علـم النحو،من يحيى بن يعمر (١٢٩/٧٤٧) وعبد اللـه بن أبي اسحـق الحضرمي (١١٧/٧٣٥) الى الكسائي (١٨٩/٨٠٥) قُرّاء (١١٣) ؛ فَفَهْمُ القـرآن يُعني معرفة جيدة بلغتـه وبإعراب نصوصه . يقول الذهبي عـن الكسائي : « وكان من اهـل القراءة،وهي كانت علمـه وصناعتـه » (١١٤) .

ونظر البعض الـى اللغة على انها في الاساس تواضُـعٌ واصطلاح ، بينما ذهب البعض الآخـر الى انها توقيف ؛ وهمـا وجهتان متدرجتان، تعبّران عـن نظرتين في النحو ؛ فقد كـان السماع من اسس الدراسات اللغوية ، كمـا أُعتُبِر القياس مع التعليل قاعـدةً اخرى في النحو . وكان لكلٍّ مـن الاتجاهين مؤيدون في البصرة (١١٥) . ثـم ساد القياس في البصرة (مهد النحـو) والسماع في الكوفة . ويبـدو ان بيئة الكوفة العربيةالسـامية في الاساس اقرب الـى الاتجاه الى السماع والسليقة ، امـا بيئة البصرة التجارية المختلطة فانهـا تطلّبت قواعد اكثر تحديدا لفهـم اللغة . اكدت البصرة على القياس لوضع قواعـد

عامة،امـــا الشواذ فانها سُجِّلت وأُهمِلت ؛ وامـــا الكوفة فانها رأت في أن يُسارَ وفـــق السماع،وتجوَّزت في وضع القواعد الى حـــدّ الاستناد الى النوادر عنـــد الحاجة (١١٦) . وقد ورثت بغـــداد المدرستين ، ولكنها كانت أميل الى الاتجاه الكوفي . وأخيرا تَفَوَّق الاتجاه الى السماع على وجهة القياس،وانتصرت بذلـــك المحافَظَة . وهذا يثير الســـؤال عن مدى تأثير القراءات المقبولـــة في تفوُّق السماع (١١٧) .

وسارت الدراســـات اللغوية الى جنب دراسة النحـــو ؛ فالحاجة الى فهم القـــرآن ، والحديث أحيانا ، دعت الـــى الرجوع للشعر والى عربية البادية . ذهـــب اللغويون الى البادية،الى الاعراب الفصحـــاء، (وجاء بعض هـــؤلاء الاعراب الى المـــدن) للأخذ عنهم (١١٨) . وكانوا ـــ وخاصة البصريون ـــ حذرين في بحثهـــم عن العربية الصافية ، ولـــذا تجنَّبوا في الغالب القبائـــل التي تأثرت بأهل الحواضر القريبـــة . ومع أن تأكيد الروايات علـــى الأَخذ من الاعراب البادين لا يخلـــو من مبالغة ، فان هذا الأَخـــذ في عامَّته ادى الى تسجيل مـــا يتّصل اساسا بالحياة البدويـــــة .

كان ابـــو عمرو بن العلاء (١٥٤/٧٧٠) شيخ الدراســـات اللغوية في عصره ، يُعرَف بانـــه اعلم الناس بالعرب وبلغتهـــم،وبالشعر والايام، وبالقـــرآن . وكانت « عامة اخباره عـــن أعراب قد ادركوا الجاهلية » . وكان اثره كبيرا في إعداد طلبة نابهين من الجيل التالي (١١٩) . وقامت ابحاثٌ واسعة ومركزة على يـــد الجيل التالي في البصرة ، وتَتَمَيَّز بينهم ثلاثـــة من تلاميذ ابـــي عمرو بن العلاء : ابو عبيدة معمر بن المثنـــى (٢١١/٨٢٦) وأبو زيـــد الانصاري (٢١٥/٨٣٠) والاصمعـــي (٢١٧/٨٣١) ، وهؤلاء افادوا في بحوثهـــم من اساتذة آخرين ومـــن ثقات الأَعراب ، حتى قيل فيهم : « عنهم أُخِـــذ ما في ايدي الناس من هـــذا العلم،بل كلُّه » (١٢٠) . وكان اعلام المدرســـة اللغوية في الكوفة الكسائي (١٨٩/٨٠٥) والفـــراء (٢٠٧/٨٢٢) والمفضل الضبي (١٧٠/٧٨٦) وابن الاعرابي (٢٣١/٨٤٤). وهكذا نضج هذا الاتجاه في الدراسات في أوائل القرن الثالث للهجرة (١٢١) .

وكانت المجموعات الاولى للكلمات عفوية دون خطّة ، ثم تلتها مجموعات تدور حول موضوع أو مادة . واخيرا جاء الخليل بن احمد الفراهيدي (٧٩١/١٧٥) بفكرة أول مُعجم (العين) ، وتحقّقت فكرته على يد تلميذ له، وربما بمشاركة آخرين . وسار علماء اللغة بعده على خطته، الى ان وضع الجوهري (١٠٠٧/٣٠٨) خطة اخرى (١٢٢) .

جاءت القبائل بلهجاتها (لغاتها) الى المراكز الجديدة (١٢٣) ؛ وهذا أكسب العربية حيوية وغنى . ثم ان استعمال العربية على نطاق واسع بين غير العرب ، والاختلاط في البيئات الجديدة، وتطوُّر الحياة في المدن، ترك آثاره وأدّى بالتدريج وبين الطبقات الدنيا الى ظهور عربية للتخاطب تتّصف بالبساطة، ولا تلتزم بقواعد النحو (١٢٤) ؛ وبدا ذلك بوضوح في أواخر القرن الأول . ومع ذلك فان الحَجّاج كان يرى ان دُور الهجرة (الكوفة ، البصرة) هي « موضع الفصاحة والاعراب » . وأثنى بحشل على أهل واسط لفصاحتهم ، وعَلَّلَ ذلك بأن الحجاج « كان لا يدع احدا من اهل السواد يسكن واسطا » (١٢٥) .

وفي القرن الثالث الهجري ، والعربيّة لغة الثقافة ، كانت الفصاحة ما تزال تُقْرَن بعربية الاعراب الأقحاح . وبجنب هذه اللغة يشير الجاحظ الى لغة المولدين والبلديين بتركيبها واعرابها (١٢٦) . وعلى كلٍّ، فبالاضافة الى لغة التخاطب اليومية ، التي لا تخلو من لون محلي ، صارت العربية لغة الحضارة، وفيها المرونة التي تتطلّبها الحاجات الثقافية والحضرية . ومع ذلك استمرّت الجهود للحفاظ على صفاء اللغة، وعلى جعل النحو اداة فعالة تُمكّنُ الجميعَ من اتقانها عن طريق التعلم (١٢٧) .

وبدأت دراسة التاريخ وكتابته في خَطّين ــ اسلامي وقَبلي ؛ ففي المدينة اتجهت الدراسات التاريخية الى المغازي والجماعة الاسلامية الاولى، ثم شملت تاريخ الأمة . وفي الكوفة (ثم البصرة) اتجهت الدراسات الى نشاط الخلافة، والى فعاليات القبائل وشؤون الامصار .

وكان المحدّثون روّاد المغـازي، في حين نهض الأخباريون بالدراسـات التاريخية في الكوفـة ، وشارك فيها لِحَـدٍّ ما بعض النسّابين واللغويين .

تناول الأخباريّون فـي دراساتهم كلَّ جوانب التاريخ الاسـلامي في كتب يتعلق كـلٌّ منها بموضوع أو بفترة . وبينمـا يلاحظ اسلوب المحدّثين في التدقيـق والاسناد في كتابة المغـازي، فان الاخباريين يشعرون باستمرار نواحي الاهتمـام القبلية، وبأثر اسلـوب قصص الايام . وكان عروة بـن الزبير (٧١٢/٩٤) رائـد مدرسة المغازي، واستقرّ هيكل السيرة على يـد تلميذه الزهري (٧٤٢/١٢٤) بينما كَتَـب الاخباريون في الجيـل التالي لـه .

وهكذا نشأت الدراسـات التاريخية في الاسـلام، وتطورت في نطاق الثقافة العربية الاسـلامية . أما الترجمات لِسِيَر الملوك مـن الفهلوية ، والأخذ مـن الاسرائيليات، فانها أدخَلَت مـادة ضعيفة الى الدراسات التاريخية، ولكنها لـم تأت بفكرة أو بمنهـج .

وشهد القرن الثالـث الهجري تبادل التأثير بـين مدرستي التاريخ في المدينـة والكوفة، في الأسلوب والافـق والمفاهيم التاريخية ، ويلـي ذلك ظهور المؤرخـين الكبار بعد منتصف هذا القرن ، وهـم يمثّلون قمـة التطور في الدراسات التاريخية فـي فترة التكوين (١٢٨) .

وكانت الصلات بالثقافـات الاخرى شفوية ومحدودة : فهنـاك الاسرائيليات ، وبعض اللاهوت المسيحي ، وبعض الاقـوال القانونية التي تسرَّبت عـن طريق الداخلين في الاسـلام ، اضافة الى قليل من الهلنية . واثيرت اسئلـة عن حرية الراي، والصفات الالهيـة، وخَلْق القـرآن . ولا يخفـى أن مسألة حريـة الارادة والاختيار ـ كما في كثير من القضايـا الاساسية ـ بدأت كمشكلة سياسية فـي العصر الاموي ، ولكن الاتصال قـد يترك بعض الاثر . ويلاحَـظُ تَسَلُّل بعض الآراء الدينية الفارسية في بيئـة الكوفة عن طريق بعض المسلمين الجدد ؛ وهذا يلحظ عنـد الغلاة . ولكن هذه الصلات كانـت أولية، ولا يوجد ما يدل على اقتباس متعمَّـد الا في الحاجات المـادية .

وأدّى تعريب الدواوين زمن الأمويين (من ايام عبد الملك بن مروان الى أيام هشام بن عبد الملك) الى إغناء العربية ، وساعَدَ على أن تصبح لغة الثقافة للمسلمين وغيرهم . وقد فتح التعريب الباب للشعوب الاخرى في المجتمع الاسلامي للمساهمة في الثقافة وتاكد ذلك بعد الثورة العباسية .

وكان للتراث المحلّي ، الاداري والمالي خاصة ، اثره ؛ وكان للمسلمين أن يأخذوا ما يرون ما دام لا يتعارض والمفاهيم الاسلامية . وقد ادخل المسلمون عليه ابتداءً تعديلاتٍ بضوء المبادىء الاسلامية ، ثم طَوَّروه وعرَّبوه،واخيرا تمثّلوه في مجرى الحضارة العربية الاسلامية .

وان وُجِدَت اشارات الى بدايات اولية ومفردية للترجمة زمن الامويين ، فان العباسيين نَظَّموا الترجمة وشجّعوها في العلوم والطب والفلك،واخيرا — من اواخر القرن الثاني — في الفلسفة . وهذه الترجمات لم تُدخِل عنصرا غريبا غير مؤتلف في الثقافة،عدا الفلسفة التي تضمّنت احيانا آراء ومفاهيم لا تنسجم والمبادىء الاسلامية . وحاول العلماء المسلمون أن يفيدوا من المنطق اليوناني،وان يوفقوا بين الفلسفة والاسلام في الشكل والمضمون .

وهناك خَطٌّ آخر للترجمة — عن الفهلوية بالدرجة الاولى — تَبنّاه الكُتّاب وبعضُ رجال الأدب ، وشمل مؤلفاتٍ ادبيةً وتاريخيةً ودينية . وكان لهذه الترجمات بعض الاثر في الآراء وفي بعض الحركات الدينية السياسية الخارجة ، وكانت تتّصل بالصراع الثقافي مع الشعوبية . وربما كان للاحتكاك والصراع الثقافي اثرٌ في تجديد الاهتمام بالتراث الادبي العربي،وفي تأكيد جديد على العربية وصلتها بالاسلام،وفي تجديد التأكيد على العربية اساسا للعروبة .

وفي هذه الفترة لم تَعُد الرسالةُ الدينية التي حملها العرب ابتداءً قاصرةً عليهم،بل شاركهم فيها المسلمون من مختلف الشعوب ، وأصبحت رسالة العرب ثقافية حضارية .

(١) انظـر :

N. Poliak - L'Arabisation de L'Orient Sémitique, R. E. I. 1938, pp. 35-63
W. Marçais - Comment L'Afrique du nord a été Arabisee, Articles e Conférences (Paris 1961) pp. 171 - 192 ;

R. Blachere - Regards sur L'acculturation des Arabo - Musulmanes, Arabica, III, pp. 247 - 65.

(٢) الشيباني ـ السير ، ج ١ ، ص ٨٨ ، ص ٩٤ ـ ٩٥ .

(٣) الطبري ـ تاريـخ ، س ١ ، ص ٢٨٦٠ . البلاذري ـ انساب الاشراف ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ١١٤ . قـال الاحنف بن قيس اثناء الفتنـة في البصرة سنة (٣٦هـ) يرد على اقتراح الغضبان القبعثري بـأن تترك تميم البصرة « أمـا خروجنا من المصر فانا لا ندع مهاجرنا ومركزنا وفيء اللـه علينا فنتعرب بعـد الفتنة » . وجاء في لسان العرب : « وكان من يرجع بعـد الهجرة الى موضعه ، مـن غير عذر ، يعدونه كالمرتـد » ، مـادة « عـرب » .

(٤) المبـرد ـ الكامل (باعتناء أبي الفضل ابراهيم وشحاتـه ، القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ، ص ١٤١ .

(٥) يقول ابن سعـد عن الزبرقان بن بدر ، الـذي ثبت على الاسلام خلال الردة : « وكان ينزل أرض بنـي تميم ببادية البصرة ، وكان ينزل البصرة كثيرا » . ويقـول عن الاقرع ابـن حابس « وكان ينزل أرض بنـي تميم ببادية البصرة » . الطبقات ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ٢٤ .

(٦) في ابن سعـد ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ٣٩ : « سمعت ابـي يقول : نهاني رسـول اللـه ، أو سمعت رسول اللـه (ص) ينهى عن التناءة ، فمـن اقام ببلاد الخراج فقد تنـا ، فانا أكره ان اقيـم » .

وجاء في اللسـان : « من تنا في أرض العجم فعمل نيروزهم ومهرجانهم حشر معهـم » ، مادة « تنا » . وانظـر : حلية الاولياء .

(٧) البلاذري ـ انساب ، (خـط) ق ٢ ، ص ٧٥٠ ، ص ١٢٣٥ .

(٨) انظر : رسائـل الجاحظ (تحقيق عبـد السلام هارون) ، ج ١ ، ص ١٠ ـ ١١ .

(٩) الطبري ، س ٢ ، ص ١٥٠٥ ـ ٦ .

(١٠) البلاذري ـ انساب (خـط) ق ٢ ، ص ٧٥٠ .

(١١) في طور عابدين وآمـد ورأس العين ونصيبين والرهـا .

(١٢) انظـر : Dillemann - Haute Mesopotamie Orientale (Paris 1962) PP. 34 - 8, 88 - 9 .

الطبري ، س ١ ، ص ٨٢٧ ؛ الاغاني ، ج ٢ ، ص ١٤٠ ـ ١ .

البكري ـ معجـم ما استعجم (باعتناء السقـا ، القاهرة ١٩٥٤) ج ١ ، ص ٢٣ .

(١٣) الطبري ، س ١ ، ص ٢٤٨٩ ، ص ٢٥٠٥ . البكري ـ معجم ، ج ١ ، ص ٢٣ ـ ٤ . ابـن اعثم ـ فتوح ، ج ١ ، ص ٨٨ ـ ٨٩ ،

Musil - Middle Euphrates (New york 1927), p. 285

(١٤) البلاذري ــ فتوح ، ص ٢٤٨ ، وانظـر : ص ٢٤٩ .

(١٥) الهمداني ــ صفة جزيرة العـرب (باعتناء الاكوع ، دار اليمامـة) ، ص ٧٠ ، ص ٢٧٥ ، ص ٣١٩ . البكري ــ معجـم ، ج ١ ، ص ٢٣ ــ٢٤ . البلاذري ــ فتوح ، ص ١٨٢ ، Musil, op. cit., p. 312.

(١٦) البلاذري ــ فتوح ، ص ١٧٧ .

(١٧) البكري ــ معجم ، ج ١ ، ص ٦٩ ــ ٧١ ، E. I(2) Bakr b. Wail

(١٨) الطبري ، س ١ ، ص ٨٢١ ــ ٨٢٢ ، ص ٢٤٩ . وانظـر : س ١ ، ص ٧٢٤ ، ص ٧٤٧ عـن قدم العرب في العراق ، البكري ــ معجم ، ج ١ ، ص ٥٢ ــ ٥٣ . هذا اضافة الـى جماعة من بكر بن وائل ، المبـرد ــ الكامل ، ج ٢ ، ص ٤٢٦ .

(١٩) الهمدانـي ، ص ١٤٩ .

(٢٠) البكري ــ معجم ، ج ١ ، ص ٨٥ ــ ٨٦ . ابن أعثم الكوفي ــ فتوح ، ج ١ ، ص ٨٨ ــ ٨٩ . ويذكـر الهمداني أنها تمتد من الابلة الـى هيت ، ص ١٦٩ . وكان امارة ميسين (ميسـان) عند مصب دجلة يحكمها عرب وافدون مـن عمان وذلك قبل قيـام الحيرة . كرستنسن ــ ايران زمـن الساسانيين ، ص ٧٥ . وانظـر : Musil, op. cit., p. 285. E. I (2) Bakr ibn Wail

(٢١) الجاحظ ــ البيان والتبيين (باعتناء ، عبـد السلام هارون ، القاهرة ١٩٦٠ ــ ١) ، ج ٢ ، ص ١٣٠ . البلاذري ــ فتوح ، ص ٤٨٨ ، انسـاب ، ج ٤ ق ١ ، ص ١٩٠ ، ص ٢٠٢ . الطبري ، س ٢ ، ص ٤٣٣ .

(٢٢) الطبري ،س ٢ ، ص ٤٣٤ . البلاذري ــ انسـاب ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ١١٦ .

(٢٣) الطبري ، س ١ ، ص ٢٨٠٤ .

(٢٤) ن. م. ، س ١ ، ص ٢٨٠٥ . البلاذري ــ فتوح ، ص ٣٥٠ . ياقوت ــ معجـم البلـدان ، ج ١ ،ص٤٩٢ .

(٢٥) البلاذري ــ فتوح ، ص ٣٣٤ . الازدي ــ تاريـخ الموصل (باعتناء علـي حبيبة ، القاهرة ١٩٧٦) ج ٢ ، ص ١٨٣ ، ص ٣١٣ ــ ٣١٥ ، ص ٣٣٢ ، ص ٣٥٠ . ياقوت ــ بلـدان ، ج ١ ، ص ٤٩٢ .

(٢٦) البلاذري ــ فتوح ، ص ١٧٧ .

(٢٧) ن. م. ص ١٧٨ . ياقوت ــ بلـدان ، ج ٤ ، ص ٢٩١ .

(٢٨) الهمداني ، ص ٢٧٥ ــ ٢٧٦ . الازدي ــ تاريـخ ، ج ٢ ، ص ٣٢٢ ــ ٣٢٣ ، ص ٣١٤ــ ٣١٥ .

(٢٩) الطبري ، س ٢ ، ص ١٨٧٤ .

(٣٠) يشير البلاذري مثلا الـى مسالح أو حاميات في الابلـة والخريبة والعذيب وعيـن التمر وعلى اطراف الفرات الاوسط ، فتوح ، ص ٢٤٢ ــ ٣ ، ص ٢٤٦ ، ص ٢٥٤ ــ ٥ ، ص ٢٥٠ ، ص ٢٧٦ ــ ٧ ، ص ٣٤١ . وانظـر : ابن سـعد ،

ج ٧ ، ق ١ ، ص ٧٧ ، ص ١٢١ . ابـو يوسف ـ الخراج (بولاق ١٣٠٢) ، ص ٨٣ ـ ٤ . المسعـودي ـ مروج ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ ـ ١ .

(٣١) الصولي ـ أدب الكتّـاب ، ص ٧٥ . البلاذري ـ فتوح ، ص ٢٦٥ . يحيى بن آدم ـ الخراج ، ص ٤ . ابـو يوسف ـ الخراج ، ص ٨٥ .

(٣٢) المسعودي ـ التنبيـه والاشراف ، ص ٣٨ . ابـو يوسف ـ الخراج ، ص ٢٣ .

(٣٣) تـاج العروس ، ج ٢ ، ص ٢٧٠ ـ ١ (نبـط) ، ويسمون ايضـا الكلدانية . ياقوت سجلـدان ، ج١ ، ص ٢٤٧ ـ ٨ ، ج ٣ ، ص ١٧٥ . المسعـودي ـ مروج ، ج ٣ ، ص ٩٥ ومـا بعدها .

(٣٤) انظـر : يحيى بن آدم ـ الخراج ، ص ٥٧ ـ ٩ .

(٣٥) ن. م. ص ٢٢ ـ ٢٣ . ابـن وحشية ـ الفلاحة النبطية (خـط ـ مكتبة أحمـد الثالث ، رقـم ١/١٩٨٩) ، ص ١ ـ ٢ .

(٣٦) المسعودي ـ التنبيـه ، ص ٣٩ .

(٣٧) يحيى بـن آدم ـ الخراج ، ص ٢٢ ، ص ٤٨ . بحشـل ـ تاريخ واسط (باعتناء : كوركيس عـواد ، بغداد ، ١٩٦٧) ، ص ٣٩ ـ ٤٠ . الطبري ، س ١ ، ص ٢٠٢٦ ، ص ٢٠٢٨ ـ ٩ ، ص ٢٠٣١ ، ص ٢٠٣٦ .

(٣٨) العسكري ـ الاوائل ، ص ١٣٦ . البلاذري ـ فتوح ، ص ٢٢٦ وبعدهـا . وانظر : ابـو عبيد ـ الاموال ، ص ١١٣ ومـا بعدها . الطبري ، س ١ ، ص ٢٣٧٠ .

(٣٩) يحيى بـن آدم ، ص ٤٥ ، ص ٥١ . البلاذري ـ فتوح ، ص ٢٤٢ ـ ٣ . ابـو عبيد ، ص ٨٢ ـ ٨٣ . قدامة بـن جعفر ـ كتاب الخراج (باعتناء : دي خوية) ، ص ١٤٥ .

(٤٠) ذكـر وكيع ان داود الطائي تكلم امام الحجاج فقال لـه الحجاج : « الكلام كلام عربـي ، والوجه وجـه نبطي » مما يشعر بـأن تمييز من يعلم من النبط لـم يكن مألوفـا . اخبار القضاة ، ج ٢ ، ص ١٧٩ .

(٤١) انظر : المبـرد ـ الكامل ، ج ٢ ، ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠ .

(٤٢) أنظر : تـاج العروس ، ج ٢ ، ص ٢٣١ ، والبلاذري ـ فتوح ، ص ٢٧٩ . ومدح سـعد بـن أبي وقاص بانه « نبطي في جبابه » .

(٤٣) كان عميرة كاتـب اشرس بن عبد اللـه أمير خراسان سنـة ١١٠ هـ نبطيا . انظر : البلاذري ـ انساب (خـط) ق ٢ ، ص ٢٥٢ .

(٤٤) انظر : رسائـل الجاحظ (تحقيق عبـد السلام هارون) ج ١ ، ص ٦٦ .

(٤٥) اعتبرت اراضـي الحيرة وبانقيا واليس ارض صلـح ، وكان اهل هذه القـرى يدفعون جزية مشتركة فقـط . انظر : البلاذري ـ فتوح ، ص ٢٤٣ ـ ٤ . ابـو عبيد ـ الاموال ، ص ٣٩ ـ ٤٢ ، ص ١١٦ ـ ١١٨ . يحيى بـن آدم ، ص ٥ . واتبع نفس الاجراء مع عـين التمر ، البلاذري ـ فتوح ، ص ٢٤٨ .

(٤٦) كانت تغلب تدفع ضعف الصدقة ، ابو عبيد ، ص ٣٩ ــ ٤٢ .

(٤٧) المبرد ــ الكامل ، ج ٢ ، ص ١٠٦٢ ــ ٣ . ويشير البلاذري الى نساج من بني سليم في الكوفة قال : « وان ما شهدت عسكرا قط ولا اثبت لي اسم قط في ديوان ، وانما انا نساج » انساب (خط) ق ٢ ، ص ٣ .

(٤٨) البلاذري ــ انساب (خط) ق ٢ ، ص ١٦ . وانظر : يحيى بن آدم ــ الخراج ، ص ٢٠ .

(٤٩) البلاذري ــ انساب (خط) ق ٢ ، ص ٣ ، ص ٨٢٢ . الطبري ، س ٢ ،ص ١٦٨٣ ــ ٤. ديونيسيوس التلمحري (الترجمة الفرنسية) ، ص ٩٣ .

(٥٠) يقول ابن سعد عن العباس بن مرداس بن ابي عامر : « وكان ينزل بوادي البصرة ، وكان يأتي البصرة ، وروى عنه البصريون ، وبقية ولده ببادية البصرة ، وقد نزل منهم قوم البصرة » ابن سعد ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ٢١ .

(٥١) Blachere - Histoire de la Literature,t. 3, pp. 276 - 7.

(٥٢) ابو عبيد ــ الاموال ، ص ٢٧٦ . ابو يوسف ، ص ١٥ . ابن سعد ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ١١٧ ــ ٨ . الطبري ، س ١ ، ص ٢٣٧٦ ، البلاذري ــ فتوح ، ص ٢٩٨ ــ٢٩٦ ، ص ٣٨٢ ، ص ٤١٩ ، ص ٤٨٠ .

(٥٣) البلاذري ــ فتوح ، ص ٢٤٣ ــ ٤ . ابو عبيد ــ الاموال ١١٦ . يحيى بن آدم ، ص ٥١ . واكد عمر بن عبد العزيز على أن اهل الحيرة من يهود ونصارى ومجوس لا يدفعون الا الصدقة بعد اسلامهم ، « فمن اسلم ... فعليه في ماله الصدقة » . الصولي ــ ادب الكتاب ، ص ٧٥ .

(٥٤) انظر : المبرد ــ الكامل ، ج ١ ، ص ٤٣٩ ــ ٤٠ .

(٥٥) الطبري ، س ٢ ، ص ١٦٤٨ .

(٥٦) ن. م. س ٢ ، ص ٩٧٧ .

(٥٧) ن. م. س ٢ ، ص ١٠١٨ قرية الاعراب .

(٥٨) الازدي ــ تاريخ الموصل ، ج ٢ ، ص ١٢٩ ، ص ٢٨٧ .

(٥٩) ديونيسيوس التلمحري ــ تاريخ ، ص ٤٧ ، ص ٨٩ ، ص ١١٤ ، ص ١٢٩ .

(٦٠) ن. م. ص ٤٧ .

(٦١) ن. م. ص ٩٤ .

(٦٢) انظر : الجاحظ ــ بيان ، ج ٢ ، ص ٧١ . يقول الجاحظ : « وزعم ابو العاص انه لم ير رويا قط لا يلحن في حديثه ، وفيما يجري بينه وبين الناس » بيان ، ج ٣ ، ص ١٠٩ .

(٦٣) يقول الجاحظ : « وقد يتكلم المغلاق الذي نشأ في سواد الكوفة بالعربية المعروفة ويكون لفظة متخيرا فاخرا، ومعناه شريفا كريما،ويعلم مع ذلك السامع

لكلامه في مخارج حروفه انـــه نبطي » رسائل الجاحظ (هارون) ج ١ ، ص ٦٦ .

(٦٤) انظـــر : Ryckmans - Arabie Meridionale, p. 67, pp. 71 - 2

(٦٥) ابـــو عبيدة ـــ النقائض (تحقيق بيفان) ص ٤٢٤ . تـــاج العروس ، مادة (ولاء) . وانظر : البلاذري ـــ انساب ، ج ١ ، ص ١٥٧ ، ص ١٨٩ ، ١٩٢ .

(٦٦) انظر : ابـــن هشام ـــ السيرة ، ج ٢ ، ص ١٤٩ .

(٦٧) البلاذري ـــ انســـاب ، ج ١ ، ص ١٩٢ ـــ ٣ عن عطاء خثعم والاحابيش .

(٦٨) الطبـــري ، س ١ ، ص ٢٥٣٨ ، ص ٢٥٦٢ . البلاذري ـــ فتوح ، ص ٢٨٠ . الانســـاب ، ج ٤ ، ت ٢ ، ص ١٠٧ ، ص ١١٢ . الانساب (خـــط) ق ١ ، ص ٨٨٣ ـــ٠٤.

(٦٩) الطبري ، س ١ ، ص ٢٥٣٨ . انظـــر : السرخسي ـــ المبسوط (القاهرة ١٩٣٢) ، ج ٨ ، ص ٨١٥ .

(٧٠) الطبري ، س ١ ، ص ٢٠٢٨ ـــ ٩ ، ص ٢٠٣١ ، ص ٢١٢٢ ، ص ٢١٦٧ ، ص ٢١٧٠ .

(٧١) انظر : الطبري ، س ٢ ، ص ٧٤٨ ، ص ٧٥٠ .

(٧٢) اليعقوبي ، ج ٢ (ط . هوتسما) ص ١٠٥٨ . صالح العلي ـــ التنظيمات الاجتماعية في البصرة ، ص ٦٥ .

(٧٣) البلاذري ـــ الانســـاب ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ١٨٠ ، ص ١٨٥ . ابـــن سعد ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ٢٦٠ . يقـــول الشيرازي من عبد اللـــه بن ابي اسحق انـــه « مولى آل الحضرمي وهـــم حلفاء بني عبد شمس بن عبـــد مناف ، والحليف عند العرب مولى » . طبقـــات الفقهاء ، ص ٣٧ .

(٧٤) الطبري ، س ٢ ، ص ٨٣٤ ـــ ٥ . كون البعض مثـــل عباد بن زياد ، والمختـــار وسليمان بـــن هشام بن عبد الملك«كتائب من الموالي . انظـــر الطبري س ٢ ، ص ٥٢٣ ـــ ٤ . البلاذري ـــ انســـاب ، ج ٥ ، ص ١٣٦ ، فتوح ، ص ٢٣٦ . انساب (خـــط) ق ٢ ، ص ٤٣ ، ص ٣٦ . ابن سعد ، ج ٥ ، ص ٢٨٥ .

(٧٥) انظر : البلاذري ـــ انساب (خـــط) ق ١ ، ص ٥٩٦ .

(٧٦) حينما وعـــد اشرس امير خراسان (١١٠ هـ) اعفاء مـــن يسلم من الجزيـــة واقبل الناس علـــى دخول الاسلام « فجاء دهاقين بخارى الـــى اشرس فقالوا . ممن نأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عربـــا ! » الطبري س ٢ ، ص ١٥٠٥ ـــ ٦ .

(٧٧) البلاذري ـــ انساب (خـــط) ق ٢ ، ص ٧٥٠ .

ولما تمنى العريان صاحب شرطة خالد القسري عليه منع الموالـــي من استعمال العربية ، اجاب مولى بلهجة ساخـــرة « اما الكلام فلـــن يتكلم الا بالزنجية ! » البلاذري ـــ انساب (خـــط) ق ٢ ، ص ٢٨٤ .

(٧٨) الخصائص لابن جني ، ج ١ ، ص ٢٣٩ ــ ٢٤٠ ، أبو الطيب ــ مراتب ، ص ٥ (المتعربين) . أنظر : الاغاني (دار الكتب) ج ١٤ ، ص ٢٨٨ .

(٧٩) لسان العرب ، مادة « عرب » .

(٨٠) البلاذري ــ انساب (خط) ق ٢ ، ص ١٢٥٨ ، ص ١٧٧ .

ومع أن الولاء لا يساوي النسب تماما ، فانه قد يؤدي الى الاندماج في الجماعة العربية « الاسلامية » . انظر الخلاف حول نسب ابراهيم النخعي في المبرد ، ج ٣ ، ص ١١٨٤ . وجاء في ابن سعد على لسان سعيد بن جبير ــ « وقال لي ابن عباس : ممن انت ؟ قلت من بني اسد ، قال : أمن عربهم أو مواليهم ؟ قلت : لا ، بل من مواليهم ، قال : فقل أنا ممن أنعم الله عليه من بني اسد » . الطبقات ، ج ٦ ، ص ١٩٨ .

(٨١) جاء في البلاذري ، أن هشام بن عبد الملك سأل رجلا من بني مخزوم (اخواله) : « يا خال ! اتقرأ كتاب الله ؟ قال : اقرأ منه ما اقيم به صلاتي ، قال : أتقروي من الأشعار شيئا ؟ قال : لا ، قال : أتعرف احاديث العرب واشعارها وايامها ما يعرفه مثلك ؟ قال : لا ، قال : أتنسب قريشا وسائر بني نزار ؟ قال : لا أحسن من النسب شيئا . قال : يا غلام ... فليس من خالنا حشمة » . أنساب (خط) ق ٢ ، ص ٢٤٠ . وانظر : الجاحظ ــ البيان ، ج ٢ ، ص ١٨٠ .

(٨٢) ان استعراض اسماء من ترجم لهم (من فترة صدر الاسلام) في مؤلفات مثل طبقات ابن سعد ، واخبار القضاة لوكيع ، وطبقات الفقهاء للشيرازي ، وتذكرة الحفاظ للذهبي ، ونزهة الالبّاء في طبقات الادباء للانباري ، يبين أن الموالي كانوا اقلية ــ حوالي ٢٥ ــ ٣٠٪ .

(٨٣) يروي الاعمش عن هلال بن يسار « قال : قدمت البصرة فدخلت المسجد فاذا أنا بشيخ أبيض الرأس واللحية ، مستند الى اسطوانة في حلقة يحدثهم ، فسألت من هذا ؟ فقالوا عمر بن الحصين » (ت سنة ٥٣ هـ) ابن سعد ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ٥ .

(٨٤) أنظر : ابن سعد ، ج ٦ ، ص ٥١ ــ ٥٢ ، ص ٥٤ ، ص ٥٥ ، ص ١٧٣ ، ص ١٩٢ ، ص ٢١٩ ، ص ٢٣٦ . الطبري س ٢ ، ص ١٩٦٦ .

(٨٥) في الذهبي ــ معرفة القراء الكبار (القاهرة ١٩٦٧) ج ١ ، ص ٤٦ « فكنا نتعلم القرآن والعمل به » . وانظر : ص ٤٨ ، ص ٧٣ ــ ٧٤ . وانظر الشيرازي ــ طبقات الفقهاء (باعتناء احسان عباس ، بيروت ١٩٧٠) ، ص ٤٣ ، ص ٤٤ ، ص ٤٦ ، ص ٥١ .

(٨٦) البلاذري ــ انساب (خط) ق ٢ ، ص ٧٥٥ ، ص ٧٦١ . وانظر : ابن سعد ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٢٧ . الذهبي ــ القراء الكبار ، ص ٣٤ ، ص ٣٧ ــ ٩ .

(٨٧) البلاذري ــ انساب ، ج ٥ ، ص ٣٦ .

(٨٨) الشيرازي ــ طبقات الفقهاء ، ص ٨١ ، وانظر : البلاذري ــ انساب (خط) ق ٢ ، ص ٧٥٥ ، ج ٥ ، ص ٣٦ . ابن سعد ، ج ٦ ، ص ٤ ، ص ٥ ، ص ٧ ، ص ٨ ، ص ٦٣ ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ١٦٣ . السجستاني ــ المصاحف ، تحقيق

جدري) ، ص ١٣ — ١٥ . الاصبهاني — حلية ، ج ١١ ، ص ٩٤ . الذهبي — القراء الكبار ، ج ١ ، ص ٣٤ ، ص ٣٨ — ٩ .

(٨٩) وقد رشحهم ابو موسى لشرف العطاء ، ابن سعد ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ٨٩ . واقترح سعد بن ابي وقاص جعلهم في الفيء ، البلاذري — فتوح ، ص ٤٥٦ . جاء رسول مصعب بن الزبير الى عمرو بن النعمان بن مقرن (في البصرة) يسأل فقال له : الامير يقرئك السلام ويقول : انا لم ندع بالكوفة قارئا الا وقد نماله معروفنا فاستعن على نفقة شهر رمضان بهذا . فقال : وعلى الامير السلام ، قل له انا والله ما قرانا القرآن لنطلب به الدنيا ، ورده عليه » . البلاذري — انساب ، ج ٥ ، ص ٢٨٦ .

(٩٠) انظر مثلا : الطبري ، س ١ ، ص ٣٢٧٣ ، ص ٣٢٨٣ ، س ٢ ، ص ١٠٠٦ ، ص ١٠٧٢ ، ص ١٠٧٦ — ٧ . ابن سعد ، ج ٦ ، ص ٤٦ ، ص ١٢٧ ، ص ٢٠٤ ، ص ٢١٦ ، ص ٥٣ ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ٦٥ . البلاذري — انساب (خط) ، ق ٢ ، ص ٣٠ — ٣١ ، ص ٥٤ . المبرد — الكامل ، ج ٣ ، ص ١١٢٧ ، الذهبي — القراء الكبار ، ج ١ ، ص ٦٢ — ٦٣ ، ص ٧٩ .

(٩١) الطبري ، س ١ ، ص ٢٠٩٢ . البلاذري — انساب (خط) ، ق ٢ ، ص ٥٣ . ابن سعد ، ج٧، ق ١ ، ص ١١٤ ، ص ١٤٠ ، ج ٧ ، ق ٢ ، ص ٢١ ، ص ١٧١ . وانظر : الذهبي — القراء الكبار ، ص ٦٨ .

(٩٢) ابن سعد ، ج ٦ ، ص ٢٢٣ — ٢٢٤ . الذهبي — القراء الكبار ، ج ١ ، ص ٤٤ — ٥ .

(٩٣) ابن سعد ، ج ٦ ، ص ٤ ، ص ٧٤ ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ١١٤ . الاصبهاني — حلية ، ج ٢ ، ص ٩٨ — ٩٩ . الذهبي — القراء الكبار ، ج ١ ، ص ٥٦ ، ص ٦٢ — ٣ ، ص ٧٥ ، ص ٧٩ .

(٩٤) ابن سعد ، ج ٦ ، ص ٥ ، ص ٦٣ . الذهبي — تذكرة الحفاظ (دار المعارف العثمانية ١٣٣٣ — ٣٤) ج ٨ ، ص ١٠٦ . وانظر : الشيرازي — طبقات الفقهاء ، ص ٨٠ ، ص ٨١ ، ص ٨٢ — ٨٣ ، ص ٧٩ . الذهبي — القراء الكبار ، ص ٥٤ .

(٩٥) ابن سعد ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٩٦) انظر : الذهبي — القراء الكبار ، ج ١ ، ص ٥٣ ، ص ٥٤ ، ص ٥٦ ، ص ٦٢ — ٦٣ ، ص ٩٣ .

(٩٧) انظر : الطبري ، س ١ ، ص ٢٢١٢ ،

Bravamann - Spiritual Background of Early Islam, pp.169 off, pp. 176off.

(٩٨) ابو زهرة — المذاهب الفقهية ، ص ٢٧ وما بعدها ، ص ٢٩ وما بعدها . وانظر :

Schacht - Origins of Muhammadan Jurisprudence (Oxford 1959), pp. 25 off., pp. 82 off.

Schacht - Introduction to Law, pp. 16 off. P. 233 , P. 237 , P. 247 (٩٩)

(١٠٠) انظر : فؤاد سزكين ــ تاريخ التراث العربي ، ج ١ ، ص ٢٢٦ وما بعدها ، ص ٢٥٤ ، ص ٢٦٠ ، ص ٢٧١ وما بعدها .

(١٠١) انظر : ابن حجر ــ تهذيب ، ج ١٢ ، ص ٩٩ ، طلب عمر بن عبد العزيز من ابي بكر بن حزم كتابة « ما كان من حديث رسول الله او سنة ماضية او حديث عمرة » . اليافعي ــ مرآة الجنان ، ج ١ ، ص ٢٦١ . الدوري ــ علم التاريخ عند العرب ، ص ١٠٠ ــ ١٠١ . الرامهرمزي ــ المحدث الفاضل (بعناية محمد عجاج الخطيب) ص ٤٢٣ ، ص ٤٣٠ .

(١٠٢) سزكين ، ج ١ ، ص ٢٢٩ ــ ٢٣٠ .

(١٠٣) انظر : ابن سعد ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ١٢٤ . الطبري ــ تفسير ، ج ٧ ، ص ١٢٩ . ابن حجر ــ الاصابة (القاهرة ١٩٣٩) ، ج ٢ ، ص ١٤٠ . الف ابن عباس كتاب لغات القرآن (نشر باعتناء المنجد ، القاهرة ١٩٤٦) .

(١٠٤) انظر : الجاحظ ــ الحيوان ، ج ١ ، ص ٣٤٣ . وعرف مجاهد (ت ٧٢٢/١٠٤) باستعمال الرأي . سزكين ، ج ١ ، ص ١٧٦ وما بعدها . جولد تسيهر ــ المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن ، ص ٧٥ وما بعدها ، ص ٦٨ ــ ٨٨ .

(١٠٥) سزكين ، ج ١ ، ص ١٩٧ وما بعدها ، بروكلمان ــ تاريخ الادب العربي ، ج ٤ ، ص ١٧٣ وما بعدها .

(١٠٦) انظر : بلاشير ــ تاريخ الادب العربي . شوقي ضيف ــ التطور والتجديد في الشعر الاموي (ط ٥ ، ١٩٧٣) .

(١٠٧) الجاحظ ــ البيان ، ج ١ ، ص ١٩ . انظر : السيوطي ــ المزهر ، ج ٢ ، ص ٣٧٦ . الزبيدي ــ طبقات النحويين (باعتناء ابي الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٥٤) ، ص ١٤ . الانساب ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ١٨١ . ابو الطيب ــ مراتب ، ص ٥ .

(١٠٨) يقول ابو الطيب : « ان أول ما اختل من كلام العرب فاحوج الى التعليم الاعراب ، لان اللحن ظهر في كلام المولدين والمتعربين بعد عهد النبي » . مراتب النحويين (أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٥٧) ، ص ٥ . وانظر : السيوطي ــ المزهر ، ج ٢ ، ص ٣٧٦ . والزبيدي ــ طبقات النحويين (باعتناء ابي الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٥٤) ، ص ١٤ .

ويروي السيرافي أن أبا الاسود قال لزياد : « اني رأيت العرب قد خالطت الاعاجم وتغيرت السنتهم .. » انظر : اخبار النحويين البصريين (باعتناء كرنكو) ص ١٧ ــ ١٨ . وانظر : البلاذري ــ انساب ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ١٨٩ عن اللحن ايام زياد . ويشير بحشل ، تاريخ واسط ، ص ٤٦ الى الاختلاط في الكوفة والبصرة . ويتحدث المبرد عن عدد من العرب البارزين ممن عرفوا بلكنتهم الاعجمية (مثل عبيد الله بن زياد ، وزياد الاعجم) الكامل ، ج ٢ ، ص ٥٨٥ ــ ٦ . وانظر : الزبيدي ــ طبقات ، ص ١٤ . وكان زياد يقول : « اذا لم يجد احدكم سعة لتزوج من يرغب فيه لموضعة فليتزوج سبية » . البلاذري ــ انساب ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ١٨١ .

(١٠٩) الطبري ، س ١ ، ص ٢٨٠٣ ــ ٤ .

(١١٠) الزبيدي ــ طبقــات النحويين ، ص ١ ــ ٢ .

(١١١) انظر : فوك ــ العربيــة ، ص ٢٩ ــ ٣٠ .

(١١٢) انظر : عبــد العال سالم مكرم ــ القــرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية ، ص ٤٨ ومــا بعدها . ابن النديم ــ الفهرســت ، ص ٥ ،

Haywood - Arab Lexicography, p. 25 off.

الزبيدي ــ طبقــات ، ص ١٣ ــ ١٤ ، السيوطي ــ المزهــر ، ج ٢ ، ص ٣٩٨ . الداني : نقط المصاحف (دمشق ١٩٦٠) ص ١٢٢ ــ ٣ . وينسب البعض نقط الاعجام الى نصر بن عاصم (٨٩/٧٠٧) ، انظر : المصاحف للسجستاني ، ص ١٦٨ . الذهبي ــ معرفة القراء الكبار ، ج ١ ، ص ٤٩ ، ص ٥٨ . وجاء في الذهبي « قال خلف بن هشام كنت أحضر بين يدي الكسائي وهو يقرأ على الناس وينقطون مصاحفهم بقراءته عليهــم » . معرفة القراء الكبار ، ج ١ ، ص ١٠١ ، وانظــر ص ١٠٢ . ابــو الطيب ــ مراتب ، ص ٨ .

(١١٣) السيرافي ــ اخبــار ، ص ٢١ وما بعدها ، السيوطي ــ المزهــر ، ج ٢ ، ص ٤٠٠ . الذهبي ــ القراء الكبــار ، ج ١ ، ص ٧٣ ــ ٥ ، ص ٨٤ ، ص ١٠١ ، ص ١٠٦ . شوقي ضيف ــ المدارس النحويــة ، ص ١٨ .

(١١٤) معرفة القــراء الكبار ، ص ١٠١ . وانظــر : الزبيدي ــ طبقات ، ص ٢ . ابــو الطيب ــ مراتب ، ص ٢٤ ، ص ٢٥ ، ص ٢٦ ، ص ١٢٧ ، ص ١٦٥ . السيوطي ــ المزهــر ، ج٢ ، ص ٣٠٢ .

(١١٥) وهكــذا وقف ابو عمرو بن العــلاء وتلميذه يونس بــن حبيب الى جانب السماع . وانظر : السيرافي ــ أخبــار ، ص ٢٥ ، ص ٣٣ ــ ٤ . شوقي ضيف ــ المدارس النحويــة ، ص ١٩ ــ ٢٠ .

(١١٦) تتمثل نظرة الكوفــة في القول : « كل مــا كان لقبيلة قيس عليه » ، السيوطــي ــ المزهــر ، ج ١ ، ص ٧٥٨ . انظر : احمــد امين ــ ضحى الاسلام (ط ٧ ، القاهرة ١٩٣٥) ، ج ٢ ، ص ٢٨٣ وما بعدها . شوقي ضيف ، ص ١٥٧ ــ ١٦١ .

(١١٧) قــال عاصم بن أبي النجود الاســدي (القارىء) : « من لم يحسن مــن العربية الا وجها واحدا لــم يحسن شيئا » . الذهبي ــ معرفة القراء الكبــار ، ص ٧٥ . أنظر : شوقي ضيف ــ المدارس النحوية ، ص ١٩ ، ص ١٥٧ ــ ١٥٨ .

(١١٨) انظر البلاذري ــ انساب (خــط) ق ٢ ، ص ٨٣٦ ــ ٣٧ ، عــن المفضل الضبي .

(١١٩) الجاحظ ــ بيــان ، ج ١ ، ص ٣١١ ، والمرزباني ــ مختصر ، ص ٣٦ ــ ٣٧ ، ص ٢٥ . بلاشــير ــ تاريخ الادب العربي ، ج ١ ، ص ١٢٣ ، وانظــر : نهاد الموسى ــ أبــو عبيدة معمر بن المثنى (رسالــة دكتوراة خطية) ، ص ٨٢ ، ومــا بعدهــا .

(١٢٠) أبــو الطيب ــ مراتب ، ص ٣٩ ــ ٤٠ . الذهبي ــ القراء الكبــار ، ج ١ ، ص ٨٣ ومــا بعدها . السيوطي ــ المزهــر ، ج ٢ ، ص ٤٠١ . يقول السيرافي عن يونس بــن حبيب : « وقد سمع من العرب كما سمع من قبلــه ... وكانــت

حلقته بالبصرة ينتابها أهـل العلم وطلاب الادب وفصحاء الاعـراب والبادية » . أخبار النحويين البصريين ، ص ٢٣ ــ ٢٤ .

(١٢١) انظـــر : المخزومي ــ مدرسة الكوفـــة ، ص ٧٩ ومـــا بعدها . شوقـــي ضيف المـــدارس النحوية ، ص ١٥٥ ومـــا بعدها . بروكلمان ــ تاريخ الادب ، ج ٢ ، ص ١٢٨ ، ص ١٧٦ ومـــا بعدها .

(١٢٢) أبـــو الطيب ــ مراتبه ، ص ٣٠ ــ ١ .

Haywood, op. cit. p. 24 off., p. 68 off.

(١٢٣) ذكر المبـــرد : « قال معاوية يومـــا : من انصح الناس ؟ فقام رجـــل فقال : قوم تباعدوا عن فراتية العراق وتيامنوا عن كشكشة تميم وتياسروا عن كشكشة بكر ، ليس فيهم فمغمغة قضاعـــة ولا طمطمانية حمير » ، الكامـــل ، ج ٢ ، ص ٥٨١ .

(١٢٤) الجاحظ ــ البيـــان ، ج ٢ ، ص ٢٠٦ . وانظـــر : ج ١ ، ص ٣٦٨ .

(١٢٥) بحشل ــ تاريخ واســـط ، ص ٢٦ .

(١٢٦) يقـــول الجاحظ : « ولم أجد في خطب السلـــف الطيب والاعراب الافحاح الفاظا مسخوطة ولا معاني مدخولة ولا قـــولا مستكرها ، واكثر مـــا تجد ذلك في خطب المولديـــن وفي خطب البلديين المتكلفين ، ومن أهـــل الصنعة المتأدبين » . البيـــان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٨ ــ ٩ .

(١٢٧) انظـــر : Fuck - Arabiya (Paris 1955), p. 9 off.

(١٢٨) انظـــر : الدوري ــ بحث في نشأة علـــم التاريخ عند العرب . روز نثال ــ علـــم التاريخ عند المسلمين . جـــب ــ دراسات في حضارة الاســـلام ، مقال : التاريخ .

الأندلس في المغرب

عيسى الناعوري

في عام ١٩٦٧ ، وفي مؤتمر الدراسات الاسبانية / الاسلامية في قرطبة ، التقيتُ بالاستاذ المؤرخ والاديب المغربي عبد الله كَنّون ، وكان بيننا حديث على الاندلس ، وعلى روائع الفنون المعمارية والزخرفية فيه . وكنت اظن ان هذه الفنون قد جمدت على ما خَلّفه عرب الاندلس في اسبانيا . غير أن الاستاذ كنّون اكّد لي ان هذه الفنون لم تَجمُد ، بل هي تعيش الآن وتتطوّر في المغرب بازهى واحدث مما هي في الاندلس . ودهشتُ لذلك ، وحَسِبتُ انه من قبيل المفاخرة الوطنية .

ثم اتيح لي ان ازور المغرب عام ١٩٧٤ بحثًا عن اثر الفنون الاندلسية هناك : من طراز معماري ، ومن زخرفة ونقش ، ومن غناء وموسيقى ورقص . وقد قضيتُ في تلك الزيارة واحدًا وعشرين يوما ، وتجوَّلتُ في المدن الرئيسية : من طنجة غربًا ، الى وَجْدة شرقًا ، والى مراكش جنوبًا ، وبينهما زرتُ كذلك الرباط ، ومكناس ، وفاس ، وتطوان . وفي كل مدينة قضيتُ يومين او اكثر ، ازور القصور ، والمساجد ، والزوايا ، والمقابر ، والمدارس القديمة ، والاسوار والقصبات . وذهلتُ فعلا وانا اعيش جوَّ الاندلس من جديد ، ولكنْ بشكل احدث واكثر تطوّرًا واشدّ روعة .

كنت قبل زيارة المغرب أحسَبُ ان فنون الزخرفة الاندلسيّة قد دخلت الى الاندلس من المغرب ، مع الفتح الاسلامي الذي دخل من المغرب ، ولكنني تيقّنتُ بعد زيارة المغرب من ان هذه الفنون المدهشة انما دخلت الى الاندلس مع الأمويين ، الذين حملوها معهم من دمشق ، بعد أن كانت دمشق قد أخذتها عن القاشاني الفارسي ، وعن

البيزنطيين ، وطبعتها بطابَـع دمشقيّ خاص . ثـم تطوَّرَتْ في إسبانيا مع الأيام ، ولـم تدخل الى المغرب الا في عهـد المرابطين ، في القرن الحادي عشر الميـلادي ، الخامس الهجري ، بعـد أن ضَمَّ يوسف بـن تاشفين الاندلس الـى المغرب ، فاصبح البَلَدانِ بلـدًا واحدًا . وبذلك احتضن المغربُ الفنـونَ الاندلسيَّة منذ ذلك الحـين . وحين خرج العرب من الاندلس في القـرن الخامس عشر الميلادي هاربين الى بُلدان المغرب ، حملوا معهم فنونهـم ، وظلّوا يمارسونها هناك . ومـذ ذاك راحت تتطوَّر مـع الزمن الى يومنا هـذا .

والواقع أن الذي يريـد دراسة الفنون الاندلسيـة كلها ، ومنها الغناء ، والرقص ، والموسيقى ، لا بُـدَّ له من زيارة المغـرب ، والتجوّل في مختلف مُدنـه ؛ فالاندلس تعيش هنـاك بأجمل ما في فنونهـا الرفيعـة الخالـدة .

وفي مـا يلي أُدَوِّن ما شاهدتُه وأُعجِبْتُ بـه في عدد من اهمّ المـدن المغربيـة، مع شيء مما لا بـدّ منه من الربط التاريخي :

— ١ —
سَبْتَة وطَنجة

في الزاوية الشمالية الغربية من المملكة المغربية ومن القارة الافريقية ، وعلى شاطيء البحر المحيط والبحر المتوسط معا ، تقوم مدينة طنجة ، وعلى مسافة قريبة منها الى الشرق تقع مدينة سَبْتَة ايضا . وبين المدينتين العريقتين ينتصب شامخًا جبل موسى — نسبةً الى موسى بن نصير — ويقابله على العُدْوة الاسبانية ، شاهقًا متغطرسا ، جبل طارق . وكان هذان الجبلان والجبالُ العالية المتقابلة بينهما ، ومن حولهما ، تُدعى باسم (اعمدة هرقل) . وهي تتقابل متمرِّدةً على جانبَي ما كان يُدعى من قَبْلُ (بحر الزقاق) او (بحر المجاز) ، ويُدعَى اليوم (مضيق جبل طارق) . وانما كانت تسميته بالزقاق او المجاز لضيقه ، فهو ضَيّقٌ صغير ، لا تزيد ابعدُ مسافة فيه بين العدوتين عن ثلاثة عشر كيلو مترا .

اما تسمية الجبال المتقابلة الجبّارة باسم (اعمدة هرقل) فلها اسطورة قديمة، تقول إنَّ الارض كانت مُتّصلة بين المغرب واسبانيا ، وكانت تَفصِل بين مياه الاطلنطي والمتوسّط . ثم تَزَوَّجَ هرقل ، وجاء بزوجته الى طنجة . ولئلاّ يتمكّن احدٌ من الوصول اليها وسَلْبِه اياها ، شَقَّ الارض بين القارّتين ، وانشأ بينهما الزقاق المائي ، واصِلاً الماءَ بالماء ، واقام الجبال الشاهقة حارسة على طرفي الماء ؛ فدُعِيَت هذه الجبالُ الماردة بأسم (اعمدة هرقل) .

وفي طنجة مغارة هائلة على البحر تُدعى (مغارة هرقل) حَفَرَتْها امواجُ البحر القويّة التي ظلّت تضرب أطراف الجبال قرونا لا حصر لها .

ويقف المرء على شاطيء طنجة وسبتة ، فيرى البواخر والقوارب تَمخَر البحر غاديةً رائحة بين هاتين المدينتين ومُدُن (قادس ، وطريف ، والجزيرة الخضراء ، وجبل طارق ، ومالقة) على العُدْوة الاسبانية . وحين يقف على سفح جبل موسى ، بين سبتة وطنجة ، وينظر الى

الشمال عبر بحـــر الزقاق ، يُروعُه شموخُ صخرة جبـــل طارق ، كأنما أنشقَّ عنها البحـــر ، فتمرَّدت شامخةً فـــوق تيجانِ الغيوم المتصاعدة مـــن البحـــر .

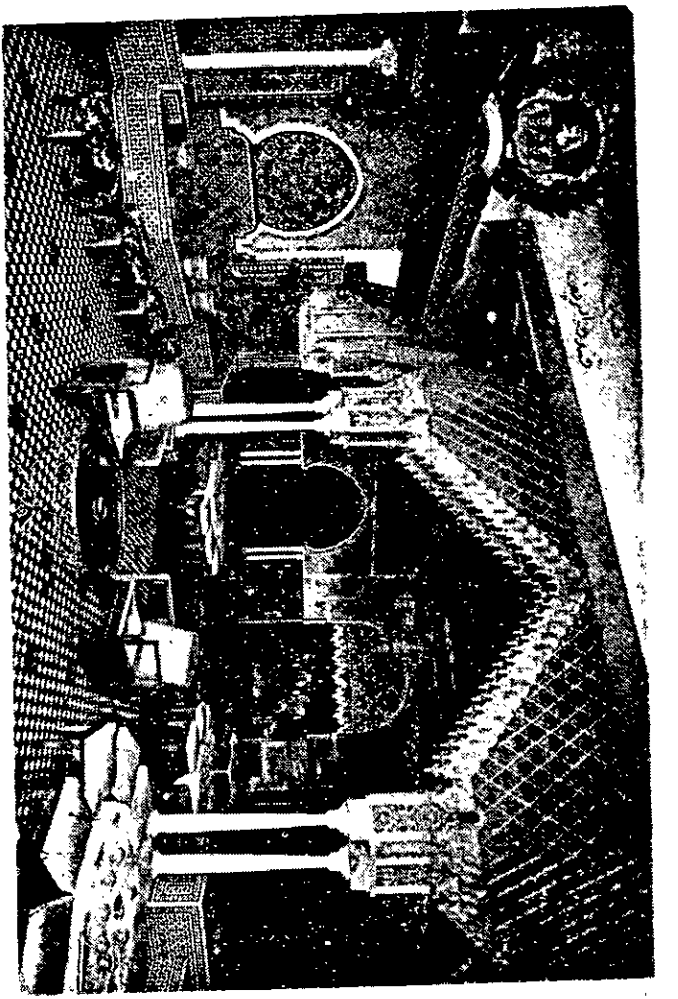

داخل فندق الريف في طنجة

من هذه البقعـــة انطلقت جيوش الفتح العربـــي الاسلامي لفتح بـــلاد اسبانيا ، مبتدئةً عـــام ٩١ هـ. ، ٧٠٩ م. وكانت هذه البقعة قبـــل الفتح الاســـلامي للمغرب وخلال مُـــدَّةٍ من بدايته ، ذاتُ صلة متينة باسبانيا ؛ فقد كانـــت سبتة في عهد عقبة بـــن نافع ، ثم موسى بـــن

نصير من بعده ، في أيدي الاسبان ، وكان يحكمها يوليان ، الذي تعاون مع العرب على غزو اسبانيا لانقاذها من حكم عَدُوّه لذريق ، ومهّدَ لهم السبيل لفتحها ؛ وسبتةُ اليوم يحكمها الاسبان ، وكانوا الى عام ١٩٥٦ يحكمون الشمال المغربيَّ كلَّه ، وجزءًا من الشاطىء الغربي ، في حين كان الفرنسيون يحكمون بقيَّة المغرب .

وظلَّت سبتة وطنجة مَعْبَرًا طبيعيًّا بين المغرب والاندلس ، مثلما هما اليوم المَعْبَرُ بين البلدين : منهما عَبَرت سرايا طريف بن مالك ، للاستكشاف أولا ، عام ٩١ هـ. وعادت بالغنائم الوفيرة ، وببشائر سهولة الفتح . ثم عَبَرت بعدها جيوش طارق بن زياد سنة ٩٢ هـ. وتوغّلت في الجنوب الاسباني والغرب ؛ ثم تلتها جيوش موسى بن نصير سنة ٩٣ هـ. لاستكمال فتح اسبانيا والبرتغال وجنوب فرنسا .

ومن هذه البقعة أيضا كان الأمويّون يدخلون احيانا من الاندلس الى المغرب ، لمنع المغاربة من التدخّل في شؤون الأندلس . ثُمَّ من هذه البقعة عينها دخَلَتْ فيما بعد جيوش المرابطين ، بقيادة يوسف بن تاشفين ، مَرَّتَين : مرةً لانقاذ إمارات الطوائف من غارات الجيوش الاسبانية ، والمرّةُ الثانية لاحتلال الاندلس برمّتها وضَمِّها الى المغرب . ومن هناك عادت الصلة التامّةُ بين المغرب والأندلس ، واصبحت هذه جُزءًا من المغرب ، ودخَلَت فنونُ الاندلس الى المغرب ، واتّصلَت الحضارة بين البلدين فصارت واحدة . واستفاد المغرب من ذلك فائدة عظيمة ، فقد كانت الأندلس متقدّمةً عليه من حيث العلم والثقافة ، وكان هو متقدّمًا عليها في القوة والسلاح ، « فكان هو يبذل للاندلس حمايته — كما يقول الاستاذ عبد الله كنّون في الجزء الاول من كتابه (النبوغ المغربي) — والاندلس تبذل له ثقافتها ومعارفها » (١) . وحين استولى يوسف بن تاشفين على الاندلس ، حمل ملكُ إشبيلية ، المعتمدُ بن عبّاد ، أسيرا مكبّلاً بالقيود الى طنجة ، ومنها الى فاس ، ثم الى أغمات — في الجنوب المغربي ، قرب مراكش — حيث مات سجينا ذليلا .

---

(١) النبوغ المغربي ، لعبد الله كنون ، ص ٧١ ، الجزء الاول — الطبعة الثانية .

لقد تأثّرت طنجة ، مثلما تأثّر المغرب كلّه ، بحضارة الاندلس ، وظلّ هذا الاثر الى يومنا هذا بارزا في العناية البالغة بالهندسة المعمارية ، والزخارف والنقوش الاندلسية ، والمُقَرْبَصات الرائعة البارزة في الجبص وفي الخشب — والمقربصات تعني (النقوش المجسّمة النافرة) وهي مأخوذة من الكلمة اللاتينية (CORPUS) التي تُعني (الجسم) ؛ ويُخطىءُ من يدعوها (المقرنسات) أو (المقرنصات) ، فهي كلّها مُجسّمات نافرة .

وتعتمد الزخارف الاندلسية على قطع الزِّلّيج الخزفية الصغيرة ، ذات الالوان الجميلة الزاهية ، ولا سيما اللون الازرق واللون الاخضر ، وذات الاشكال البارعة الصِناعة ، كأوراق الشجر حينًا ، او باشكال مربّعةٍ او مثلّثةٍ احيانا اخرى . وهي تُلْصَق إلصاقًا على الجدران ، وتُصْنَع منها صُوَرٌ واشكالٌ فنّية غاية في الجمال والرهافة والدقّة . وقد تُغطّى بها الجدران بأكملها ، او قد يُغطّى جزءٌ من الجدران الى عُلُوٍّ معين .

وحين تَجتمع هذه الزخارف الخزفيّة الى المُقَرْبَصات البارزة في السقوف الجبصيّة ، أو في الخشب ، ورفوف الابواب الدقيقة الصناعة ، تبدو فِتنةً للنظر وبَهجةً للقلب .

هذا الطراز من الزخارف الزِّلّيجية والمقربصات الجميلة ما يزال الاسبانُ الى اليوم يحافظون عليه في متاحفهم ، وقصورهم ، وبيوتهم ؛ غير ان الحفاظ عليه في المغرب اشدُّ واعظم ، واكثرُ اتّساعا : فقصورُ المغرب كلّها ، ومَساجِدُهُ ، وفنادقه ، والكثيرُ من بيوته ، هي قطع روائع من الفنّ الاندلسي الساحر .

في طنجة ذهبتُ لزيارة الصديق عبد الله كنّون في منزله في القصبة — وهي مدينة طنجة التاريخية القديمة — فراعني ما شاهدتُ في المنزل من جمال النقوش والزخارف الأندلسية : من مدخل الدار ، الى بَهْوها السفلي ، الى السُلّم الصاعدة الى الطابق الثاني ، الى ما رأيته من غرف المنزل ، وطراز اثاثها . كلُّ شيء فيه اندلسي ،

حتى طراز الفـــراش ، والستائر ، والمقاعـــد الممدودة على الارض ، او المرتفعة علـــى مساطب مفروشـــة .

ومثل منزل عبد اللـــه كنّون ، بل اكثر زخرفة ، كـــان كذلك الفندق المعروف باســـم (فندق الريف) ، ففي قاعاته آيـــاتٌ باهراتٌ من هذه النقوش والزخـــارف الاندلسية .

وتنتقل من هنـــاك لتتجوَّلَ في (القصبة) المطِلّـــةِ على البحر ، والمحاطةِ بالاســـوار العالية ، فتتخيَّلُ انك في احـــدى قصبات الاندلس ؛ والقصبةُ كانت مِن قبلُ مَقـــرَّ الحاكم ، وفيها دوائر الدولـــة ، وثكنات الجيش . وفي طنجة مـــا تزال القصبة يبدو عليها القـــدم ، في البيوت ، والشوارع ، الا مـــن بعض الأبنية الحديثة التي تكـــاد لا تبدو فيها . واسوارُها شبيهة باســـوارٍ كثيرة ما تزالُ قائمة في العديد من المـــدن الاندلسية . الطراز واحـــد ، والنتوآت المدبَّبَة في اعلـــى الاسوار والأبراج واحدة . ولا عجب فـــي ذلك ، فقد تعاقب على حُكْـــم الاندلس من المغاربة ــ من القـــرن الحادي عشر الميلادي الـــى اواخر القرن الخامس عشر ــ المرابطون ، والموحِّدون ، والمَرينيّون ، الذيـــن في اواخر عهدهم خرج العرب نهائيًّا من الاندلس . وكلُّ هؤلاء تركوا آثـــارا متشابهة في الأندلس والمغـــرب معًا ، وكلُّهم شيَّدوا القلاع والحصـــون والقصبات والقصور ، وبنـــوا المساجد والاسوار ، واسّســـوا المدارس في عُدْوَتَي بحـــر الزقاق . وكثيرٌ من هذه الآثار مـــا يزال قائما الى اليوم علـــى الأرض المغربيّـــة والأرض الاسبانيّـــة .

واما الغناء الاندلســـي والموسيقى فما يزالان يعيشـــان كذلك في طنجة ، وفي المغرب برمّتـــه.والمغاربة يدعونه باسمـــه الحقيقي : (الغناء الاندلسي ، في حـــين يدعوه التونسيون والليبيون باســـم آخر ، هو (المـــالوف) . والمغاربة يقيمون حفلات الغنـــاء الأندلسي باستمرار في كلّ مكان من الارض المغربيـــة ، باعتباره فنًّـــا لهم فيه حِصَّة ، ولهم في بقائه نصيب ؛ فهـــو لذلك بعضٌ من التراث الشعبي المغربـــي .

- ٢ -

الربـــاط

من طنجة ننحدر ــ مع الخريطـة الجغرافية ، لا مـع التاريخ ــ جنوبا ، لنصل الى مدينة الربـاط ، عاصمة المملكة المغربيـة اليوم ، وجارة مدينة (سـلا) على شاطىء الاطلنطي ، لا يفصـل بينهما غير نهر

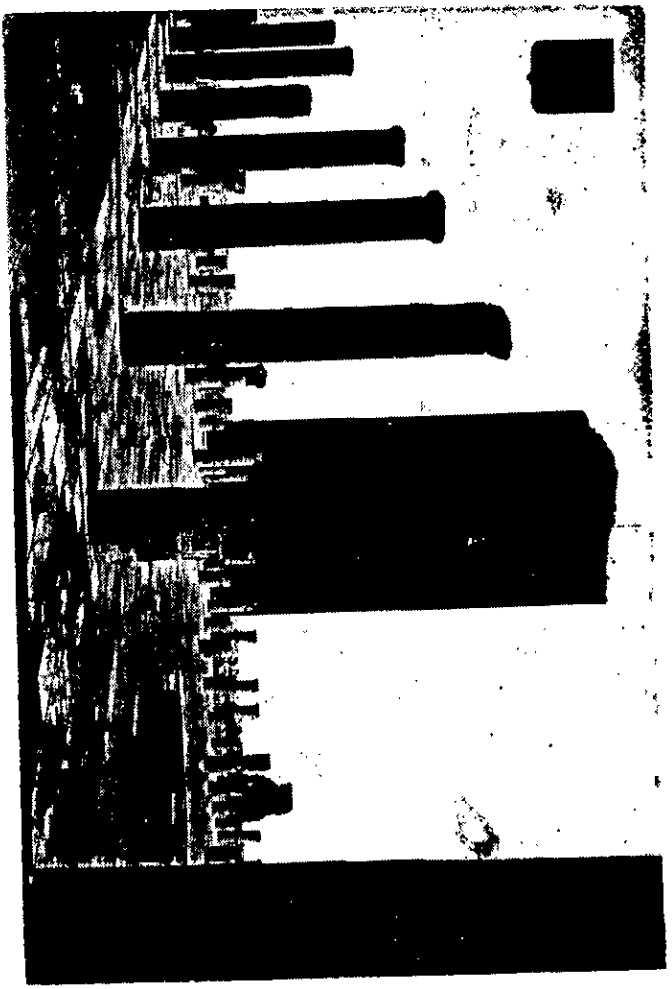

مئذنة حسان في الرباط

ضحل الميـاه ، قليل العرض ، هو نهـر (بورقراق) . وفي (سلا) تُوفّيَ الملك عبـد المؤمن ، اول ملوك الموحّديـن .

وقبل ان ابـدا الحديث على الرباط ، أرى ان اذكـر أن جارتها (سـلا) مدينةٌ اندلسية،بمعنى انَّ سُكّانهـا من اصل اندلسي ، نزحوا من الاندلس فعمروها ، واقامـوا يمارسون فيها اساليب حياتهـم ، وعاداتهم وتقاليدهم ، وصناعاتهـم الاندلسية ، مثلما فعـل إخوانٌ لهم خرجوا من الاندلس ، وانشـأوا مدينة تطوان ، وبعض المـدن المغربية الاخرى ؛ وكانت سـلا من قبل مدينة رومانية عريقة . فهي من المـدن المغربيـة القديمـة .

ولكنّني لـن اقفَ طويلا عند مدينة سـلا ، وقد زُرْتها وتجوَّلْتُ فيها ، فلم اجـد فيها من مظاهر الفنـون الأُندلسية الا القليل الذي لا يستحقّ الوقوف عندهُ بالنسبة الى ما شاهَدْتُه في المـدن الاخرى الكبيرة.

واما مدينة الرباط ، او « رباط الفتح » ، كما كـان اسمها ، فتزخر بالكثير جـدًّا من مظاهر الفنون الأندلسية بشكـل يسترعي النظـر ، ويستوقف الزائـر للتأمل والاعجاب .

هذه المدينة بناهـا سلطان الموحّدين الأشهـر يعقوب المنصور ، سنة ١١٩٨ م. ٥٩٣ هـ. وانشأ فيها مسجد حَسَّان وصومَعَته ـ مئذنته ـ اخت مئذنة (الكُتَبِيَّة) فـي مراكش ، ومئذنةِ (الخيرالـدا) في اشبيلية ، بالاندلس ، وكُلّها مـن اعماله الخالدة . واما مسجد حسّان فقد دُرِس ، ولم يبق منه اليـوم غير انصافِ أعمدةٍ مزروعة فـي الارض ، يقوم بينها جزءٌ من المئذنـة يَستدعي الاشفاق حين يتذكَّرُ المـرءُ ان شقيقتَيها في مراكش واشبيلية لا تـزالان قائمتين تتحدّيان الزمان . ويُقـال ان المئذنة لم تكمل ، مثلمـا كملت شقيقتاهـا .

وفي الطرف الغربي مـن المدينة تقوم (قصبـة الاوداية) ؛ وهي اختٌ لقصبات عديدة مثلها في الطراز ، باقيـةٍ الى اليوم في الأندلس ، تشابهها في البنـاء الداخلي ، وفي الأسوار ، وفي كـلّ شيء . وكان قد انشأها ملك الموحّديـن الأوّل عبد المؤمن بـن علي سنة ١١٥٠ م. وهي اصل مدينـة الرباط .

وفي جهة اخرى من المدينة تقوم بقايا مدينةٍ رومانية تُدعى (شيلا) ، وقد اتّخذها ملوك المَرينيّين مَقبرةً لهم ، واحاطوها باسوار عالية ، واقاموا فيها مسجدا ومئذنة . وكلّها ما تزال قائمة هناك الى اليوم .

ولم تصبح الرباط عاصمة للمغرب الاّ في عهد الاسرة العَلَويّة التي تحكم المغرب منذ زمن مولاي رشيد ، في القرن السابع عشر الميلادي ـ وكانت في اول عهدهم مَقرًّا مؤقتا لملوكهم ، ثم تحوَّلت الى عاصمة رسمية لهم في زمن الملك يوسف ، والد الملك محمد الخامس ، وَجَدِّ الملك الحسن الثاني . وكانت عاصمتُهم من قَبلُ هي مدينة فاس ، او مدينة مراكش . وقبل ذلك كانت مدنٌ اخرى عواصم للمغرب ، فالعاصمة هي (وليلي) مَرّة ، وحينًا مراكش ، وحينًا آخر مكناس ، او فاس . واحيانا كانت المدينةُ الواحدة تتحوَّل مِرارًا الى عاصمة ، مثل مدينة فاس ، ومدينة مراكش .

ولقد تَقلَّبَتْ على المغرب كلِّه حكوماتٌ متعددة : مِن عهد إدريس الأول ، حفيد الرسول ، الذي لجأ الى المغرب في القرن الثامن للميلادي ، هربًا من بطش هٰرون الرشيد ووزيره جعفر البرمكي ، وأسَّسَ هناك الدولة الادريسيّة ، اول مملكة مغربية اسلامية ، وقد استمر حكمها نحو قرنين من الزمن . ثم قامت الدولة الفاطمية ، فدولة المرابطين ، فالموحدين ، فالمَرينيين ، فالوَطّاسيين ، فالسعديين ، واخيرا الدولة العلوية الحاكمة الى اليوم . وعَرَفَ المغربُ الحكم الاجنبي فترة من تاريخه الحديث ، وكان حُكمًا استعماريًّا مزدوجا : فهو اسبانيّ في الشمال والغرب ، وفرنسيّ في الوسط كلّه ، الى ان جلا الاستعمار المزدوج في عهد الملك محمد الخامس ، ثم في عهد ابنه الحسن الثاني ، ملك المغرب اليوم . ولم يبقَ من المغرب في ايدي الاسبان غير مدينتي سبتة ومليليا ، في الشمال المغربي ، على ساحل البحر المتوسط ، وذلك بعد ان خرج الاسبان اخيرا من الصحراء المغربية ، على الساحل الجنوبي الغربي .

وكان المرابطون ، ومِـن بَعْدهم الموحِّدون ، ثـم المَرينيّون قد حكموا الاندلس ، وجعلوا منها جـزءاً من دولة المغرب . وفي اواخـر العهد المرينيّ وبدايةِ العهـد الوَطّاسي خَرَجَ العرب مِـن الاندلس ، فكان من الطَبَعيّ جـدًّا ان يلجاوا الى الشمال الافريقـي ، ويُنشئوا فيه مُدنـًا وقرى ، كان منها فـي الشمال تِلمسان وتَطوان ، وفي الوسط سـلا — وتلمسان اليوم مـن الجزائر — .

هـذا من الجانب التاريخي الذي يربط بين المغـرب والأندلس ، ومن حيث الآثـار العديدة الباقية اليوم في مدينـة الرباط ، مِمّا له أشباهٌ كثيرة فـي الاندلس .

امّـا الطراز الاندلسي في البنـاء والزخرفة ، فان في الرباط منه الكثير ممّا يُدهش النظـر ويُبهج النفس . وانـت حين تصل الى مئذنة حسّان ، تجد الـى جانبها ، وعند طَرَف الأعمـدة الباقية من جامع حسّان ، بنـاءً من افخم الابنية وابهاها ، هـو ضريح الملك محمـد الخامس ، والـى جانبه مسجد محمـد الخامس كذلك . والبناآن آيتان من آيات الصناعة الاندلسيـة الحيّة المتطورة في المغـرب ؛ وأدعاهما الى الدهشة والانبهـار بجمال صناعته الاندلسية هـو الضريح ذو الطابقين ، بِقُبَّته العالية المذهبة ، وجدرانه التي تَفَنَّنَ فيها الصُنّاع حتى لم يَبْقَ بعد فَنِّهم فـنٌّ في زخارف الزِلّيج والمقربصات الرائعـة . وانت تقف تحت قُبَّتِـه ، وتحتار في تلك الصناعة العجيبة التي لـم تُعْرِف عصورُ الاندلس لهـا مثيلا ، حتى في قصر الحمراء ، وقصر جَنَّـة العريف ، وجامع قُرطبة ، وقصر اشبيليـة — وكلُّها من عجائب الدنيـا في جمال الصناعة الزخرفيـة والهندسية الاندلسيـة — .

والجديد في ضريح محمـد الخامس هو إدخال الذهب فـي الطراز الاندلسي بأشكال لـم تعرفها زخارف الاندلس مـن قبل ، وبكثرة تَخْلب النظر ؛ وكذلك التفَنُّن فـي الأشكال الزخرفية الأخرى غـير المألوفة كذلك . وتُحِسُّ وانـت في داخل الضريح ، ثُـمَّ في المسجد مِن بَعده ، بأنك تودُّ لو تُطيل البقـاء ، مستمتعًا بروعة الصناعة وجمال الفـن .

وتستعيد في خيالك كـلَّ تصور الاندلس ومساجدهـا ومآذنها ، فتحسُّ بعظمة الأندلسيين الذيـن خَلَقوا هذه الفنون المدهشة : من دِقَّـة القِطَع الزلّيجية الصغيرة ، ورهافـة الفن في ترصيعها ، وجمـال النقوش المصنوعة منها ، ومن رهافـة المقربصات الجبصية والخشبيـة التي خَلَقَتْها عبقريّةُ الفنـان الأندلسي . ثم يأخذك العجب مـن بقاء هذه الصناعة العجيبة مزدهـرة ، ومن تَطَوُّرها وتحديثها في مـدن المغرب كلّها الى اليـوم ، وحفاظ المغرب على ان تظـلَّ الاندلسُ حَيَّةً فيه ، لا يمحو جمالهـا الزمان ، بهندستها المعماريـة ، وزخارفها ونقوشها ومقربصاتها ، وكذلـك بموسيقاها ، وغنائها ورقصهـا .

وتَخْرُج من الضريح والجامـع لتتجوَّل في انحاء مدينة الربـاط ، فتدهشك القصور الملكيـة ، بزلّيجها الأخضر الجميل فـي السطوح ، وفي الجدران الخارجية ، وفـي ظِلَلِ الحدائق الفسيحة : قصر المَشْـوَر ، وقصر السلام ، والقصر القديـم الذي بناه محمد بن عبد اللـه العلوي . وهذه القصور الملكيّة تُحَـفٌ روائع من الصناعة الأندلسية الطـراز ، تَفَنَّنَ فيها الصُنَّـاع المغاربةُ فابدعوا غايـة الابداع .

ثُـمَّ تمضي الى جامع السُنَّة ، وجامـع مولاي يوسف ، وهمـا متقاربان في المكـان ، فتقف متأمِّلاً جمال الزلّيج الاخضر الـذي يُغطّي سطوحهما . وتمضي الـى الداخل ، فتُدهِشُك البساطـة الأنيقة في رهافة الصناعـة الاندلسية ــ وللبساطة جمالُها ايضـا متى كانت من صُنع يَـدٍ فنّانةٍ بارعة ــ .

ولا يقتصر الطـراز الأندلسي على الجوامع والقصور ، بـل تَجِدُه كذلك في بعض الفنـادق ، وأَخُصُّ بالذكر (فندق حسّـان) ، في وسط المدينة ؛ وهو تحفة فنيـة رائعة من الداخل ، بجمـال الصناعة الزخرفية الاندلسية ، التـي تستريح اليها النفس ، ويستريح النظـر .

- ٣ -

مـــراكش

ونمضي مع خريطة المغـــرب انحدارا الى الجنوب ، حتـــى نصل الى مراكش ، مدينـــة النخيل ، او المدينة الحمراء ، كمـــا تُدْعَى احيانا .

مئذنـــة الكُتُبيّة فـــي مراكش

وهي تُدعَى كذلك لانّ لـــون بيوتها الخارجي احمر ، بعكس مـــدن المغرب الأُخرى وقراه ، وكلُّهـــا تقريبًا مطليَّةٌ من الخـــارج باللون الابيض ـــ

ومثلُها كذلك الجزائر وتونس وليبيا ــ وتكثُر في المدينة ومن حولها اشجارُ النخيل الجميلة . وبيوتُها صغيرة وقليلة الطوابق .

هذه المدينة بناها أميرُ المرابطين يوسف بن تاشفين سنة ٤٥٤ هـ. ١٠٦٢ م. واتّخذها عاصمةً لدولته بَدلاً من العاصمة فاس . ومنْ بَعْدُ ظلّت مراكش عاصمةً للموحّدين ، ثم كانت عاصمةً كذلك للسعديين في القرن السادس عشر للميلاد ، العاشر للهجرة . واتّخذها ملوك العلويين الأولون كذلك عاصمةً لهم ، الى ان انتقلت العاصمة الى الرباط في عهد مولاي يوسف ، والد محمد الخامس ، وَجَدّ الحسن الثاني . وقد تَرَكَتْ كلُّ واحدة من هذه الدول المغربية آثارا من آثارها في هذه المدينة العريقة .

وجدير بالذكر انَّ معظم أعلام الفلسفة والطبّ من الاندلسيين ، من عهد المرابطين الى اواخر عهد المرينيين خاصة ، قد انتقلوا من الاندلس ليقيموا في مراكش او فاس ، في رعاية ملوك هذه الدول الثلاث وامرائها . وفي ذلك يقول عبد الله كنّون في كتابه (النبوغ المغربي) : « فابو بكر بن باجة ، المعروف بابن الصايغ ، والفيلسوف والطبيب والموسيقي ، هو ممن أظلّتهم دولةُ المرابطين ، وخَدَمَ رجالها بعلمه وفنه ؛ وابو الوليد ابن رشد ، وابو بكر ابن طُفَيل ، وابناء زهر ، هُم ممَّن نبغوا في اعقاب عصر المرابطين ، وانتشرت معارفهم في العصر الموحّدي الذي يليه . واعلامُ الفقه والتصوف ، مثل ابن رشد الكبير ، وابي بكر ابن العربي ، وابن عربي الحاتمي ، وابن سبعين ، هم من رجال عصر المرابطين او عصر الموحّدين » (١) .

وفي مراكش ضريح بسيط متواضع ليوسف بن تاشفين ، على مقربة من جامع الكتبية ، أُقيمَ في عهد الملك محمد الخامس فقط ، في حين يقوم ضريح خصمه واسيره الشاعر الاشبيلي المعتمد بن عبّاد غيرَ بعيد عنه ، في أَغمات ، في فخامةٍ لا يعرفها ضريح ابن تاشفين .

---

(١) النبوغ المغربي ، لعبد الله كنون ، الجزء الاول ، ص ٦٦/٦٧ .

وكانت اغمات عاصمةَ المرابطين قبل ان يبني يوسف بن تاشفين مدينة مراكش .

وجدير بنا ان نشير ههنا الى ان ابن تاشفين كان قد دخل الى الاندلس بجيوشه مَرَّتين في القرن الحادي عشر الميلادي ، الخامس الهجري ؛ الأولى لصد غارات الجيوش الاسبانية عن ممالك الاندلس ، ولا سيّما عن مملكة اشبيلية التي كان يحكمها المعتمد بن عبّاد ، والثانية بَعْدَها بقليل ، لكي يَضُمَّ الاندلس الى المغرب ، ويبسط سلطانه على العُدْوَتين . وفي هذه المرة الثانية ساقَ المعتمدَ مكبَّلاً بالقيود الى طنجة ، ومنها الى فاس ، ثم الى اغمات ، حيث مات المعتمد في ذلّة الاسر ، وخَلَّف لزوجته وبناته مذلّةَ التشرّد والفاقة . ثم ماتت زوجته ودُفِنَت الى جانبه .

ويتألف مبنى ضريح ابن عبّاد من مدخل ، تقوم الى يساره غرفةٌ فيها سِجِلٌّ للزائرين . ويُفضي المدخل الى باحةٍ مكشوفة ، ثم الى غرفة فيها قبرُ ابن عبّاد وقبرُ زوجته الى جانبه . وعلى الجدار الأيمن والجدار الأيسر أبياتٌ نظمها الشاعر الوزير لسان الدين ابن الخطيب حين زار قبر المعتمد . وهذه ابيات منها :

قبرَ الغريبِ ، سَقاك الرائحُ الغادي حقّاً ظَفِرتَ باشلاءِ ابنِ عَبّادِ
كفاك ، فارْفُقْ بما استُودِعْتَ من كَرَمٍ رَوّاكَ كلُّ قَطوبِ البَرقِ رَعّادِ
ولا تَزَلْ صلواتُ اللهِ دائمةً على دَفينِك، لا تُحصَى بِتَعدادِ

وكان ابنُ الخطيب قد رثى ابن عبّاد بابياتٍ اخرى حينما وقف على قبره ، فقال :

قد زرتُ قبرَك عن طوعٍ بأغماتٍ رأيتُ ذلك من اولى المهمّاتِ
لِمْ لا أزورُك يا أنْدَى الملوكِ يدًا ويا سِراجَ الليالي المدلَهِمّاتِ؟
وانتَ مَن لَو تَخَطّى الدهرُ مَصْرَعَهُ الى زماني،لجادتْ فيه ابياتي

لكأنما شاءت الأقدارُ ان تُقارِبَ بين ضريح السلطان الغالب ، والملك الشاعر المغلوب ، الذي كان له من دنياه السلطان والشعر

معًا ، تَخَلَّدَ بالشعر ، وظلَّ اغرودةً في فم الزمان ، وظلَّ قبرُه محجَّةً للزوّار ممَّن يَعشقون الفنّ والشعر . وبجمْع الضريحين المتقاربين ، اجتمعَ المغربُ والأندلسُ اجتماعا ابديًّا ، كان الضريحان رمزًا خالدًا له وعنوانا .

المدرسة اليوسفية في مراكش

والى جانب ذلك يجتمع المغرب والاندلس في آثار اخرى باقية في مراكش ، لَعَلَّ اهمَّها جامعُ الكتبيّة ومئذنتُه ــ او صومعته ــ اخت مئذنة اشبيلية الشهيرة باسم (الخيرالدا) ، ومئذنة حسّان في الرباط .

تمتاز مئذنة الكتبية ومئذنتا الخيرالدا وحسّان ، بأنّ السعود اليها ليس على سلالم ، بل في طريق عريضة مُتلَوّية ، تنتهي كلّ دَورة منها بِشُرَفات من جميع الجوانب ، تُطِلُّ على المدينة ؛ حتى اذا بلغ الصاعدُ اعلى المئذنة ، واطلّ من شرفاتها ، انبسطت تحتَ عينيه المدينةُ كلُّها كما تنبسط راحة اليد . ويُقال إن المنصورَ قد أراد من بنائها بهذا الشكل أن يكون في وُسعه الصعودُ الى أعلى المئذنة على صَهوة جواده . هذه المِيْزَةُ هي اهمُّ ما يجمع بين المآذن الثلاث . واما احجامها فمختلفات : فالخيرالدا يبلغ عُلوُّها اكثرَ من خمسة وسبعين مترا ، وعلوُّ الكتبية اثنان وستّون مترا ، ولا ادري كم كان ارتفاع مئذنة حسان ، في الرباط ، فهي الآن بُقيَّةُ مئذنة فقط ؛ اما من حيث الشكل الخارجيّ فان الخيرالدا ، في اشبيلية ، تُحفَةٌ رائعة من آيات الفنّ المعماري ، لا تضاهيها في ذلك مئذنة الكتبية . وقد أقيمت هذه المآذن الثلاث في القرن الثاني عشر الميلادي ، السادس الهجري .

وليس في وسعي ان أُطيلَ الحديث على سائر الآثار المراكشية ، فهي كثيرة جدًّا ، وكلُّها جدير بوقفات طوال مُشْبِعات . غير انني اكتفي بذكرها فقط ، ومنها : مقابرُ السعديّين ، وفي وسطها قبرُ احمد المنصور الذهبي ، اعظم ملوك السعديين وابعدُهم شهرة ، وهي من القرن السادس عشر ، وفيها الكثير من اثر الصناعة الاندلسية . وهناك قصر (دار الهناء) وحدائقُ الأُوكدال الفسيحة الواسعة الارجاء ، وقد انشاها الملك محمد بن عبد الله العَلَويّ . وفي هذه الحدائق غابات من شجر الزيتون ، وبِرْكَتان كبيرتان هائلتا الاتساع ، في وسط إحداهما مكانٌ لجلوس جوقةٍ موسيقية وغنائية ؛ فهي بذلك شبيهة بِبِرْكة القيروان في تونس . وهنالك ايضا قصرُ البديع ، الذي بناه احمد المنصور الذهبي ، من ملوك السعديين ، في القرن السادس عشر .

واما اقدمُ اثر مغربي يبدو فيه الطابع الاندلسي ، في المغرب كلّه ، فهو المدرسة اليوسفيّة ، في مراكش ؛ وكان قد بناها الامير عليّ بن يوسف بن تاشفين ، ودعاها باسم ابيه . وكل ما في هذه

المدرسة اندلسيُّ الطراز ، سواءً في هندسة البنـاء ، ام في المُقَرْبَصات الخشبيّة السوداء ؛ وهـذه اوّلُ مدرسة اندلسية الطـراز شاهدتُها في حياتي ، ولم أرَ من قبـلُ مثلها في الاندلس . امـا المغرب فتكثر فيه

مقبـرة السعديين فـي مراكش

هذه المدارس ، وكثير منها مما انشاه الملك ابو عنان المَرينـي ، وتُدعَى مدارسه كلها باسمـه : (المدرسة البوعنانيّة) . وقـد شاهدتُ من المدارس البوعنانية ثلاثـا : في سلا ، وفاس ، ومكناس ؛ وهـي وسواها من المدارس القديمـة متشابهةٌ في طرازها ، وغُرَفُ الطـلّاب فيها اشبه

بالرنزانات ، وكُلُّها تُطِلُّ على بهو اوسط مفتوح ، وتقوم في الطابق الثاني من المدرسة .

واما الزخارفُ الاندلسيَّةُ المدهشة فيجدها الزائر في قصر (الجلاوي باشا)، المهجور الآن، بكلِّ ما كان فيه من اثاث ورياش فاخرة ، كلُّ اقمشتها من الدِمَقْس الحُرّ . وكذلك في (قصر الباهية) ذي الحدائق الأنيقة، بطرازها الاندلسيّ الجميل الممتع . في هذين القصرين يعود المرء بخياله الى الاندلس ، ويعيش في جوٍّ اندلسيّ صرف ، ولكنّه جوٌّ اندلسي حديث متجدد .

— ٤ —

مدينة فاس

يا فاسُ، يا جَنَّةَ الآمال باسمةً وجنّةَ المغرب الأقصى لِما رَحُبا
ما زال جامِعُكِ المعمور مُفخرةً للضاد ، طَوَّقَ طَوْقَ المِنَّةِ الحِقَبا

(محمد الجبوري)

وتنطلق من مراكش مصعّدًا في الأطلس الأوسط نحو الشمال ، حتى تصلَ الى مدينتين عريقتين ، هما مكناس وفاس . ولكليهما تاريخ طويل مجيد من تاريخ المغرب السياسيّ والفكريّ ، وَصِلاتٌ متينة بالأندلس وعرب الأندلس في القديم ، وبفنون الأندلس في العصر الحاضر .

ولستُ اقف طويلا عند مدينة مكناس ، بل ، اكتفي منها بذكر القليل من آثارها الباقية ، واهمُّها : قصر اسماعيل بن علي بن الشريف ، راس الأُسرة العلوية ، ومَسجِدُه الأندلسيّ الطراز ، ذو الألوان الجميلة الشبيهة بالوان قصر إشبيلية ؛ وكذلك المدرسةُ البوعنانية ؛ وهي احدى المدارس التي انشاها ابو عنان ابن ابي الحسن المَرِينيّ . ويضاف اليها قصرُ الجامعيّ ، الاندلسيُّ الجميل .

وأمّا مدينة فاس فيرجع تاريخ بنائها الى الملك ادريس الثاني ، ابن الامام ادريس الاول ؛ فهو الذي وضع حجر الاساس للمدينة في غرّة

ربيع الاول عـــام ١٩٢ هـ. ، الرابع من يناير ٨٠٨ م. ثـــم نَقَل اليها عاصمة ملكه من مدينـــة (وليلى) أو (فولوبوليس) التـــي كانت عاصمة ابيـــه . وسَرعان ما توافد عليه العـــرب من إفريقية (تونس) ومن الأندلس : فجاءه خمسمئة فـــارس من افريقية ، ومئـــات من الاسر

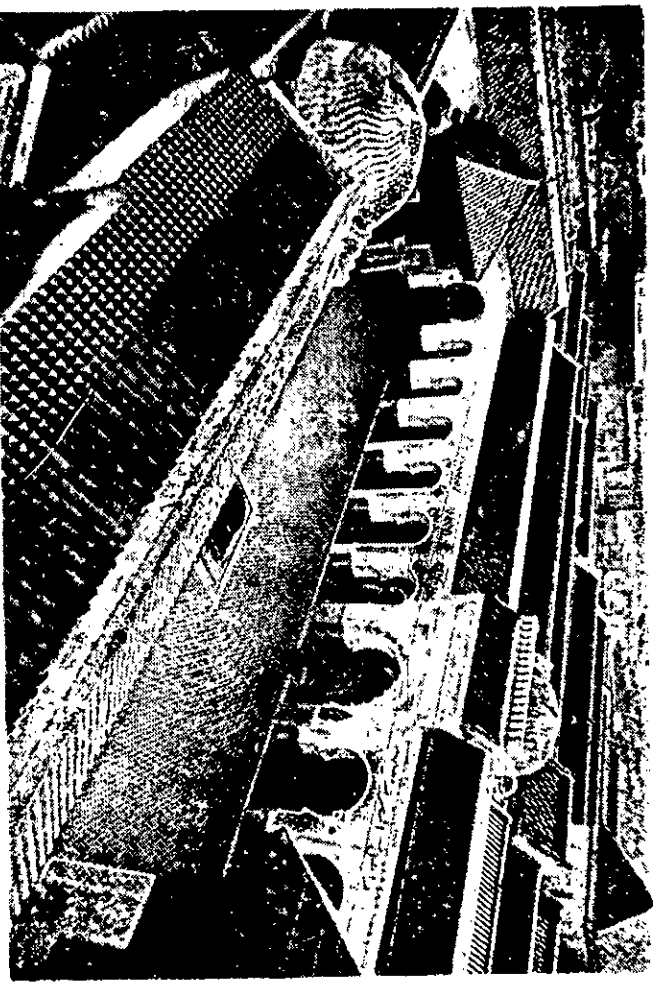

صحن جامع القرويين في فاس ويبدو سقوفه الزلّيجيّة

الأندلسية . فَجَعل المدينـــة قسمين ، دعا احدهما (عـــدوة الأندلس) ـــ وهي القسم الشرقيّ من المدينة ـــ وأنزَل فيـــه الأُسَر القادمة مـــن الأندلس ، ودعـــا القسم الثاني (عـــدوة القرويين) ـــ وهي القسم الغربيّ ـــ وقد اتّخذ منـــه الملك ادريس مَقرًّا لـــه .

وظلت فاس عاصمة الدولة الادريسية ، التي قامت في المغرب على يد الامام ادريس الاول ، بعد هربه من المشرق خوفا من بطش الرشيد به . غير انَّ البطش لحق به الى المغرب ، فمات مسموما في عاصمته (وليلى) على يد الشماخ ، بتدبير من هٰرون الرشيد ووزيره جعفر البرمكي . ولما قامت دولة المرابطين في القرن الحادي عشر الميلادي ، الخامس الهجري ، انتقلت العاصمة من فاس الى مراكش، التي بناها يوسف بن تاشفين . ولما جاء المَرِينيّون في القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي ، نَقلوا العاصمة من مراكش الى فاس من جديد ، واضافوا الى المدينة قسما دعوه (فاس الجديدة) واحاطوه بالأسوار ، كما كانت المدينة القديمة محاطة بالأسوار ايضا . وظَلَّت فاس عاصمةً للمغرب بعد ذلك في عهد الوَطّاسيّين ودولتهم القصيرة العمر ..

وكَثُر نزوحُ الأندلسيّين الى فاس ، وقد حَملوا معهم مظاهر حضارتهم وفنونهم ، فكان لذلك اثره الكبيرُ جدًّا في التقدُّم الفكريّ والحضاريّ الذي عرفته فاس . وَمِمَّن وَفَدوا عليها ومارسوا علومهم وفنونهم فيها : الطبيب والعالم عبد الملك بن زهر ، والفيلسوف ابن رشد ، والوزير الشاعر لسان الدين بن الخطيب ، والكاتب جُزَيّ بن عبد الله الغرناطي ، والوزير الشاعر ابن زمرك ، وغيرهم ، وكلُّهم عملوا في المغرب في عهد المرابطين او الموحِّدين او المَرِينيّين . والمؤلم حقًّا انَّ كلَّ واحد من هؤلاء الأعلام قد رُمِيَ بتهمة الالحاد والزندقة ، وبعضُهم مات حرقا ، او مات مسموما . ولا يزال قبر لسان الدين بن الخطيب بارزًا أثرُه خارج اسوار مدينة فاس .

وما تُذْكَر مدينة فاس الا ذُكِرَ معها جامع القرويين ، وكان دائما في المغرب صنو الأزهر في مصر ، وفيه تَخَرَّج كبارُ علماء البلاد المغربية على توالي العصور الى يومنا هذا . وقد تَحَوَّلَ اليوم الى جامعة عصرية . وهذا الجامع انشأتْه في القرن الثالث الهجري ، التاسع الميلادي ، السيدةُ فاطمة أمّ البنين الفِهْريّة ، من مهاجرات القيروان .

ولم يلبث الجامع ان اصبح جامعة ، هي اقدم جامعات العالم على الاطلاق ، واصبح مصدر إشعاع فكريّ إسلامي غَمَرَ بلدانَ المغرب والأندلس ، وتوافَدَ عليه العلماءُ وطُلاّب العلم من كل صوب . وبجامع القرويين صارت فاس عاصمةَ المغرب العلميّة الى اليوم . وهو اول

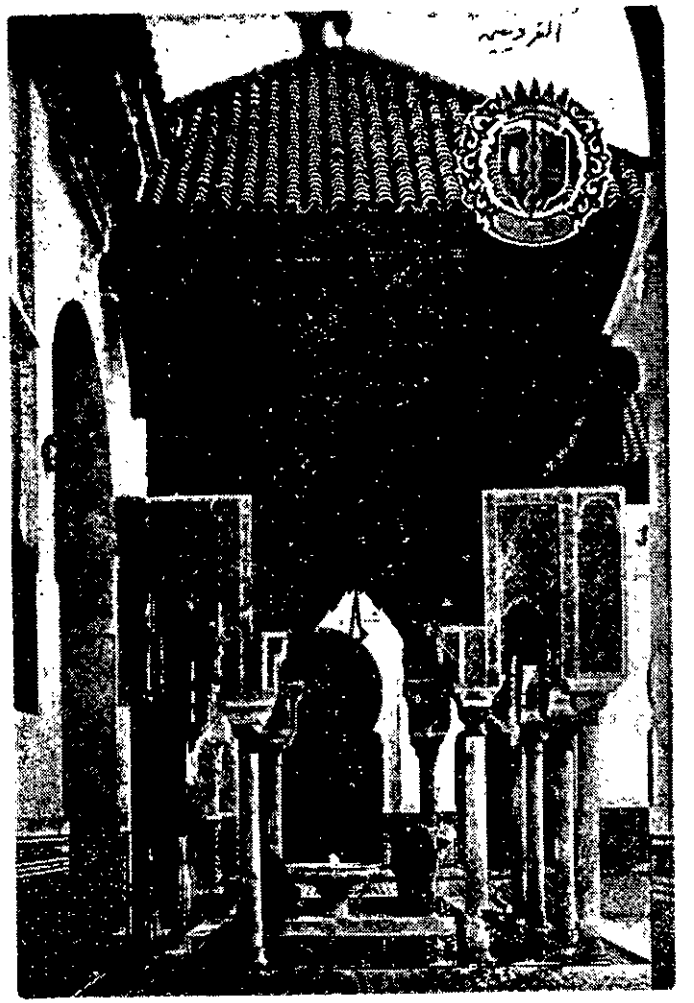

ميضاة جامع القرويين في فاس

جامع تقيمه سيّدة مسلمة في العالم الاسلامي كلّه ؛ وكُلُّ الدول التي تعاقبت على حكم المغرب منذ ذلك الحين كانت تتبارى في دعم القرويين ، وإغداق المال عليه ، وإجراء التوسُّعات التي يتطلّبها ، وتوفير العلماء له ، (والمدارس) العديدة لايواء طلاّبه وتدريسهم .

أمّـا اثر الاندلس في القرويين فنُطالعُه في كـلّ مكان من هذا الجامع العريق : ففـي المحراب نرى الطرازَ الاندلسـيّ يُزخرِفُه زَخرفةً بديعة ؛ وفي صحن الجامـع تُدهِشُنا قِطَع الزلّيج ــ او الخـزف الصغير الملـوَّن ــ البديعة الألوان تُغطي الأرضيّة كلَّهـا ، وتزخرف المِيضَأةَ الجميلة ، والجُدران جميعُهـا . ومِن فوق زلّيج الجدران والأرضيّـة تتدلّى المَقْرَبصات والنقـوش الجبصيّة والخشبيّـة المدهشة ، تَفنَّنَت فيها ايدي الصُنّاع الفاسيّين الذيـن اخذوها في الأصل عـن الاندلسيين ، ومضت تبدع فيهـا ما شاء لها الابداع . وعلـى طرَفَي الصحن تقوم ظُلَّتان ــ سقيفتان ــ جميلتان ، تُزَيّنُهمـا السقوف الخشبية البديعة في نصفهما الأعلى ، والأعمِـدَةُ الرفيعة الدقيقة مـن اسفلهما ، والزلّيج الأخضر البهيج في سطوحهمـا . وعلى الجدران قِطَـعٌ صغيرة من الفسيفساء الزلّيجية البهيّـة الألوان .

وعلى مقربة من الجامع عِـدَّةُ مدارس قديمة ، اندلسيـةِ الطراز ، نَذكر منها : البوعنانية ، ومدرسـة النجّارين ، والعطّارين ، والصَفّارين ؛ وهـذه كلُّها من العهد المَرينـيّ في القرنين الثالث عشر والرابـع عشر . وهنالك ايضا مدرسـة الشَرّاطين ، وهـي من عهد الأُسرة العَلَوية . وكلُّ هذه المـدارس وسواها من المدارس القديمـة في مختلف مـدن المغرب هي من طراز المدارس التـي نشأت في الأندلس من قبل ، والتي جَعَلَت مـن الأندلس منارةَ علـمٍ وحضارةٍ قَبْلَ أن تقوم النهضة الحديثة في اوروبـا .

وتَتَجلّى الصناعةُ الأندلسيـة في كل مكان من مدينة فـاس : في المساجد ، والزوايا ، وفـي المدارس ، والأضرحة . ومن أهـمِّ الزوايا في فاس زاويةُ مـولاي إدريس ، مؤسس المدينـة ؛ ويتبدّى جمالها في زلّيج سطوحها وأفاريزهـا ، وزخارف جدرانها وارضيّتهـا .

غير أن احدثَ الاعمـال الزخرفية الجميلة المتطـوِّرة يَبْهَرُ الزائر في (فندق قصر الجامعـي) ، وهو فندقٌ كبير حديـث ، نِصفُه كان قصرًا قديما من القرن التاسـع عشر لأحد كبار اغنياء المغـرب يُدعى (الجامعي)

ـ وله قصور اخرى في مكناس وبعض المدن المغربيّة الاخرى ـ ثم اضيفت اليه اجنحةٌ حديثة ، واستُغلّت حدائقه الفسيحة ، وَزُيِّنَ بالنقوش والزخارف الأندلسية المُحْدَثَة ، فجاء قطعةً مدهشة من جَنَّة

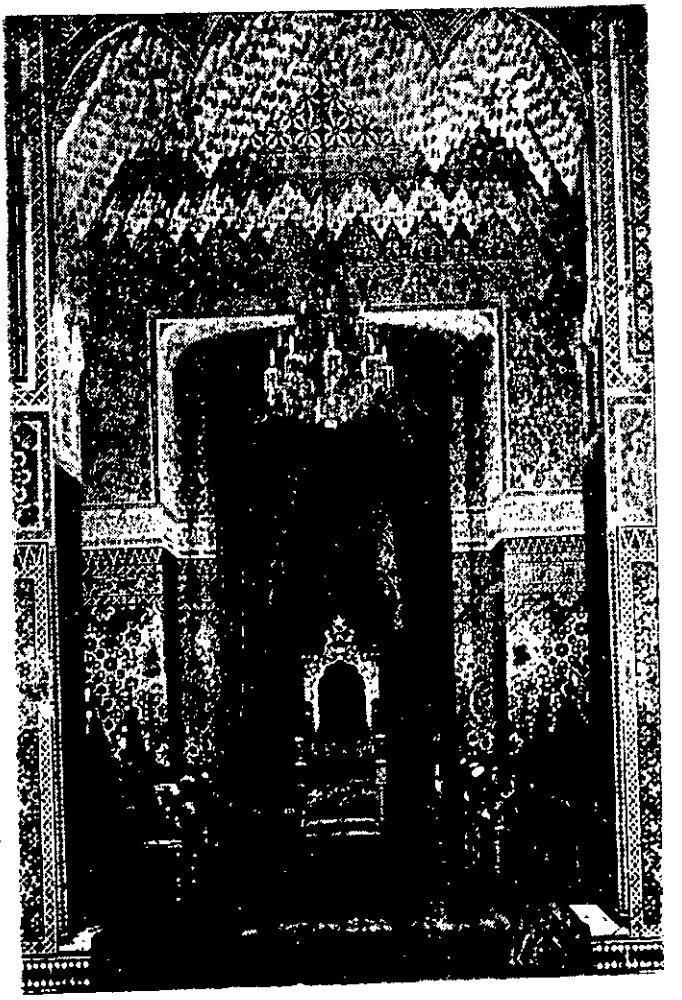

قاعة العرش في القصر الملكي في تطوان

الأندلس ، يُعزُّ مثيلها في قصور غرناطة وإشبيلية ؛ وفي فسحاته الواسعة ، حَوْلَ بِرْكة الماء الكبيرة في حدائقه ، تُقام حفلات الغناء والرقص والموسيقى الأندلسية ، فيعيش الساهرون في جوٍّ اندلسيّ خالص ، وفي مُتعةٍ للعين والنفس لذيذةٍ حالة .

لقد امتزج تاريخُ فاس بتاريخ الأندلس في أشياء كثيرة : امتزج بالأُسَر الأندلسيّة العديدة التي نَزحت الى المدينة منذ انشائها ؛ وامتزج بفنون الهندسة العمرانية والنقش والزخرفة ؛ وامتزج في رحاب جامع القرويين ، اساتذةً وطُلاّبًا وزُوّارًا ؛ وامتزج في قصور الملوك والحُكّام بمن وفد عليهم من أعلام الأدب والشعر والفِقْه والعلم من الأندلسيين ، ولا سيما في عهد المَرينيّين وسُلطانهم الأشهر أبي عنان . وقد ذَكَرنا في ما تَقدَّم اسماءُ بعض هؤلاء الأعلام .

وهناك مظاهر اخرى كثيرة من امتزاج الأندلس بمدينة فاس ، نَجِدُ بعضها في الطُرُقات الضيّقة التي تسير في وسط المتاجر المصطفّة على الجانبين، لتُبرِزَ اعمال النَسّاجين والصاغة والصُنّاع الفاسيين البارعةَ الجميلة . ونَجِدُ بعضها كذلك في طراز الأسوار ذات النُتوءات المُذَبَّبَة .

والواقع أن مدينة فاس من اكثر المدن المغربية تأثُّرًا بالأندلس وبفنون الأندلس ، وَمِن اكثرها احتضانا لفنون النقش والزخرفة والبناء الأندلسية .

— ٥ —

تَطْوان

تقوم مدينة تطوان — او المدينة البيضاء ، كما تُدْعَى ايضا — على سفح تل (دَرْسَة) الى الجنوب من سَبْتَة . ومِن حَوْلها يَسقي وادي الحلو — ويُدعى ايضا وادي مَرْتَل — بساتينها الجميلة المحيطة بها . وقد بَنَى هذه المدينةَ المهاجرون الذين جاؤا من غرناطة في ايامها الاخيرة ، وعلى راسهم ابو الحسن المنظري . ثم لَحِقَ بهم غيْرهم ممن أضطُرّوا الى النزوح عن الأندلس . وقد حافَظَت هذه الأُسَر النازحة على أُسلوب حياتها الأندلسية ، بحيث يُخَيَّل اليك ، وانت تدخل الى تطوان ، انك تَدخُل الى مدينة اندلسية . والواقع انني هناك رَجَعَ بي الخيال الى مدينة (رُنْدَة) في الجنوب الأندلسي ، بشكل خاصّ ، وشَعَرْتُ بأنني قد عُدتُ اليها من جديد — وكان عهدي بزيارة رُنْدَة قريبا — .

وتطوان هي العاصمة العلميَّـة في الشمال المغربي ، واللغـةُ الاجنبية التي يتكلم بهـا التطوانيون هي الاسبانيـة ، وبيوتُها تُعكِس جمال الطراز العمرانـيّ والهندسيّ الأندلسـيّ .

جوقـة موسيقى أندلسية في قصر البريشـة في تطوان

وقبل أن امضي في الحديـث على المدينة وطابَعِهـا الاندلسي ، أوَدُّ ان أذكر انني حرصتُ هناك على زيارة مـؤرخ تطوان وشيخ علمائها ، الاستاذ الحاج محمـد داود ، صاحب (تاريـخ تطوان) ، الذي يقع في اربعة عشر مجلّدًا ضخمـا ، سِتَّةَ منها مطبوعة ، والثمانيـة الأخرى

تنتظر الطبع ، يُضاف اليها اربعةُ مجلدات ضخمة اخرى بعنوان (عائلات تطوان) ، ممّا يصل بتاريخ تُطوان الى ثمانية عشر مجلّداً ، اطلعني عليها الأستاذ محمد داود في تلك الزيارة .

ان روح الاندلس ما تزال تعيش مع الحاج محمد داود ، مُتَحَدِّرَةً اليه مِنْ اجداده الذين نُزحوا عن غرناطة . ومَنزلُه قطعةٌ فَنِّيّة من الأندلس : بتنظيمه الهندسي ، وبنقوشه وزخارفه ، وفُرُشه واثاثه ، وجدرانه وسقوفه ؛ ولأوّل مرة ، وفي منزل الحاج محمد داود ، رأيت طراز المخادع الاندلسية : بالسرير العالي ، والستائر المصنوعة من الدِمَقْس الأصليّ الجميل ، ورأيتُ كيف يكون (البيت الأندلسي) بفراشه على سَطيحةٍ مرتفعة عن الأرض ، وبمَسانِده المستديرة الطويلة المغطّاة بقماش حريريّ زاهي الالوان . كلُّ ما في منزل الحاج محمد داود يَنقُلُك الى الأندلس ، فتعيش مع التاريخ الزاهي العزيز الذي مضى .

ومثل منزل الحاج محمد داود كذلك منازل عديدة اخرى ، أَهلُها كُلّهم من ابناء المهاجرين الأندلسيين ، ولم يستطيعوا التخلّي عن أسلوب الحياة الاندلسيّة . وقد زرتُ من هذه المنازل منزل عبد السلام الصَفّار ، مدير مدرسة الفضيلة للبنات ، كما زرتُ مدرسَتَه ايضا ، فرأيتُ في كليهما ما يُبهج النفس والنظر من روعة الطراز الأندلسيّ في كلّ شيء .

حتى الساحاتُ والحدائقُ العامة في وسط المدينة ، من مِثْل ساحة الحسن الثاني ، وحديقة (روضة العُشّاق)، هي ايضا قِطَعٌ من جِنان الأندلس وساحاته العربيّة القديمة . وحين تَدْخُل الى حديقة (روضة العُشّاق) تجد في وسطها ظُلّةً — سقيفة — جميلة لجلوس المتنزّهين ، سَطحُها من الزِلّيج الجميل المألوف جدًّا في الأندلس والمغرب . وعلى مقربة منها بِرْكة صغيرة مستطيلة ، على جانبيها نوافيرُ رفيعة تنفث اقواسا من الماء الى وسط البركة ، فيعود بك الخيال الى (بِركة الساقية) في قصر جَنَّة العريف ، في غرناطة .

وساحة الحسن الثاني في وسط المدينة ، تتوسّطها ظُلّة أنيقة كذلك ، تقوم على أعمدة دقيقة ، تُذكّر الزائر بدِقّتها ، ولطفها ، وجمال هندستها ، وزليجها ، وزخارف أرضيتها ، بكثيرٍ ممّا يُعْرف في الأندلس . الأعمِدَة الرهيفة الجميلة بشكلٍ خاص ، تُذكّرني بأعمدةِ جامع قرطبة ، وقصر الزهراء ، وقصر الحمراء في غرناطة .

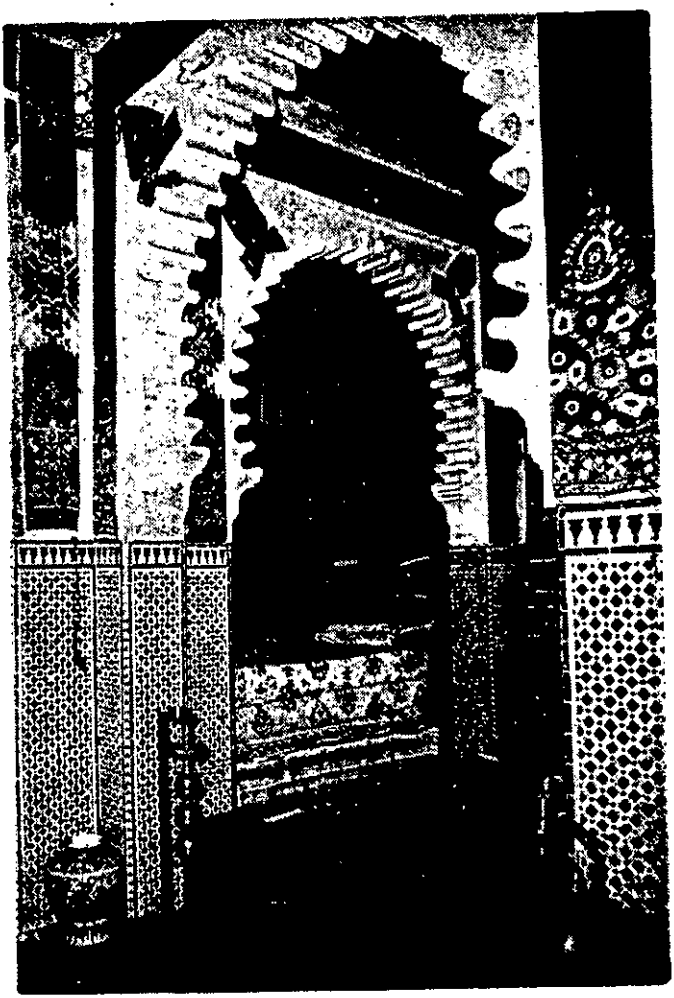

مَخْدَع أندلسيّ في المغرب

ثم تنتقل من الساحة الى القصر الملكي المجاور لها ، وهناك يتجلى الفنّ المعماريّ المنقول عن الأندلس ، والزخارف والنقوش

والمقربصات الأندلسية : باشكال لا تَشْبَع العينُ من تأملها ، ولا النفس من الاستمتاع بسحرها الدائم . وهذا الجمال هو بعضُ التفنّن البارع المدهش الذي يَتنافس فيه الصُنّاع التطوانيون والصُنّاع الفاسيّون بشكل خاص ، ويحاول كلٌّ منهم أن يَتفوّق فيه على زميله .

هذا القصر الملكي بُني سنة ١٦٠٠ م. ، القرن العاشر الهجري ؛ بناه القائد أحمد الريفي ، خليفة الملك سليمان العَلَوي في الشمال المغربي ، ثم أُدخِلَت عليه مع تعاقُب الأجيال ترميماتٌ واصلاحات عديدة ، نَجِدُ تواريخها مُدوَّنة على جانب باب القاعة الكبرى ، في الطابق العُلْوي ، وأما الهندسة الأصليّة فلم يطرأ عليها أيّ تغيير . وقد عَلِمْتُ من وكيل القصر، الذي رافقني في جولتي هناك،ان الصناعة الجِبْصيّة في القصْر ، بِنُقوشها المُقَرْبَصَة الجميلة الأنيقة ، هي صناعةٌ فاسيَّة ، وأما الزلّيج الصغير البديع الالوان فمزيجٌ من صناعة تَطوان وصناعة فاس ، وأما المقربصات الخشبيَّة وكلُّ النقوش الخشبيّة فصناعةٌ تطوانية . والفرقُ بين صناعة تُطوان وصناعة فاس في اعمال الزلّيج الصغيرة ــ كما قال لي وكيل القصر ــ هو أنَّ الصُنّاع الفاسيّين يُصنعون الشكلَ الكامل قِطعَةً واحدة ويشوونه في النار ، وأما التطوانيون فيُقَطِّعونه قِطَعاً صغيرة ثم يَشوونها ، وبعد ذلك يُلصِقونها على الجدار قطعة قطعة . وكان الصانع التطواني الأول الذي صَنَع نقوش القصر يدعى (المعلم أحمد البوري) .

وَنَنْتَقل من القصر الملكيّ في طريق ضَيِّقة نازلة مُتعرِّجة ــ هي طريقٌ اندلسيّة صِرْف ــ لِتَصِل الى قصرٍ آخر عظيم الفخامة في طرازه الأندلسيّ . ذلك هو (قصر البريشة) ؛ وهو جناحان كبيران ، عاليا السقوف ، أحَدُهما مخصَّص لِبَيع المصنوعات الجلديّة والمنسوجات المغربيّة المشهورة في جمالها ، والثاني سياحي : تَدْخُل من الباب فَتُفاجَأ بمنظرٍ قد لا تَقَع عليه العينُ في أيّ مكان آخر : بَهْوٌ عريض فسيحُ الجوانب ، وفي وسطه بِرْكَة ماء صغيرة جميلة ، يَنْفرُ الماء من نافورة فيها ؛ وَمِن حول البركة جوقةُ رجال ونساء بملابسَ اندلسيّة

مزركشة ، وفي أيديهم آلاتُ طرب اندلسية . وما إن يُحِسّوا بِوَقْع خُطاك عند الباب حتى يأخذوا في العزف والغناء ، وتَرقُص في وسطهم الراقصات الجميلات ، وكلّ ذلك بفن اندلسي جميل أخّاذ . وعلى جوانب البَهْو العريض مقاعدُ منخفضةٌ لجلوس الزوّار والسُيّاح للاستمتاع بالرقص والغناء وبالموسيقى الأندلسية .

هذا القصرُ أقامَهُ سنةَ ١٨٩٧ الحاج عبد الكريم البريشة ، وكان سفيرًا ووزيرا وثريًّا كبيرا ، تَولّى مناصبَ رفيعةً في تطوان وفاس والبيضاء في عهد الملك الحسن الأول والملك عبد العزيز ؛ ويُقال إنه بنى قصرًا آخر مِثْلَه كذلك ، وجَعَل القصرين لِبِنْتَيه . وهذا القصر مُتعةٌ للعين والنفس ، بما فيه من جمال النقوش والزخارف الأندلسية .

والجديرُ بالذكر انَّ في تطوان وغيرها من مدن المغرب مدارس خاصة ، يدعونها (دُور الصناعة) تُدَرَّسُ فيها فنون النقش والمقربصات والترصيع الأندلسية ، لتَظَلَّ حيَّةً متطوِّرة باستمرار . وقد دَخَلْتُ دار الصناعة في تطوان ، وتجوَّلتُ في ارجائها ، فأدهشتني الصناعات الأندلسية الجميلة التي يصنعها المتدرِّبون هناك ، حتى اذا ما وَصَلتُ الى القاعة الأندلسيّة في الطابق العُلْوي ، وَقَفْتُ ذاهلا أمام الجمال الباهر المتجلّي في الجدران والسقف ، وفي قِطَع الأثاث الخشبية البديعة الصنع .

إنَّ كلّ شيء في تطوان ، حتى مداخل البيوت ، يوحي اليك بأنك في قِطعَةٍ من الأندلس العربيّة في ازهى عصورها .

* * *

وآتي الآن الى الختام من هذه الجولة السريعة ، لأقول إنَّ ما قَدَّمْتُه في هذه الدراسة الموجَزَة ليس سوى خُلاصةٍ للانطباعات التي عُدْتُ بها من جَوْلتي في مُدن المغرب . ولكنَّ الواقع الذي شاهدتُه ، وعِشْتُه ثلاثة اسابيع هناك ، يَظَلُّ اكبر من الكلمات ، وهو جديرٌ بمزيد من التفاصيل ، وجديرٌ كذلك بمزيد من الصُوَر ، لِنُقَرِّبَ الوصف من الحقيقة .

لقد زُرْتُ الأندلس مرّتين قَبْلَ زيارة المغرب : كانت الأولى سنة ١٩٦٧ ، والثانية سنة ١٩٧٤ . وكانت الزيارتان للدراسة الفاحصة المتأنّية ، لا لمُجَرَّد السياحة والنزهة . وقد امتلأتْ نفسي بما شاهدتُ هناك من روائع آثار الحضارة العربية الاسلامية الباقية الى اليوم .

وحين زُرتُ المغرب عام ١٩٧٤ — بعد زيارتي الثانية للأندلس مباشرة — احسستُ بأن هذه الزيارة كانت ضروريّةً لكي تُكْمِل بها دراستي للأندلس : ذلك لأنَّ بين البلدين ، الى جانب التاريخ الطويل المشترك ، حضارةً مشتركة باقية ، ولأنَّ المغرب اليوم امتدادٌ رائع للأندلس ، وتاريخِهِ ، وحضارتِهِ ، وفنونِهِ .

حول تعريب التعليم وتعريب العلم والتكنولوجيا

للدكتور أحمد سعيدان

لا غرو أن دعوات كثيرة قد انطلقت، وما تزال تنطلق ، من أفراد وهيئات ومؤتمرات ، تدعو الى تعريب التعليم وتعريب العلم والتكنولوجيا، وان هنالك افرادًا وجماعاتٍ يُضيقون ذرعا بهذه الدعوات، فيعارضونها ويطرحون في المعارضة حججا وآراء جديرة بالتأمل والتفكير . وانَّ دعوات الداعين ونواهي الناهين تصطبغ احيانا بصبغة انشائية خطابية أو عاطفية انفعالية تنأى بها عن رزانة القرار الحكيم المسؤول، وهي تكادُ دائما تَصدُر مِن منطلقات متعددة متباينة : فهي تارةً قوميةً وطنيّة ، وتارةً فقهيةً لغوية ، وهي احيانا تاريخيّةً أو اجتماعيةً ، وكثيرا ما تتعارض أو تتشابك أو تتناقض، حتى لتكاد تضيع الحُجّة، وتحتجب الشجرة بأغصانها ، كما يقولون .

واني لأَهمُّ ان اقول إنني عازم على أن انحو في عرض القضية منحى موضوعيًّا، لولا اني اجد في من تَعرَّضوا للقضية مَن يَستهلّون البحث بزعم كهذا، ثم هم يُغرقون السامع أو القارىء في متاهاتٍ من مغالطاتٍ ومتناقضات، كفريق يضرب على غير هدى، أو يدور في دوّامة .

وكيلا اضربَ على غير هدى او ادور في دوّامة ساجنح الى النَّهْج العلميّ، فأحاول تحليل الموضوع الى عناصر متميزة بعضها عن بعض ، ثم القي نظرة على هذه العناصر متفرِّقة ، لأُخلُص من ذلك الى موازنة عامّة، فيها حساب الربح والخسارة، وكشف الحساب، وفيها خطّة واقتراح وبناء .

ولو كان ما نجابه عبارةً جَبْرية او مُرَكّباً كيماويّاً لوجدنا على الغالب نَهْجاً تقليديّاً لتحليله الى عناصر متميّزة ؛ ولكننا نُجابِهُ قضيّةً تعيش معنا وتنطوي على واقع ماثل امامنا،يقوم على جذور ضاربة في اعماق تاريخنا،ويمتدّ الى كثير من خُطَطنا وتطلّعاتنا . فليس ثَمّة، على ما اعلم، نَهْجٌ لتحليله الى عناصر سوى إنعام النظر فيه من زوايا مختلفة محدّدة .

الزاوية التربوية :

وأولى الزوايا المحدّدة التي منها أنظرُ في الأمر هي الزاوية التربوية،التي قَلَّما أولاها مَن تعرّضوا للامر ما ينبغي من عناية واهتمام .

إنّ عملية التعليم عمليةٌ تربوية ؛ فطبيعيٌّ ان ننظر في تعريب التعليم من الزاوية التربوية المحضة.وتعريبُ التعليم يعني عندنا في الأردن تعريب التعليم الجامعيّ،ويَنْصَبُّ على التعليم في الكُلّيّات العلمية. وهذا ما أحصُر البحثَ هُنا فيه،وإنْ كنتُ اعلم انّ التعليم غيرَ الجامعيّ يَفتقر في اقطارٍ اخرى عربيّةٍ الى التعريب . وفي مستهَلّ حديثنا عن تعريب التعليم في الكُلّيات العلميّة طبيعيٌّ ان نَستذكر ماذا نبغي من التعليم في هذه الكليات .

إنّ إعطاء الطالب معارفَ وخبراتٍ تُمَكّنُه من اجتياز امتحاناتٍ معيّنة،ومن ممارسةِ مهنةٍ محدّدة يؤهّلُه تخصّصُه لها،ليس وحده الهدف من التعليم الجامعي؛اذ لَعَلّ ما في كُتبٍ محدودة قليلة العدد ما هو اكثر واوفى ممّا يُعطي المحاضرون في الجامعة ؛ ولعلّ في خبرةٍ هندسيّةٍ ياخذها الطالب من بناء،او خبرة حسابيّة يفيدها من مصرف ما،يربو على الخبرة المقنّنة التي تُعطيها الأعمال المخبرية الجامعيّة في أوضاعٍ افتراضيّة مصطَنَعة .

ان الجامعة جَوٌّ اكاديميّ مثاليّ،يمارس فيه الطالب الحياة الموضوعيّة المنظّمة المُضَبّطة بحرّية رأي،وحرية تصرّف في حدود الموضوعية والنظام والانضباط،وعلى نحو يُستَهدف ان يبني الطالب

نَفْسَه بنـــاءً متكاملا، تَبْرُز فيه شخصيّته، وتَلمَّس بـــه مواهبُه الكامنة، ويغدو بـــه مواطنا صالحا، إيجابيًّا غير سلبيّ، قابـــلا للتفاعل مع مَن حوله وممارسة القيادة والريـــادة ، على خلفيَّةٍ من المميزات والقِيَـــم التي تسود في المجتمع الـــذي سيعيش الطالب فيـــه .

في ضوء هـــذه الأهداف نُسترجع للذاكرة واقـــعَ الكلّيّات العلمية المتوافرة، او التي يُمكـــن أن تتوافر على أرضنا، فَتَمْثُل امامنـــا ثلاثة انواع من هـــذه الكليات :

اولا : كُلّيات اجنبيةُ اللغـــة والطابع، كالكليات الانكليزية والامريكية التـــي تعرفها ؛ لغـــةُ التعليم والمعاملات والحديث فيها غـــيرُ العربية ، حتى يندر أن تجـــد فيها اثنين يتكلّمان بالعربيـــة .

يَدْخُلُها الطالب العربـــيّ فيصدمه فيها امران : لغـــةٌ لا يُتقن فهمها ولا التحدُّث بهـــا ، وبيئةٌ لا يألفها . فاذا هـــو تَكَيُّفُ مع البيئة وعَجَّل في اتقان اللغـــة، سارت معه الريح رخاءً، ومضت امـــوره بأمان في جَـــوٍّ اكاديمي مثاليّ خصب . امـــا اذا هو تَعثَّر في هذا أو ذاك، فقد ينقطع بـــه الحبلُ في وَسَط الطريق، وقـــد يَبْلغ نهاية الشوط خائرَ القـــوى مُقطَّع الأنفاس .

ونُظلم هـــذه الكلّيات اذا لم نَعترف بانهـــا تُحَقِّقُ لابنائنا معظم الأهداف التـــي استرجعناها فيما سبـــق .

ولكنّنا نظلم انفسنـــا اذا لم نعترف أيضا بأنها تَصْدُر عن قِيَـــم وأخلاقياتٍ لا تنبعث مـــن بيئتنا وجذورنا التاريخيـــة، وأنّها تُعِدُّ الطالب لمجتمـــعٍ غير المجتمع الذي سيعيش فيـــه .

لقد خَرَّجت لنـــا هذه الكلّيات نفرا من خـــيرة ابنائنا وقادة الفكر فيما بيننـــا ؟ ولكنّها اجنبية ، فهي لغيرنـــا، ادارتُها ليست بيدنا، وسياستُها ليســـت من صُنعنا، وان من حقّنـــا ، كسائر شعوب الارض ، أن يكون لنـــا جامعاتُنا التي تُنشأ بمالنـــا، ويديرها رجالنا، ويملؤها ابناؤنا، وتُرْسَـــم سياستها في ضوء حاجاتنـــا وخططنا وتطلّعاتنـــا .

انطلاقا من هذه الحاجة ظَهَرَ بيننا النوعُ الثاني من الكلّيات،وهي :

ثانيا : كلّياتٌ عربيةُ الوجه واليـد واللسان :

قـد يدور في خَلَدنا انَّ هذه الكلّيات تُحَقِّق كلَّ مـا تُحقّقه الكلّيات الأجنبية وتزيد على ذلـك ، اولاً لأنّ الطالب العربـي اكثرُ استيعابا للمعرفة بلغتـه،ومن ثَمَّ فهو أعمق فَهمًا وأولـى بالابداع؛وثانيًا لأنه لـن يُضيع وقتًا وجهدا في انقان لغـةٍ جديدة؛وثالثا لانّ الكلية تُعِدُّه لمجتمعنا العربـي،وتُنَشِّئه على خَلفيّة مـن قِيَمنا واخلاقنا وبيئتنـا وتراثنـا .

ولكن الواقعَ غـيرُ ما نتوقّع ، لا في الكلّيات العلميـة ولا في الكلّيات الانسانية او غيرهـا من الكليات . ذلك ان العلـم ينمو في هذا العصر على نحـو يوصَف بالتدفّق او التفَجُّر ؛ ومع نمـوّ العلم وتَدَفُّقه يمضي تطـوُّرُ مناهجه بسرعةٍ فائقة،حتـى ايندر ان يعيش كتابٌ علمـي صالحًا دون حاجة الى تعديل ، اكثـر من خمس سنوات . وهو ينمو مـادةً ومناهجَ على ايـدٍ غير عربيّة،وتُعبِّر من الجديد فيه والتجديد ألْسِنَةٌ غيرُ عربية ، في دوريّات كثيرة اجنبية.

فالكلّيات العلميـة التي جُعِلَت العربيَّةُ لغـةَ التداول والتعليم، حَجَبَتْ نفسها عـن منابع العلم،ولذا ما لبثت ان وُقِفَـت بمعزل عن تيّار التطوّر،سواء في المـادة العلميّة والتعليميـة ، ام في أساليب عَرضها ، بـل في اجهزة البحث والتدريس . انَّ جُلَّ ما تنتجـه هذه الكليات إنمـا هو اجترار وتكـرار .

هـذا واقعُ كُلِّ مَن يُدرك التطوُّر العلمـيّ المعاصر لا يستطيع إنكاره ؛ ولقد قـال قائلون جَدَلاً إنَّ القِلَّـة القليلة من خريجي هذه الكليات هي وحدهـا المؤهَّلة للاستزادة من العلـم،وهي وحدها التي ستحتاج عندمـا تستزيد الى اتقان لغـة اجنبية ، وعندها نَدْفَع بها الـى موطن هذه اللغة . وهـذا قولٌ يُنمّ على سطحية وسذاجة ؛ فالعلـم الحديث ليس حُلِيَّةً يَتَحلّى بهـا من يقدر

او من يشاء،ولكنه حياةٌ وطريقةُ حياة،نُلْمَسها في البيت والمدرسة والمكتب والشارع وكل مكان، وينبغي أن تُجدها لدى المعلم والطالب على السواء . حتى الكلّيات الانسانية،التي مادتها عربيّةٌ في كل شيء،قد تَحَجَّرت لانها افتقرت الى المنهجية التي نلمَسُها واضحة في الكتب الأجنبية المتقدمة ، والتي بدونها قَلَّما يكتمل بحث او تكتمل دراسة .

وهنا امران يَتَبَرَّم بهما جُلُّ الحادبين على العربيّة،الداعين الى استعمالها في كلّ مراحل التعليم : احدهما الحديث عن هذا التدفُّق السريع في المادة العلمية واساليبها،وثانيهما هذه المنهجية التي أزعم اننا نفتقدها في الكتب العربية ؛ فقد يَحْسُن الاَّ نَمُرّ بهما سراعا دون مزيد من التوضيح .

امّا عن تزايد المعرفة،فيكفي أن نشير الى أن مؤسسة اليونسكو نشرت قبل حوالي عشر سنوات احصائيةً تشير الى أنَّ مطابع العالم تُخْرِج في كلّ اربعين دقيقةً من الكلام المطبوع ما لو جُمِع في كتاب واحد لبلغ هذا الكتاب اربعةً وعشرين مجلّدا ، كلٌّ منها بحجم المجلّد الواحد في الموسوعة البريطانية المعروفة ؛ وانّ ما تُصدِرُه هذه المطابع في اليوم الواحد ينطوي على اكثر من خمسين مصطلحا علميًّا جديدا،لم يكن له قبل يوم واحد وجود .

ولعلمي أن النساس يَنْسَون،ادعو القارىء الى أن يتذكّر كيف كانت وسائلُ المواصلات،مثلا،قبل ثلاثين عاما،وكيف هي اليوم . إنَّ الذي مَكَّن لهذه الطفرة الواسعة انما هو فيضٌ من المنجَزات العلمية والتكنولوجية،نَقَلَت العالم من عصر الكهرباء الى عصر الطاقة النووية والحاسبات الالكترونية وسباق الفضاء .

وهذه المنجَزات لم تُحَقِّقْها عقول عربية،ولم تُفَصِّلْها لنا كتب عربية ، وهي المادة العلمية التي تُسَيِّرُ حياة العصر وتزحم مناهج الدراسة،وبتطوُّرِها تَتَغَيَّر الحياة،وتتبدَّل المناهج.ونحن لا

نملك حيالها الا ان نقف تلاميذ مستقبلين؛ هذا اذا اتيح لنا ان نفتح النوافذ لاستقبالها ، فان لم نفعل فذلك هو التقوقع الذي لا يلبث ان ينجلي عن تخلف من فاته القطار .

هذه حقائق ، لا مبالغة فيها ولا سبيل الى تجاهلها او انكارها ؛ وإنّ من الخير ان نضعها نصب أعيننا اذا كنّا نتطلع الى تخطيط محكم مُعال .

سيقول قائل : إن دخول العربية من الباب لا يعني هَرَبَ الانكليزية، مثلاً، من الشباك . صحيح انه لا يعني ذلك ، فلا لزوم لان تُهرّب اللغة الأجنبية لأنها لم توجد اصلا ، الا اذا حسبنا ان الفيزيائي الذي يقضي عمره يُدرّس الفيزياء في كتب عربيّة يُسهّل عليه فَهْمُها في مراجع اجنبية . كَلاّ ، حتى لو كان يتقن اللغة الأجنبية قراءة وحديثا . ليس صحيحا عندنا ان العِلْم ليس له لغة؛ وإن خبرتنا في الجامعة الاردنية لدليل ماثل على ذلك .

أما المنهجية التي اشرتُ اليها فهي أسمَ آخر للطريقة العلمية في البحث والاسلوب العلمي في عرض نتائج البحث .

المنهجية اخلاق ؛ انها موضوعية تتوخى البحث عن الحقّ وحده، وتبحث عنه بلا هوى ولا نزق ولا انفعال، ثم تَعْرِض الحقّ، ولا شيء غيره ، بلا تكلّف ولا رياء ، ولا بهرجة ولا تلوين ، وبأسلوب يعطي الكلمة حجمها الطبيعيّ، فلا يصف بالعَظَمَة الاّ من كان له منها نصيب ، ولا يُعَدُّ عظيما جدًّا الاّ مَن كان نصيبه منها وافرا ؛ المنهجية تعطي كلَّ ذي حقّ حقَّه؛ فماذا عَرَض امرؤ نتيجة بحثه، ذَكَر من ساروا في الدرب قَبْلَه، وابن وَصَلوا، وماذا حقّقوا ، ثم ماذا كان دوره هو، وايّ جديد حَقَّق ؛ والمنهجية امانة ء امانة تجاه الحقيقة، وتجاه القارىء والتاريخ .

ليس في المنهجية نفـاق ولا اسلوب خطابي ولا بالغـة ولا بهرجة كـلام غير ذي مضمون ، وليس فيها تلويـن للحق ولا تحريف لـه ولا افتراء عليه . ومـا احوجنا الى هذا كلّه في ما نقرأ ومـا نكتـب .

ولـم يَسْبق الغربُ الـى المنهجية : لقد بدأت بالاسـلام في عصوره الأولى عندما كـان رواةُ الحديث يَشدّون الرحـال، ويَقْطعون آلاف الفراسخ من اجـل التأكّد من نَصّ مـا نُسِبَ لراوية مـا . ولكنَّ المنهجية ضاعت في العصور الاسـلامية المتأخرة ، ولقيها الغرب في أواخـر القرن الماضي بعد معانـاة طويلة شهد فيها كثيرا مـن الافتراء وكثيرًا من الادعاء . وهـا نحن اليوم نَجدُها في البحوث العلميّـة الغربية،وفي الكتب العلمية الاوروبيـة، وكثيرا مـا نَفتقدها في البحوث والدراسات العربيـة . لقد جَمَعَ بيرسون في فهرسـه الاول كلَّ ما نُشِر في الدوريـات من بحوث ودراسات حول الفكـر الاسلامي،من مَطْلع هذا القـرن الى سنة ١٩٥٥ (المجلـد الاول) زهاء ٢٦ الـف بحث،ليس بينها بالعربية بحث واحـد تتوافر فيه عناصر المنهجيـة .

خوفًا من التقوقع،وحُبًّـا بالمنهجية،اختارت بعض الجامعـات العربية نوعا ثالثـا من الكليات العلمية،وهـي :

ثالثا : كليات عربيـة انكليزية :

لغـة الحياة والمعاملات في هذه الكلّيات هـي العربية ، ولكنَّ لغـة المحاضرات والدرس والامتحان هـي الانكليزية ؛ فالكُتُب المقرّرة والمراجع انكليزية،وعلى هـذا فالباب مفتوح على مصراعيه لأحدث المناهج ، ولا خـوف عندنا من تقوقع او تَحَجُّـر .

بعضُ الناس يَصعُب عليهـم ان يَروا الواقع ، وبعضُهـم يَصعب عليهم ان يَعترفـوا بما يرون،وهؤلاء جميعا قـد يَعْتَبون علي اذا قلتُ إنَّ الطالب المتوسّط عندنا يفقد لغتـه ولا يتقن الانكليزية ،

بالضبط كالغراب الذي قلّد مشية غيره . اننا لم نضعه في جوّ يتعلّم فيه الانكليزية ، لا حديثا ولا كتابة ، وانما طالبناه ان يُفهم ما يقرأ وما يسمع . اما ما يقرأ فتلك مادة الكتب المقررة، يفاجأ بها الطالب منذ اللحظة الاولى، فتحدث لديه رعشة وفي نفسه عقدة ، وقلّما تزول تلك الرعشة، وقلّما تُحَلُّ تلك العقدة ؛ فلا ينبغي ان نحسب انه يُفهم ما يُقرأ فهمًا تامًّا ، ولكنّها صُورٌ لذلك المقروء تُرتسم في مخيّلته، ومعها تصوراتٌ غائمة قَلِقَة لا تلبث ان تنمحي، فيغدو وكأنه لم يقرأ شيئا .

وأمّا ما يسمع الطالب في المحاضرات فقلّما يكون انكليزيًّا، وانما هو خليط من انكليزية سقيمة وعربية عاميّة، ومع ذلك رُبّما كان هذا الذي يسمعه هو وحده الذي يفيد منه الطالب في جامعته اذا هو احسن الاستماع، او اذا احسن المعلم الاداء ؛ لأنّ طُلّابنا قَلّما يُرجعون الى المراجع لأنهم لا يفهمونها ، وقلّما يُحسنون استعمال كتبهم المقرّرة لانهم لم يُهَيَّأوا لها ؛ وهم قلّما يناقشون في المادة العلمية لانهم لا يحسنون الحديث بالانكليزية ، فما هي النتيجة ؟ يَنْضَمّون الى تلك الاكثرية الصامتة السلبية، التي تُجهد نفسها في تحصيل بعض الفهم تحصيلا مؤقتا من اجل الامتحان، وينتهي بانتهائه .

جاءتني قبيل الامتحان طالبة في السنة الاولى في حالة هستيرية تقول : كُلُّ مسائل PERCENTAGE هي طلاسم بالنسبة اليّ، فَهَلّا افهمتني عمّ تبحث ؟ قلت : ألم تدرسي النسبة المئوية في الصف التوجيهي ؟ قالت بلى ؛ قلت ذلك هو ما تبحث فيه ؟

— صحيح ؟

— نعم

— اذن "PERCENT" معناها "في المائة" ؟

— بالضبط

— ما اغباني !

وفي الامتحان رأيت طالبا مضطربا يريد ان يستوضح معنى كلمة " Sphere ". وبعد الامتحان جاء الطالب يجادلني مؤكدا ان معلمه فسر الكلمة بمعنى "الجَوّ"، فلما أكّدتُ له ان الجَوّ يقابلها بالانكليزية كلمة " Atmosphere "، شعرت بالطالب كأنّ شبكة معقّدة قد انحلّت امام بصيرته .

سيقول قائل : هذا الذي تَصِفُه حالاتٌ فرديةٌ شاذّة، تَحْدُث في مرحلة مبكّرة ولا تحدث فيما بعد ذلك. ولكنني اتمنّى لو ان احد المهتمّين بالامر كَلَّف مجموعة من الطلاّب العلميين، في نهاية المرحلة او بعد التخرج، ان يكتبوا له اسطرًا قليلة ، بالانكليزية او العربية، في موضوعٍ ما يتعلّق بتخصُّصهم ؛ عندها سيجد عجبًا . لي مع طالب مَنَحْناه الماجستير في الرياضيّات قصةٌ عجيبة ؛ هذا الطالب لا اذكر اسمه ولكنّي لا انسى قصتي معه ؛ عَلَّمْتُه في كلّ سنة من سنوات دراسته للبكالوريوس، ولا اذكر انه في مرّة واحدة ناقَشَ او وَقَفَ لالقاءِ سؤالٍ او اقتراحِ حلّ . كان دائما مع الصامتين الذين يحسنون الاستماع ، فاذا جاء الامتحان يُحَلِّق مع المتفوقين .

ومُنِح الطالب البكالوريوس بدرجة "جيّد جدًّا"، وتقدم للماجستير، وكان من نصيبي ان اعطيه مساقا من هذا المستوى . وكان من واجباته في هذا المساق أن يُعِدَّ تقريرا مكتوبا، وان يَشْرَح مادته في الصفّ كيما نناقشه . وقد أكّدْتُ على الطلاب أن يُعِدَّ كلٌّ منهم تقريره بالعربية، كيما يجري النقاش بالعربية ؛ هذا بالرغم من أن المراجع كلّها بالانكليزية . لقد اردتُ ذلك لأحولَ بين الطلاب وبين النقل الحرفي من المراجع ؛ لقد اردتُ أن يكون لهم دور اكثر من مجرّد التلخيص . ولقد قام الطلاّب بهذه المحاولة، الاّ أن تقاريرهم كانت كمحاضراتِ اساتذتهم، خليطا عجيبا من العربية والانكليزية ، الا هذا الطالب؛ فَقَبْلَ الموعد المحدّد لمناقشة تقريره، جاءني يرجو أن يُقَدِّم تقريره بالانكليزية

لانه لا يستطيع نقلـه الى العربية . وحين اخـذ الطالب يقرأ تقريره، مضى حوالي ربـع ساعة حتى تأكّد لديَّ انـه يتكلم حقًّا بالانكليزية، كان تقريره علـى النحو الذي أُلفناه من طلابنـا : فقرات مقتبسة من المرجـع او المراجع، ولكنَّ الفـاظ الطالب كانت عجيبة ، لا تَمُتُّ الى ايـة لغة ؛ حتى تلك الالفاظ التي تتكرّر في كـلّ محاضرة في موضوع تَخَصُّصِه ؛ لقـد سمعها اكثر من مائـة مرة من عدد من المحاضرين ، ولكنْ لـم يتقن لفظها، فلَفَظَها بطريقـة مضحكة تبعث في النفس السخريـة ؛ والتفسير واضح : لقد كـان الطالب يَحضر المحاضرات ويصغـي ، ولكنَّ فكره كان مشغـولا، كان يُعَوِّل على ان يحفظ صُوَر المـادّة التي يجدها في الكتاب، فيعيد رسمهـا على نحوٍ ما في الامتحـان ؛ ولو كان أعمق من ذلك فهمًا لمـا عجز عن نقـل المعاني الى لغتـه .

والنتيجةُ واضحة، أنّنـا لم نُخَرِّج فيه طالبـا يستطيع أن يكون مواطنا صالحا، يفيـد مجتمعه بعلمه وتَخَصُّصِه ، لا بالعربيـة ولا بالانكليزية ولا بخليـط من اللغتين ، ولا خرّيجًا يُمْكِـن في أيّ مجتمع ان يُعْطيَ عـن جامعته فكرة طيبة . ومـا اكثر الدلائل على أن القلّة من خرّيجينا هـم أحسن حالا من هـذا الطالب .

إنـي أَقْدُرُ لزملائي في الكليات العلميّـة جهودهم، ولا يدور في خلدي لحظةً انْ أَنتقص مـن هذه الجهود وهذا الجهـاد ؛ ولكنَّ النقد الذاتيَّ دليلُ عافيـة، والاعتراف بالواقع علامةُ قـوّة، والتطلّع الـى الأحسن والعمل مـن اجله بشيرُ صحة. وانّ من القـوّة والصحة والعافية ان نراجـع مواقفنا، ونتبيَّن مواقـع اقدامنا .

مـا العمـل ؟

تُقَصِّر الكلّيات العربيـة والانكليزية عن تأدية رسالتهـا كما ينبغي، لانها لا تُهيّىء الطالب للفهـم والتفاعل مع العلم الـذي يتعلّمه، بحيث يصير هذا العلم جُزءًا مـن شخصيّته وكيانه وحياتـه ؛ ففي كنفها يعيش

الطالب بشخصيتين : شخصية عربية حياتها ومعاملاتها بالعربية ، ولكنْ لا يتعلم بهذه اللغة،ومن ثمَّ فعلْمُه ليس عاملا على تهذيب لغة حياته ومعاملاته ؛ وشخصيةٍ محيَّرةٍ تُحاول ان تتعلّم بالانجليزية وهي لا تَفْهَمها،وتحاول ان تُعبِّر عن علمها بهذه اللغة فتتعثَّر . انها ازدواجيةٌ ذات وجهين : وجهٍ ساذج لا يوجَدُ ما يَصْقُلُه،ووجهٍ متخاذلٍ لا يَجد ما يبعث فيه نفحةً من ثقة او قبسا من قوّة .

وتُقصِّرُ الكلّياتُ العربية المحضة عن تأدية رسالتها كما ينبغي، لانها بمعزل عن ينابيع العلم . كان ينبغي ان يرافقَها جُهدٌ دائب لتعريب العلم ؛ اي تكوين اجهزة تَعْمَل باستمرار لنقل الفكر العلمي الى العربية ، كُتُبًا ومراجع ودوريات.وهذا يَقضي بإقامة مؤسسات للترجمة والتعريب، تقوم بجانب المؤسسات الاكاديمية التي تُعْنَى بتخريج المتخصّصين،سواء في العلم او في التكنولوجيا ، حتّى يستطيع الطالب والمعلم على السواء ان يصلا الى ينابيع المعرفة بلغتهم انى شاءوا .

ولكنَّ اقامة مؤسسات الترجمة التي تُمدُّنا بما نحتاج اليه من كتب ومراجع ودوريات مترجمة ومعرّبة،مشروعٌ يقتضي عملا دائبًا غير منقطع،لن يؤتي أُكُله على نحوٍ مُرضٍ في اقلَّ من نصف قرن . فهل ننتظر خمسينَ عاما حتى تتكاثر لدينا الكتب المترجمة في شتى فروع العلم،ثم نبدأ بتأدية رسالتنا ؟ لا ، فهنالك بالتأكيد حلٌّ وسط يُغني قبل تعريب العلم،ويمهِّد لتعريبه .

يقتضي هذا الحل الوسط ان يجري التعليم في الكلّيات العلمية على نحو كالآتي :

١ ــ في السنة الأولى الاكاديمية يتلقّى الطالب علومه الاساسية بالعربية وباستعمال كتب مترجمة ، أو غير مترجمة ، ويأخذ في كلّ فصل دراسي مساقا في اللغة الانكليزية ، يُعزِّزُه بالمصطلحات العلمية،ويزيده في هذه اللغة قوّة .

٢ ــ في السنة الثانية يُبدا تخصُّص الطالب، وفيها يتلقّى علومه بالعربيّة، الا مساقا واحدا في كل فصل يتعلمه بالانكليزية ، من موضوعات تَخَصُّصه .

٣ ــ في السنتين التاليتين يُجري تعليمُ الطالب بالعربية، مع التأكيد على استعمال مَراجِعَ اجنبية ؛ على ان يأخذ في كلّ فصل مساقا واحدا على الأقلّ من موضوعات تخصُّصه بالانكليزية . ويُنَظَّم استعمال الطالب للمراجع الأجنبية بحيث يغدو الرجوع اليها من مستلزمات تَخَرُّجه .

اذا جرى في الوقت نفسه ترجمةُ الكتب العلمية بنشاط ، أمكن تحقيق الهدف المنشود في وقت غير طويل .

اننا نعتقد انَّ مِثلَ هذا الحلّ الوسط اكثرُ فائدة للطالب العربي مما تنتجه الكلّيات العربية المحضة، والكلياتُ العربية الانكليزية ؛ وهو بالتاكيد اقلُّ خَطرا . انه يَضْمَن تقويةَ الطالب باللغة الانكليزية ، ثم هو نَهْجٌ مرنٌ قابل للتعديل، ولعلَّ مما يَلزمنا في هذه المرحلة من حياتنا انْ نُقَوّيَ الطالبَ في لغتين، لا واحدة، بالاضافة الى اللغة الأم .

الزاوية اللغوية :

أما وقد بان من الزاوية التربوية ايّ نَهْج ينبغي ان نسلك، فذلك هو القول الفصل .

ولكنَّ هنالك من يتساءلون : أتستطيعُ العربيَّةُ ان تَستوعِب لغة العلم والتكنولوجيا ؟

هل اللغةُ تَخْلِق الفكر ام الفكرُ يَخْلق اللغة ؟

وهنالك من يُجيبون، يتحدّثون عن مرونة العربية واشتقاقيّتها ، ومن تجربتها السابقة. وفي طيّات هذا الحديث وذاك تَرِدُ اقوالٌ هي مثارُ جدل ونَقْطُ حوار . وهذه كلُّها في تقديري معاركُ جانبيّة لا تَضُرّ

ولا تنفع ، فلكلّ لغـــة خصائصُها وعبقريّتها ؛ ونحن نعرف مـــن خصائص اللغة العربية وطواعيّتهـــا للفكرة الدقيقة ما قـــد يتّسع فيه مجال الحديث، ونخرج بـــه عما نستهدفه من هـــذه الكلمات .

ولكنَّ الخبرة الماثلـــة امامنا تشير الى انَّ لغـــاتٍ نجمت من لا شيء، وأُريدَ لها ان تنشـــا وليس لها من الخصائص شيء ؛ ثـــم هي بإرادة اهلها استَوعَبَت لغـــة العلم والتكنولوجيا ، لـــم تَضِق بها ولم تَخْنُقها .

ان مئاتِ الأقطـــار في الشرق والغرب تُعَلِّـــمُ بِلُغاتها، وتُسْهم في خدمة العلم على قـــدر طاقتها، وتُحرز انجازات ؛ واكثرُ هـــذه الاقطار لم تكن لغاتها ولا طاقاتهـــا حتى وقت قريب ذاتَ وزن فـــي المقاييس العالمية .

ومن التساؤلات التي تثـــار : هل نترجم أم نُعَـــرِّب ؟

قـــد لا يكون هنالك قاعدة ذهبية عامّة اولـــى من قاعدة وضعها المجمع اللغـــوي في القاهرة، اذ قال : الاصطلاح العالمي نُعَرِّبُـــه ، اما غيرُ العالمـــي فنبحث له عن لفـــظ عربي .

وقد اعتبروا الاصطلاح عالميًّـــا اذا كان يُسْتَعْمَل فـــي الانكليزية والفرنسيـــة والألمانيـــة .

على أن الاستعمال هـــو وحده الحَكَم في هذه الامور: فقـــد يشيع بالاستعمال لفـــظٌ اجنبيّ، ويَسْقُط لفـــظٌ عربيّ ؛ وذلك كله حسب ذوق الناس واستحسانهم اللفـــظ او استجاباتهم لـــه .

يبقى امر لا بـــد من ذكره لمـــن يتساءلون : هل تَتَّسع العربيةُ لغـــةً للعلم ، وأمام مـــن يجيبون تعزُّلاً بخصائصهـــا .

تُقَـــدَّرُ الكلمات المختلفة التي استعملهـــا شكسبير في مسرحياته بنحو ١٤ الـــف كلمة ؛ وعلى هذا نستطيع أن نَفْتَرض أن تلك هـــي سَعة اللغة الانكليزية في ايـــام شكسبير ، عندما كانت خلـــوًّا من الالفاظ العلمية، لانَّ لغـــةَ العلم في البلاد الاوروبية كانت مـــا تزال هي اللاتينية .

امـــا الآن فقد أُحصِيَتْ المصطلحـــاتُ الانكليزية التي تُستَعمل في حقل الطـــبّ العام وحده، دون فـــروع التخصص، فبلغت ٧٤ الفـــا .

ماذا يعني ذلـــك ؟ اذ نحسب ان اللغة الانكليزية قـــد اتسعت حتى بلغت المصطلحاتُ العلمية فيهـــا مئات الآلاف، تَسترعي انتباهَنـــا احصائيةٌ اخرى تشير الى انَّ معظم هـــذه المصطلحات هي نفسها فـــي الفرنسية والالمانيـــة . إنّ لغات البلاد المتقدّمة قـــد تفتّحت بعضُها على بعض، وتعاونت معـــا في استيعاب الأفكار العلميـــة .

ان العلم ينمـــو بأسرع ممّا تنمو اللغة ، بـــل بأسرع من خيال الشعراء ؛ وإنَّ كـــلّ لغة لتضيق عن استيعاب العلـــم او مجاراته . ولهذا تلهثُ اللغاتُ وراء العلـــم، ويَضيقُ العلماء بِلُهاثها فَيلجأون الـــى الرمزيـــة يعبّرون بهـــا عن افكارهم .

امـــا رجالُ اللغة فيأخذُ بعضُهم مِـــن بعض دون تَحَرُّج، وهـــم يَعتَزّون بمـــا يأخذون ويُعَدّونه إثراء لِلُغتهـــم .

واني اتمنّى لـــو نَنْسج نحن على هـــذا المنوال، فنأخذ عن اللغات دون تَحَرُّج الفاظـــاً وطُرُقَ تعبير، ونُعَدّ ذلك إثـــراء للعربية نعتزّ بـــه ؛ وذلك كيما نواكب التقـــدُّم العلميّ، ونُساير الركب، ونعترف عمليّـــاً وواقعيّاً بأن اللغة كيـــان متطور .

هـــذا ما صَنَعَه اجدادُنا عندما قاموا بِنَقْل الفكـــر العالميّ الى العربية، ومـــاذا يضيرنا ان تأخذ العربيّةُ من الـــدم العالمي الحديث كما اخذت في المـــاضي من الدماء الفارسيّـــة والهندية والإغريقية ؟

الزاويـــة القوميّة الوطنية :

اذا شئنا ان نتناول الموضـــوع من كلّ جوانبَه ، فلا بُـــدّ من النظر فيه من الزاوية القوميّـــة والوطنية . وهنا يَتّســـع مجال الحديث ؛ فحاملو لـــواء القوميّة والوطنية يقولون إن لغتنـــا هي هويّتنا، وهي مرآة شخصيّتنـــا العريقة المُمَيّزة ، ثـــم ان الاسلام والعربية همـــا اللذان يحفظان للأمـــة وحدتها، رغم ظواهر التفـــرق والتشرذم التي تنجم

لاسباب سياسية . وعلى هـذا فَهُم يرون أن تعريـب التعليم واجب قومي وطني، بـه نحافظ على هُويّتنا وشخصيّتنا، وبـه نقوّي روابط وحدتنـا .

ولكنَّ مِن النـاس مَن يجادلون، فَيُشيرون الى بـلاد متفرّقة رغم أنها تتكلم لغـة واحدة، ويشيرون الى بـلاد مُتَّحِدَة رغم أن فيهـا لغتـين رسميتـين .

وفي تقديري أن الخوض في هذيـن الرأيين، وتفاصيل مـا لهما وما عليهما، يُخرج بنـا عن موضوع التعريـب .

وفي يقيني أنَّه لـو وَقَف كلُّ اصحاب الرأي ضـدَّ العمل من أجل وحدتنا وتوحيدنا، لوجـب ألاَّ يعوق ذلك العمل من أجـل الوحدة، لان بهـا بقاءنا وتكاملنـا وقوتنا .

ولكنَّ لذلـك حديثا آخـر .

نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه

للمستشرق الفرنسي الأستاذ جيرار تروبو
استاذ فقه اللغة العربية في السوربون - باريس

لا شكَّ ان النظـــام النحويّ في كل لغـــة له اهمية كبرى ، لان النظام النحويّ يعبر عن بُنْيـــة اللغة ويصوغ فكر الناطقين بهـــا ؛ ويُمْكِنُنا القول إن النظـــام النحويّ العربيّ يحتلّ محـــلاً بارزا بين النُظُم النحوية الكبرى الموجـــودة في العالم ، من اجل موقعـــه المتوسِّط بين النظام اليوناني، في الغـــرب، والنظام الهندي، في الشرق ؛ فكان مـــن الطبيعيّ ان يلفت المستشرقون انظارهم اليـــه ، ليدرسوا نشأته وتطوُّره .

ان المستشرق الالمـــاني Merx ، الـــذي نشر في منتهى القرن التاسع عشر كتابا عنوانـــه « تاريخ صناعة النحـــو عند السريان » ، هو الذي زعـــم لأول مرة ان المنطق اليونانـــي أثَّر في النحو العربي ، لان الثاني قـــد اقتبس من الأول بضعـــة من المفاهيم والمصطلحات .

ثـــم نرى معظم المستشرقين قـــد اتخذوا هذا الراي بدون تحفُّظ ؛ فقال المستشرق الفرنســـي Fleisch في كتاب ألّفـــه في علـــم اللغة : « انه مـــن الواجب أن نشير الى تأثيرٍ يونانيّ في النحـــو العربي ، فقد اقتبس الفكـــرُ النحويّ العربي مفاهيم أصلية من العلـــم اليوناني ، لا من النحـــو اليوناني ، ولكنْ من منطق ارسطـــو » .

غير انَّ المستشرق الانكليـــزي Carter رفَضَ هذا الـــراي في مقالة نشرها منذ عدة سنوات، وسمَّاها : « في اصول النحـــو العربي » . فَبَيَّن في هذه المقالـــة انّ سيبويه يستعمل في الكتـــاب مجموعتين من المصطلحات ؛ مجموعـــة قليلة العدد تتضمّن مصطلحاتٍ لعلَّهـــا يونانية الأصل ، ومجموعة كثيرة العـــدد تتضمن المصطلحات العربيـــة الاصل ، منقولة من الفقـــه الى النحـــو .

ومع ذلك فان المستشرق الهندي Versteegh نشر في مستهلّ هذه السنة ، كتابا عنوانه « العناصر اليونانية في الفكر اللساني العربي » ، يدافع فيه عن نظريّة التأثير اليوناني في النحو العربي ، فيعتبر ان النُحاة العرب القدامى قد اقتبسوا بضعة من المفاهيم والمصطلحات ، لا من المنطق اليوناني ، كما زعم Merx ، بل من النحو اليوناني ، وذلك بواسطة اتّصالهم المباشر باستعمال النحو اليوناني الحيّ،كما يقول ، في مراكز الثقافة اليونانية الموجودة في الشرق الأدنى بعد الفتح العربي .

فسأود في هذه المحاضرة أن افحص تلك الآراء المتناقضة في نشأة النحو العربي ؛ وهذا في ضوء كتاب سيبويه ، الذي سمّاه الناس "قرآن النحو" حسبما روى عنه النحوي الحلبي أبو الطيّب اللغوي .

* * *

ان المستشرقين ، لِيُبيّنوا التأثير اليوناني في النحو العربي ، يحتجّون على العموم بأن النُحاة العرب القدامى قد اقتبسوا من المنطق اليوناني تقسيم الكلام الثلاثي ، ومصطلحاتٍ أربعة هي : الإعراب والصرف والتصريف والحركة . فينبغي لنا أولا أن نتساءل: هل كان من الممكن ، من الناحية اللسانية ، أن يكون هؤلاء النحاة قد اقتبسوا هذا التقسيم .

إنّ تقسيم الكلام أمر مهمّ جدا في كل نظام نحوي ، لانه يشترط هذا النظام ، وبالنسبة الى بُنية كل لغة،مَيّز النحاة عددا مختلفا من الاقسام . فان النحاة اليونان قد مَيّزوا في لغتهم ثمانية اقسام،وهي، حسبما قال أرسطو في كتابه في الشعر : الحرف : stoikeion

المجموع : syllabe | الرباط : syndesmos الفاصلة : arthron
الاسم : onoma الكلمة : rhema الوقعة : ptosis القول : logos

أما النحاة العرب فانهم،كما تعلمون،لم يميّزوا في لغتهم الا ثلاثة أقسام،وهي، حسبما قال سيبويه في الكتاب : الاسم والفعل والحرف .

ولكنْ ، على الرغم من الفرق الكبير الذي يظهر بين عدد الاقسام في النظامين ، يُدَّعي بعض المستشرقين ان النحاة العرب قد اقتبسوا هذا التقسيم عن المنطق اليوناني . فلنَسْتَطيع ان نَرُدَّ على هذا الادّعاء الفاسد ، سنبحث عن كل واحد من هذه الاقسام في النظام اليوناني ، وعن القسم المقابل له في النظام العربي .

ليس لقِسْم الحرف اليوناني قِسْم يقابله في النظام العربي ، لأنَّ سيبويه لم يجعل حروف الهجاء قسما مستقلاً في تقسيمه، كما فعل ارسطو . وكذلك ليس لقسم المجموع اليوناني قِسْم يقابله في النظام العربي ، لان مفهوم المجموع المركّب من حرف غير مصوَّت وحرف مصوَّت ، مفهوم صوتيّ يختلف عن مفهوم الحرف الساكن والحرف المتحرك الذي نجده عند سيبويه .

اما قسم الرباط اليوناني فانه لا يقابلُ الا جزءًا من قسم الحرف العربي ؛ ونجد فرقا بينهما ، لأنّ الرباط عند ارسطو لفظ خالٍ من المعنى ، بيد أن الحرف عند سيبويه لفظ له معنى .

يشتمل قسم الفاصلة اليونانيّ على آلة التعريف والاسم الموصول ، وهما عند ارسطو لفظان خاليان من المعنى؛ فليس لهذا القسم قسم يقابله في النظام العربي ، لأنّ سيبويه يَعْتَبر ان الاسم الموصول اسمٌ غير تامٍّ، يحتاج الى صلة، فيدخله في قسم الاسم ، كما انه يَعْتَبر ان آلة التعريف لفظ له معنى، فيدخله في قسم الحرف .

اما قسم الاسم اليوناني فانه يقابل قسم الاسم العربي ، غير اننا نجد فَرقًا بين القسمين ، لان الاسم عند ارسطو لفظ له معنى يدل على شيء ، بيد أن الاسم عند سيبويه لفظ يقع على الشيء، فهو ذلك الشيء بعينه .

وكذلك يقابل قسمُ الكلمة اليوناني قسمَ الفعل العربي ؛ فالكلمة عند ارسطو لفظٌ له معنى يدلّ على زمان ، والفعل عند سيبويه مثال أخذ من لفظ حدث الاسم ، فيه دليل على ما مضى وما

لـــم يمض ؛ غير اننا نجد فرقـــا بين القسمين ، لان الصيغة غـــير المبيَّنـــة aparemphatos مضمَّنة في قســـم الكلمة اليوناني ، بيـــد ان المصدر مضمَّنٌ في قسم الاســـم العربي ، كما ان الصيغـــة المشتركة metochikon مضمَّنة في قسمي الاســـم والكلمة معا في النظام اليوناني ؛ بيـــد ان اسم الفاعل مضمَّن في قســـم الاسم فقط في النظـــام العربي .

واخيرا، فليس لقســـم الوقعة اليوناني قســـم يقابله في النظام العربي ، لان مفهـــوم الوقعة التي تحدث فـــي آخر الاسم او في آخر الفعل ، مفهوم غـــير موجود عند سيبويه ؛ وكذلك قســـم القول ، الذي هو عند ارسطـــو مركَّب من الفاظ لها معنى ، ليس لـــه قسم يقابله في النظـــام العربي ، لأنّ سيبويه لـــم يجعل من القول قسما مستقـــلا فـــي تقسيمـــه .

فمن الناحيـــة اللسانية ، يظهر لنـــا انه من المستحيل ان يكون التقسيم العربيُّ منقولا مـــن التقسيم اليوناني ، لان عـــدد الاقسام ومضمونها يختلف فـــي النظامين اختلافا تامـــا .

ثـــم يجب علينا أن نتساءل هـــل كان من الممكن ، من الناحيـــة اللغوية ، أن يكون النحـــــاة العرب القدامى قـــد اخذوا عن النحو اليونانـــي تلك المصطلحات الاربعـــة التي هي : الاعـــراب، والصرف، والتصريـــف، والحركـــة .

يزعم أتْباع التأثـــير اليونانيّ ان كلمة الإعراب نُقلـــت من الكلمة اليونانيـــة hellenismos . مـــا معنى هذه الكلمة في اصل اللغـــة اليونانية ؟ hellenismos اســـمُ فِعلٍ يوناني تعريبه، هَلَّـــنَ شيئا تهلينـــا ،اي صيَّره هِلّينيًّـــا .

قـــال ارسطو في كتابه في الخطابة : « ان اصـــل الكلام هو الوجه الهلّيني في التكلم" ، اي الوجـــه الصحيح الذي يحصل عليـــه بمراعاة خمســـة اشيـــاء :

١ ــ باستعمال الروابــط،اي حروف العطــف ،

٢ ــ باستعمال الكلمــات الخاصة ،

٣ ــ بعــدم استعمال الكلمــات الملتَبِســة ،

٤ ــ بتمييز الأجناس في الأسمــاء ،

٥ ــ بتمييز الأعــداد فيهــا .

ويــرى فيلسوفٌ رواقيٌّ ان التهلــين هو التكلم الصحيح علــى وجــه الصناعة ، لا على وجــه العامة .

فنلاحظ أن الكلمــة hellenismos كلمــة عامة تختصّ بالكلام برمّتــه ؛ فانها اصطلاح خطابي وليس باصطلاح نحــوي .

امــا معاني الإعراب في أصل اللغــة العربية فهي ثلاثــة : أولا الإبانــة والإفصاح عن الخواطر ، ثانيا إزالــة الفساد في الكلام ، ثالثا تغير آخــر الكلمة .

فقــال ابن جني في كتاب الخصائص : « وكــأن الاعراب مــن قولهم : عربت معدتــه اي فسدت ، كأنها استحالت مــن حال الى حال ، كاستحالة الاعراب مــن صورة الى صورة » . وقال ابــن الأنباري في كتاب اسرار العربيــة : « ان الإعراب سُمّي إعرابا لانــه تَغَيُّرٌ يلحق اواخر الكلم ، مــن قولهم : عربت معــدة الفصيل اذا تغيرت » .

والواقع ان سيبويــه يستعمل كلمة الاعراب ليَــدلّ على ما يسميه « مجاري اواخر الكلــم »،يعني التغيُّرات التي تَحدُث في آخــر الاسم المتمكــن،والفعل المضارع لاســم الفاعل . والاعراب عنــد سيبويه نقيض البنــاء الذي يدلّ على عدم التغيّر في آخــر الكلمة .

فنلاحــظ ان الإعراب كلمة تختص ببعض الكلمات فقــط في الكلام ، فانها اصطلاح نحــوي وليست باصطلاح خطابــي .

ثــم يَدَّعي انصار التأثير اليوناني ان كلمــة الصرف نُقلت من

الكلمة اليونانيـــة klisis ، وان كلمة التصريف نُقلـــت من الكلمة اليونانيـــة ptosis . ما هو السبب الـــذي دفعهم الى هـــذا الادعاء ؟ السبب هـــو ان النحاة اليونان كانـــوا يعتبرون ان الاسم ، بالنسبة الى حالته الاصلية التي هي حالـــة التسمية onomasticos ، لـــه ميل klisis الى حالات اخرى ، كمـــا ان الفعل بالنسبة الى حالته الاصلية التـــي هي حالة الحاضر enestos ، لـــه ميل الى حالات اخرى ؛ وكـــان النحاة اليونان يسمّون كـــل واحدة من هذه الحالات المتغيرة وقعـــة : ptosis

قـــال ارسطو في كتابه في الشعر : « امـــا الوقعة فهي للاســـم او الفعل ، وتدل علـــى معنى حرف « ل » او حـــرف « الى » وما اشبه ذلك ، او على الإفـــراد او الجمع او نوع كـــلام القائل ، مثل الاستفهام او الأمـــر » .

وقال في كتابـــه في الخطابة : « تَغَيُّرات الاسم المـــائل هي وقعات الاسم ، كما ان تغيُّرات الفعل المـــائل هي وقعات الفعل » .

امـــا معنى كلمة الصرف في كتـــاب سيبويه،فان هذه الكلمة تدلّ على إلحاق حـــرف النون للاسم،وللاسم فقـــط ، لان هذا الحرف علامة التمكّن ، يعني استـــقرار الكلمة في قسم الاســـم .

وامـــا معنى كلمة التصريف فَيَسْتَعمِل سيبويـــه هذه الكلمة للدلالة على التغيُّرات التي تَحـــدُث في داخل الكلمة،فانه لا يستعملها ابـــدا للدلالة على التغيُّرات التـــي تَحدُث في آخـــر الكلمة .

فنلاحـــظ ان مفهوم الميـــل ومفهوم الوقعة غير موجودين فـــي النظام العربي ، كما ان مفهـــوم التمكّن ليس بموجود في النظام اليوناني .

ثـــم يزعم أتباعُ التأثير اليونانـــيّ أن كلمة الحركة تُرجِمَت من الكلمة اليونانيـــة : kinesis ، وذلك لان بعض النحـــاة اليونان حَدّدوا الوقعة بأنها حركـــة تَحْدُث في آخر الاســـم ، فيستنتجون من هذا التحديد ان الحركـــة عند النحاة العرب كانت تَـــدلّ في الاصل على

المصوت الاساسي ، يعني ذلك المصوت الذي يشير الى الوقفة في آخر الاسم ، ومن ثم استُعْمِلَت هذه الكلمة بصفة عامة للاشارة الى المصوت .

نلاحظ اولا أن مفهوم التحريك في النظام الصوتي العربي لا يتفق ابدا ومفهوم التصويت في النظام الصوتي اليوناني ؛ فان ارسطو يقسم الحروف الى مصوَّتة ونصف مصوتة وغير مصوتة ، بيد ان سيبويه يقسم الحروف الى متحركة وساكنة .

ثم نلاحظ ان كلمة الحركة عند سيبويه تدلّ على حركات الشفة، من الضم والفتح والكسر، او على حركات اللسان، من الرفع والنصب والجر او الخفض ، عند اخراج الصوت ؛ أَتَحْدُث هذه الحركة في صدر الكلمة ام في وسطها ام في آخرها ، فان الحركة في نظام سيبويه كلمة عامة ، لا تدلّ على آخر الاسم المعرب ، لانها تُسْتَعْمَل ايضا لتدلّ على آخر الاسم المبني غير المعرب ، ويمكن ان تكون كلمة معربة مجرّدة من الحركة ، كالفعل المضارع المجزوم مثلا .

من الناحية اللغوية ، يبدو لنا انه من المستحيل ان تكون هذه المصطلحات الأربعة منقولة من اليونانية الى العربية ، لان المفاهيم التي تدلّ عليها تتباعد في النظامين كل التباعد

* * *

يجب علينا الآن أن نتساءل، هل كان من الممكن، من الناحية التاريخية، ان يُعرف النحاةُ العرب القدامى النحوَ اليوناني والمنطق اليوناني فيتأثروا بهما ؟

أما النحو اليوناني فلم يستطع النحاة القدامى ان يعرفوه بطريقة مباشرة ، اذ انهم كانوا يجهلون اللغة اليونانية ، ولم يكن لديهم كتاب في النحو اليوناني مترجَم الى اللغة العربية ، فلم يستطيعوا اذن ان يعرفوا النحو اليوناني الا بواسطة النحو السرياني . فعلينا

ان نبحث عن العلاقات الموجودة بين النحو السرياني والنحو اليوناني من جهة ، والنحو العربي من جهة اخرى .

كان النظام النحويّ السريانيّ مرتكزا على الاقاويل الخمسة التي مَيَّزها منطق ارسطو في الكلام ؛ وهي حسبما قال ايليا بن شينايا : السؤال، والامر، والدعاء، والتعجب، والنداء .

فاخْتَرَعَ النحاة السريان نظام النُقَط ، يعني نظام العلامات التي تقابلُ في الكتابة الاشارات الدالّة على تلك الاقاويل في المشافهة . ثم يرتكز هذا النحو على القواعد الصوتية والصرفية التي اقتبسها السريان من كتابٍ في النحو اليوناني كان قد تُرْجِم الى السريانية .

اما النحاة السريان فنقتصر على ذكر اشهرهم، وهم ثلاثة :

في القرن السابع : الاسقف يعقوب الرهاوي ، الذي صَنَّف الكتاب الاول في النحو السرياني ،

في القرن التاسع : المترجم المعروف حنين بن اسحاق ، الذي الَّف كتابا في النحو سماه « كتاب النُقَط » ،

في القرن الحادي عشر : ايليا بن شينايا ، مطران نصيبين ، الذي صَنَّف كتابا صغيرا في النحو .

اما تعليم النحو السرياني فكان منتشرا في اديرة السريان ومدارسهم ، كمدرسة دير قنى المشهورة ، بالقرب من المدائن ، وكالمدارس العديدة التي كانت موجودة في الحيرة عاصمة العباد ، بالقرب من الكوفة . غير اننا لا نجد اي دليل في المصادر السريانية ، ولا في المصادر العربية ، على ان النحاة العرب القدامى قد اتصلوا بالنحاة السريان ، او تَعَلَّموا اللغة السريانية .

وفضلا عن ذلك ، كان النحاة السريان انفسهم يَعتبرون ان النحو العربي يَختلف عن النحو اليوناني من جهة ، وعن النحو السرياني من جهة اخرى ، اختلافا تاما . ومما يدل على ذلك ان

حنينا بن اسحاق ألّف كتابا في النحو العربي ، على المنهاج اليوناني ، سمّاه « كتاب احكام الإعراب على مذهب اليونانيين ».وقد ذكر الخوارزمي فصلا صغيرا منه في كتاب مفاتيح العلوم . وصنّف حنين كتابا آخر في النحو العربي ، زعم فيه ، حسبما روى عنه ايليا بن شينايا : « ان العرب ليس لهم نحو يُعرفون به المعاني الغامضة كما للسريانيين"، ويستدل من قوله ان نحو العرب غير كاف ولا مقنع لما يحتاج اليه » .

أما ايليا بن شينايا فأفرد مجلسا من المجالس التي جَرت بينه وبين الوزير الحسين بن علي المغربي ، بمقارنة نفيسة بين النحو العربي والنحو السرياني ، يوضح فيها الفرق بين النظامين ، كما يدلّ على ذلك الحوار التالي بين الرجلين :

« قال الوزير : اترفعون الفاعل وتنصبون المفعول كما تفعل العرب ؟ قلت : لا .

قال : فكيف تعرفون الفاعل من المفعول ؟ قلت : يُدخل السريان على المفعول حرف اللام ليُفَرِّق بينه وبين فاعله ؛ ولما كان العرب انما يرفعون الفاعل وينصبون المفعول ، ليفرّقوا بينهما،وكان للسريان علامة تَدُلّهم على الفرق بين الفاعل والمفعول هي ابين من الرفع والنصب ، ما احتاجوا أن يرفعوا الفاعل وينصبوا المفعول كما تفعل العرب » .

فيدلّ كلُّ ذلك على أن النحو اليوناني لم يستطع أن يؤثر على النحو العربي بواسطة النحو السرياني ؛ وبعكس ذلك ، في القرن الحادي عشر ، نرى ايليا مطران طيرهان يصنّف كتابا في النحو السرياني يُدخِل فيه النظام العربي ؛ فالنحو العربي هو الذي اثر في النحو السرياني .

أما المنطق اليوناني فلم يستطع النحاة القدامى ان يعرفوه في القرن الثاني للهجرة،الثامن للميلاد ، اذ أن تآليف ارسطو لم تنقل

بعد الى اللغـــة العربية ؛ فاننا نعلم ان الكتاب فـــي العبارة والكتاب في المقولات لـــم يُتَرجَما الا في القرن الثالث للهجـــرة ، التاسـع للميلاد ، على يـــد حنين بن اسحاق ؛ كما نعلـــم ان الكتاب في الشـعر لم يُترجَم الا في القرن الرابـــع للهجرة ، العاشر للميلاد ، على يـــد مَتّى بن يونس .

واذا اطَّلَعْنا على هـــذه الترجمات لاحظنا ان المترجِـــمَ السرياني لـــم يَسْتَعْمِل مصطلحات النحـــو العربي ليترجِمَ مصطلحات النحـــو اليوناني، ولكنه اختـــرع مصطلحات عربيـــة جديدة .

فانه ترجم اللفظـــة stoikeion بأسطقس ، ولـــم يترجمها بحرف ، وترجم اللفظـــة syndesmos برباط ، ولم يترجمها بحرف ، وترجم اللفظـــة rhema بكلمة ، ولـــم يترجمها بفعل ، وترجم اللفظـــة klisis بميل ، ولـــم يترجمها بإعراب ، وترجم اللفظـــة phone بمصوَّت ، ولـــم يترجمها بحركة .

وفي القـــرن الرابع للهجرة ، العاشر للميـــلاد ، نرى الفلاسفة العرب يخترعون مصطلحات جديـــدة ، ليُفَسِّروا كتب المنطـــق اليوناني في اللغة العربية . فـــان الفيلسوف المنطقيّ الكبير ، ابـــا نصر الفارابي ، يقول في كتاب الالفـــاظ المستعملة في المنطق ، بصـــدد حروف المعاني :

« ان هـــذه الحروف هي اصناف كثيرة ، غـــير ان العادة لم تَجْرِ في اصحاب علـــم النحو العربي الى زماننا هـــذا ، بأن يُفْرِد لكل صنف منها اسمٌ يَخُصُّـــه ؛ فينبغي ان نستعمل في تعديـــد اصنافها الاسامي التـــي تأدت الينا عن اهـــل العلم بالنحو من اهـــل اللسان اليوناني ، فانهم افردوا كـــلّ صنف منها باسم خـــاص » . فاخترع الفارابي خمسة مصطلحات ليدلّ على هـــــذه الاصناف من حروف المعانـــي ، وهي : الخوالف، والواصـــلات ، والواسطات ، والحواشي، والروابـــط .

وفي نفس الحقبة ، يروي لنـــا الفيلسوف ابو حيّـــان التوحيدي ، في كتاب الامتـــاع والمؤانسة ، مناظرة مشهورة جرت بين متّى بـــن يونس المنطقي وابـــي سعيد السيرافي النحـــوي ؛ فمما يبيّن ان

متّى كان يعتبر أن المنطق ليست لـه صلة بالنحو ؛ الحوار التالـي بـين العالمـين :

« قا لأبـو سعيد : أسألك عن معاني حرف واحـد،وهو دائر في كلام العرب،وهـو الواو ، ما أحكامه،وكيـف مواقعه،وهل هو على وجـه أو وجوه ؟ فبهت متـى وقال : هذا نحو،والنحو لم أنظر فيه ، لانه لا حاجة بالمنطقي اليـه ، وبالنحوي حاجة شديـدة الى المنطق ، لان المنطـق يبحث عن المعنى،والنحـو يبحث عن اللفـظ » .

فيدلّ كـلّ ذلك على أن المنطقيين السريان والفلاسفـة العرب كانوا يشعرون بأن النحـو العربي لا يتعلق بالمنطق البتّـة .

فمـن الناحية التاريخية ، يظهر لنا أنـه من المستحيل أن يكون النحاة العرب القدامى قـد عرفوا النحو اليوناني والمنطـق اليوناني فتأثروا بهمـا في نظامهـم .

* * *

ينبغي لنـا اخيرا ، أن نتساءل،هل كـان من الضروري ، مـن الناحيـة المنهاجية ، أن يكـون النحاة العرب القدامـى قد اقتبسوا بضعة مصطلحـات من النحـو اليوناني ؟

فـاذا اطلعنا على كتاب سيبويه ، لاحظنا ان لغتـه غنيّة جدًّا ، لانه يستعمل عـددا وافرا من المفردات ليعرض نظامـه النحوي . ولكنّنا لم نكن نعلـم بالضبط مبلغ هذا العـدد ؛ فعزمتُ أن أُحصي جميع المفـردات التي استعملها سيبويه في لغتـه الشخصية دون لغـة الشواهد القـرآنية والشعرية ، فوجدت أن عددها يبلغ : ألفـا وثمانمئـة وعشريـن .

مـا هي المعلومات التي نستطيع أن نستنتجها من هـذا الاحصاء ؟

اذا ضربنا صفحا عـن المفردات المستعملة في معناها العـام ، بدون معنـى اصطلاحي ، وعددها مئتـان وعشرون فقط ، استطعنا أن نُميِّز في الكتـاب خمسة أنواع من المفـردات :

اولا : المفـــردات التي تتعلّق بالمفاهيـــم النحوية العامة ، يعني : باقسـام الكلام وانـــواع الالفاظ واحوالهـــا .

ثانيا : المفـــردات التي تختص بتركيب الجُمَـــل ، يعني بمواضع الالفاظ في الكـــلام ومجراها من ناحية العمـــل .

ثالثا : المفـــردات التي تتعلق بالتصريـــف ، يعني بتغيير الالفـــاظ في اللغـــة وصياغتها بالاشتقـــاق .

رابعا : المفـــردات التي تختص بالصوتيـــة ، يعني باخـــراج الاصوات ومجراهـــا في بنيـــة الالفاظ .

خامسا : المفـــردات التي تتعلق بالمنهـــاج ، يعني بالمفاهيم التي يستعملها سيبويـــه ليفسّر الوقائع النحويـــة والوسائل التي يستعملها ليوضحهـــا .

امـــا توزيع تلك المفردات العددي ، فـــانّ المفردات التي تتعلّق بالمنهـــاج هي الأكثر ، وعددها ستمئـــة وخمسون ، ثـــم تتبعها المفردات التي تختص بالمفاهيـــم العامة ، وعددها ثلاثمئـــة وتسعون ، ثـــم المفردات المتعلقة بالتصريف والتـــي تساوي المفردات المتعلقـــة بالصوتية ، وعددها ثلاثمئـــة وعشرون ، واخيرا المفـــردات التي تختص بالتركيب ، وعددها مئتـــان وخمسون .

فمن البـــيّن انّ عددًا وافرًا من المصطلحات النحويـــة كان تحت تصرف النحاة العـــرب القدامى ؛ فمن المستحيـــل أن يكونوا قد احتاجوا الى اقتباس بضعةٍ مـــن المصطلحات الأجنبية ، يونانيةً كانت أم سريانية ؛ فما تعني تلـــك العَشَرة من المصطلحات التي يزعـــم المستشرقون ان النحاة العرب قـــد اقتبسوها من اللغـــة اليونانية ؟ ما تعنـــي تلك العَشَرة بالنسبة الى المئـــات والمئـــات من المصطلحات التي كانـــت متداولَةً في لغتهـــم ؟

اظـــنُّ ان المستشرقين قـــد اخطأوا عندما اعتمدوا على بضعة مـــن مصطلحاتٍ يونانيـــة ليبرهنوا على مضارعـــة النظام العربي

النظام اليوناني . لانَّ كلّ واحد من المصطلحات جزء من نظام معقّد ، ليس لـه معنى ، خارجا عن هـذا النظام .

* * *

لقد بيّنّا انه من المستحيل ان يكون النحو العربي القديم قد اقتبس مصطلحاتٍ من النحو اليوناني ، وذلك من جميع النواحي : من الناحية اللسانية ، ومن الناحية اللغوية ، ومن الناحية التاريخية ، ومن الناحية المنهاجية . غير انه تَبقَّى علينا الاجابة على هذا السؤال : كيف نشأت هذه المصطلحات التي نرى سيبويه يستعملها في كتابه ؟

اذا فحصنا الكتابَ وجدنا ان سيبويه لم يُحدِّد المصطلحات التي يستعملها ؛ فهذا يدلّ على انه لم يَخْلِق مصطلحات جديدة ، وانه يستعمل تلك التي استعملها قَبْلَه النُحاة القُدامى الذين يذكرهم في الكتاب ؛ كما يدلّ ذلك على ان معاصريه كانوا يفهمون تلك المصطلحات بدون صعوبة وبدون تفسير ؛ لماذا ؟

لانه من المحتمل ان سيبويه استعمل المصطلحات المشتركة بين العلوم الاسلامية الأصليّة التي هي : القراءات،والحديث،والفقه، والنحو . وقد تكوّنت تلك المصطلحاتُ في وقت واحد في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة ، الثامن للميلاد ، في مِصْري العراق المسلِمَين ، البَصرة والكوفة ، فكان القُرّاء والمحدِّثون والفقهاء والنحاة يستعملون نفس المنهاج ونفس المفاهيم ونفس المصطلحات ، لانهم كانوا يقصدون الى نفس الهدف الذي هو سلامة لغة التنزيل الإلٰهي والحديث النبوي .

ويُمْكِنُنا القول إن النحو ، منذ بدايته ، كان مرتبطا بالحديث والفقه ، اذ ان كتب اخبار النحويين تروي لنا عن نصر بن عاصم الليثي ، وهو أول من وضع العربية بعد ابي الاسود ، انه كان فقيها عالما بالعربية والحديث ، كما انها تروي لنا عن يحيى بن يعمر ؛

وهو أول مَن نَقَّـط المصاحف ، انـه كان ايضا فقيها عالمـا بالعربية والحديـث .

فكان العلماء ، في غالـب الاحيان ، يتلقّون جميـع العلوم الاسلامية قبل ان يتخصّصوا في واحـد منها . فنعلم مثلا ان النحـوي المشهور الخليل بن احمـد ، وهو واحـد من اساتذة سيبويه ، قبل أن ينصرف الى النحو ، تَعلَّم الحديث والفقـه عن ايوب السختياني ، الـذي كان فقيهـا من فقهاء البصرة ومحدّثـًا من محدّثيها .

وكذلك ، نعلـم ان سيبويه قَدِمَ البصرة ليكتـب الحديث ، فلزم حلقة حماد بـن سلمة ؛ ويروى عنه انـه بينما كان يستملي على حماد قول النبي صلى اللـه عليه وسلم : « ليس من اصحابـي الا من لو شئت لأخذت عليه ليس ابـا الدرداء » فقال سيبويه : « ليس أبو الدرداء » وظَنَّه اسم ليس ، فقـال حماد ، لَحنتَ يـا سيبويه ، ليس هذا حيث ذهبت ، وانمـا « ليس » ههنـا استثناء ؛ فقال سيبويه : سأطلـب علمـا لا تلحنني فيه ؛ فلـزم الخليل فبرع .

وكذلـك ، يُرْوَى عن حمـاد بن سلمة انه كان يقول : « من لحـن في حديثي فقـد كذب » ؛ فَتَدُلُّنا هذه الروايـة على العلاقات الوثيقة التي كانت تربـط الحديث بالنحـو .

وكـان العلماء القدامى يُعتبرون ان النحـو اول العلوم الاسلامية واسبقها ، فكانـوا يفضّلونه على العلوم الاخـرى ؛ وذلك لان النحوَ العلمُ الاساسي الـذي يحتاج اليه جميع العلوم ، والـذي لا يستغني عنـه عالـم .

فَيُرْوَى عن ايـوب السختياني انـه قال : « تَعلّموا النحو فانه جمال للوضيع وَتُرْكُـه هجنة للشريف » ، كما يُروَى ايضا عن حمـاد بـن سلمة انه قال : « مَثَلُ الذي يطلب الحديـث ولا يعرف النحـو ، مَثَلُ الحمار عليـه مِخلاةٌ لا شعير فيهـا » .

وفي الختام ، فأنا أعتقد ان علـم النحو أعربُ العلوم الاسـلامية ، وابعدُها عن التأثير الأجنبي في طـوره الأول ، كمـا حاولتُ ان أُبيِّن ذلك في ضوء كتـاب سيبويه ، ذلك الكتاب المشهـور الذي هو أقدم كتـب العـرب في النحـو .

العشرينيات والعشرينيات

للدكتور ناصر الدين الأسد

- ١ -

تجري الالسنة والاقلام من حين الى حين بتعبيرات والفاظ لا تلبث ان تشيعَ من خلال الصحف والاذاعات والتاليف شيوعا يستوقف الحريصين على سلامة اللغة ونقائها ، فاذا هم يُطيلون البحث فيها والطواف حولها ليتحققوا من صحتها،ومن انها جارية مجرى كلام العرب في الاستعمال،او في القياس،او فيهما معا . وما اكثرَ ما صَدَرَ من كتب في القديم وفي الحديث،بَناها مؤلفوها على تَتَبُّع هذه التعبيرات والألفاظ،وبيان ما فيها من خطأ،والتنبيه على الصحيح الذي يجب استعماله مكانها .

وهذا بابٌ من العلم ظاهِرُه اليُسرُ والاغراء بالدخول منه ، وباطِنُه محفوف بالمزالق والمكاره ، اذ لا بُدَّ للمتوغّل فيه من ان يكون محيطاً بكلام العرب او باكثره ، بصيرًا باساليبهم ، عالِمًا بشعرهم ونثرهم على مر العصور وتَعَدُّد البيئات ، حافظًا ، ذاكرًا ، قادرًا على الاستشهاد وضرب المثل والإدلاء بالحجّة . واين مَن يَدَّعي لنفسه كلَّ هذا او بعضَه ؟

ومن اجل ذلك كَثُرَت الكتب التي أَلَّفها اصحابها للردّ على مؤلفي الكتب السابقة ، وبيان ما وقعوا فيه من تَسَرُّع الى التخطئة ، وتوضيح وجه الصواب فيما ظَنّوه وهْمًا او مخالفا لكلام العرب .

وكلا الفريقين من العلماء لا يَنْتَقِصُ من علم احدهم انه اخطأ في اجتهاده ، ولا يَعيبُه انه غاب عنه امرٌ عرفه غيره ؛ ولهم جميعا الاجر والثواب ان شاء الله .

وما فتئتُ اطلب هذا الضرب من الثواب ، واربو أجْر الاجتهاد ، مُلقيًا بدلوي بين الدلاء في الفاظٍ شاعت وراى غيري انها خطأ ، وكنتُ من الذين راوا صوابها ، ونَشَرْتُ بعض ذلك في مجلّة مجمع اللغة العربية بالقاهرة (١) .

وأُحِبُّ الآن ان استزيد من الخير ، فأواصل في مجلة مجمعنا الناشىء ما كنتُ بدأتُه في مجلّة مجمعنا العريق .

— ٢ —

وكان الذي قادني الى هذا الحديث مقالٌ نَشَرْتُه صحيفة يوميّة (٢) ، في مصرنا العربية ، الحبيبة لقلب كلّ عربي ، كَتَبَه عالِمٌ جليل ، عضوٌ في مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، معروف بالرويّة والتثبُّت ، طالَما أنِسْنا بحديثه وأفَدْنا منه . وتناولَ في مقاله كلمتين نقتصر هنا على الثانية منهما ، ونبدأ بنقل ما كَتَبَه عنها بحروفه ، قال :

« وثَمّت كلمة ثانية يستعملها الناس في عصرنا على انها صواب ، وهي عريقة في الخطأ ، وهي كلمة : العشرينات والثلاثينات والاربعينات ، وما الى ذلك من سائر العقود . ووَجْهُ الخطأ في هذا الاستعمال أن هذه الكلمات جموعٌ لعشرينة وثلاثينة واربعينة ، وليست هذه الكلمات في متن اللغة ، اذ كانت لا معنى لها .

والصواب في الاستعمال ان يقول القائل : هذا حَدَثَ في العشرينيّات والثلاثينيّات والأربعينيات ، بمعنى انه حدث في السنوات المنسوبة الى العشرين والثلاثين والاربعين وما اليها . فالكلمة يجب أن تكون مستعمَلَةً على طريق ياء النسبة ، وحَذْفُ الياء هذه خطأ ، عريق في باب الخطأ الذي يكاد يهبط الى منزلة الخطيئة ، لأن الفصحى من شعائر الاسلام ، ولان الحرص على العربية حرص على لغة القرآن .. » .

---

(١) الاجزاء ٢٥ و ٢٧ و ٢٩ و ٣٤ .

(٢) جريدة الاخبار ، ١٩٧٧/٩/٢١ ، ص ٥ ، بعنوان « الصواب المظلوم » .

- ٣ -

ولحِرْصِنا جميعـا على العربية ، لغـة القرآن ، نستأذنُ الاستاذ الجليل في ان ناخـذ باطراف الأحاديث بيننـا ، ونستأنف مجالسَ كانـت لنـا ، عَرْفناه فيها مُحِبًّا للحقيقة والحـقّ ، حَفِيًّا عنهما ، لا يضيق صدره بِرَدٍّ او سـؤال او تصحيح .

ولقد غاب عنّي فهـمُ ما قصد اليه من قولـه إنّ العشرينات،بغير يـاء النسبة،« عريقة في الخطـأ » وان « حذف الياء هذه خطـأ عريق في باب الخطـأ » ؛ فلم افهم معنى « العراقة » هنـا ! إنَّ الذي يتبادر الى الذهـن من ظاهر اللفظة انها تعني القِـدَم في الاستعمال على هذه الصورة . فهل وَرَدت « العشرينـات » وأضرابُها في كـلام العرب قديما ؟ هل جاءت في شعرٍ او نثـرٍ من عصور الاحتجاج اللغوي ؟ إنْ كانـت في مثل هـذه العراقة فأولى ان نقول إنهـا « عريقة في الصواب » ! وان لم تكن قـد تَحَدَّرت الينا من تلـك العصور ، ففي ايّ عصر بـدا استعمالها ؟ فان كانت هـذه اللفظةُ لم تَجْـرِ في الاستعمال الاّ في المـائة الاخيرة او قبلهـا بقليل ، فليس لنا ان نقول عنها إنهـا « عريقة » ، لا في خطـأ ولا فـي صواب .

وان كان المقصـودُ من العراقة في الخطأ انهـا مخالِفَةٌ لطريقة العرب في بنـاء الكلمة وفي جمعها ، وليس في استعمال هـذا الجمع بعينه قديما ، فذلـك يقودُنا الى مسالك اخرى مـن الحديث .

فالعشرينات والثلاثينـات والاربعينات ليست بالضرورة « جموعـا لعشرينة وثلاثينة واربعينـة » التي هي ليست « فـي » متن اللغة ، اذ كانت لا معنـى لها » .

والجمع الذي ينتهي بالألف والتاء ، والذي يُسَمُّونه جمع مؤنث سالما ، ليس دائما جمعـا لمؤنث ، اذ كثيرًا مـا جُمِعت عليه الفاظٌ لمذكَّـرٍ غير عاقل ، اذا لـم يكن لهذه الالفاظ جمـعُ تكسير ؛ فالفاظٌ مِثلُ : حَمَّام ،

وخَزّان ، وسِجِلّ ، وقرار ، ومُسَوِّغ ، تُجْمَع على : حُمّامات، وخُزّانات ، وسِجِلّات، وقرارات ومُسَوِّغات ؛ وكلُّها في مفردها تدلّ على مذكّر غير عاقل . بل استعملوه ايضا في القديم والحديث لجمع الجمع ، للمذكر العاقل وغير العاقل ؛ ففي العربية ، رجالٌ ورجالات ، وجِمالٌ وجِمالات ، وبيوتٌ وبيوتات ، وبُيوعٌ وبيوعات ، واهرامٌ واهرامات . ومفردها مذكّر .

ثم اذا كنّا قد حَكمنا بأن « العشرينة والثلاثينة ليست في متن اللغة » فاننا كذلك لا بُدَّ حاكمون بأن "العشرينية والثلاثينية والاربعينية" ليست كذلك في متن اللغة على وجه اليقين ، ولم يَجْرِ بها لسانُ أحدٍ من العرب في القديم . ونحنُ نَعْلم أن مَجْمَعنا في القاهرة قد بَحَثَ هذه الالفاظ وجموعها،وذَهَبَ الى ما ذهبَ اليه الاستاذ الجليل ، وعَدَّ « العشرينات » واضرابها خطأ ، و « العشرينيات » واضرابها هي الصواب (١) .

ثم ان هذه « الياء » المُقْحَمة التي قيل إنها للنسبة ، مشكلة في التَصوُّر والفَهم معا ؛ فما أظنُّ احدًا مِمَّن يَستعمل هذه الجموع يَصدُر عن تَصَوُّر النسبة الى مفرداتها ؛ وما اظنُّ احدًا ممن يسمعها او يقراها يستقرُّ في فهمه معنى هذه النسبة ، وانما يريد القائل ان يدلّ دلالة عامّةً على حقبة زمنية تمتدُّ عشر سنوات ، تبدأ بعدد في صورة الجمع،وليس في حقيقته جمعا ، وتتسلسل بعده تسع سنوات تالية،بِوَضْعِ عَدَدٍ قَبْلَه بَينَهُما واو العطف . هذه الدلالة العامة على حقبة زمنية معيّنة هي التي يَقصدها القائل حين يريد أن يتجنَّبَ تحديد سنة بعينها ، وهي التي يَفْهَمُها السامع ، ولا يدور في خَلَد احد منهما أن ينسب شيئا الى شيء .

---

(١) في الجلسة التاسعة من مؤتمر المجمع في الدورة التاسعة والثلاثين ، وفي الجلسة السادسة والعشرين من المجلس في الدورة نفسها ؛ وانظر بحث الاستاذ محمد شوقي امين،وبحث الاستاذ الشيخ عطية الصوالحي في كتاب « الالفاظ والاساليب » اصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ١٩٧٧ .

ماذا كان لا بُدَّ من استعمال أحد هٰذين الجمعين، فإنَّ تَرْك الياء أولى ، واستعمال العشرينات والثلاثينات والاربعينات ، أقرب الى ذوق العربية وادخل في أساليبها ، وهو ما شاع استعماله واستساغه العرف .

— ٤ —

ومع ذلك ، فقد أعْتَسَفْنا الطريق وأصبحنا مُنْبَتّين ، حين تَرْجَمْنا ترجمةً حرفية ما استعملته اللغات الاجنبية من جموع هذه الالفاظ ، ثم دخلنا في تيه من الجدل في تخطئة هذه الترجمات وتصويبها ، ولم نَرْجِعْ في كلّ ذلك الى ما استعمله العرب منذ أقدم عصورهم للدلالة على هذه الالفاظ ، متوهّمين انها من المعاني العصرية المستحدَثة التي لم تَرِدْ في كلام العرب ، على حين انهم عَرفوها وادارُوها كثيرا في كلامهم منذ الجاهلية ؛ وهي لفظة العقد نفسه — بغير جمع — مقرونة بالالف واللام ، وقد تُجَرَّدُ منهما في الشعر بخاصة ، اذا دلّت القرينةُ على المعنى . فقالوا : العشرين ، والثلاثين ، والاربعين ، الى آخر العقود ، بدلا من العشرينات أو العشرينيات واضرابهما . وبِحَسْبِنا شواهد معدودات نأنس اليها في هذا الحكم وتطمئن اليها نفوسنا :

قال سُحَيْم بن وَثِيل الرِّياحيّ (جاهلي اسلامي) (١) :

وماذا يَدَّري الشعراءُ منّي وقد جاوَزْتُ رأسَ الأربعينِ

اخو خمسينَ ، مجتمعًا أشُدّي ونَجَّذني مداورةُ الشؤونِ

فللأربعينَ رأسٌ هو حَدُّها الأعلى ، ولها « ذَنَبٌ » هو حَدُّها الأدنى ، وهي تتدرَّج بينهما . فسُحَيْم يَذكر انه جاوز التاسعةَ والأربعين من عمره ، وهي رأسُ الأربعين وحَدُّها الاعلى ، ثم وَضَّحَ ذلك توضيحا ما بعده من مزيد حين قال : « اخو خمسين » .

---

(١) البيتان من القصيدة الاولى في الاصمعيات، تحقيق احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون.

ويقول دِعْبِـل الخُزاعيّ (عبّاسـي) (١) :

أنبِئتِي بِـن مَلامِكِ يـا ظُعينا كفـاكِ اللومَ مَـرُّ الأربعينـا

وهـذا شبيه بقول سُحَيْـم ؛ فالاربعون بكلّ سنواتها قـد مَرَّت وانقضت، وصار شاعرنا « أخـا خمسين » .

واشهَرُ بيـت في هذا المضمار قول عـوف بن مُحَلِّم الخزاعـيّ (عبّاسـي) (٢) :

إنَّ الثمانـين ـ وَبُلِّغْتَهـا ـ قـد احْوَجَتْ سمعي الى تَرْجُمانْ

ومَن عَـرَفَ طريقة العرب في البيـان ادركَ ان الشاعر هنـا لا يريد ثمانين سنة على وجـه التحديد والتخصيص ، لا يتجاوزهـا ، ولكنّه أراد العقد بمجموع سنواتـه ، فهو في « الثمانين » بين ادنـى سنواتها و « راسهـا » .

وقد ذكرنا ان هـذه العقود قد تُجَرَّد من الألف واللام في الشعر بخاصة اذا دلّـت القرينةُ على ذلك . ومِنْ اطرف ما نَسْتَشْهد بـه على ذلك ، واعذَبِـه ، وأنفَسِه ، قول المُلَـيّ (٣) :

ولقـد قالـتْ لِأَتْـرابٍ لهـا كأُلَّهـا يَلْعَبْـنَ في حَجْرَتِهـا

« خُذْنَ عنّي الظِلَّ ، لا يُفْزِعُني » ومُضَـتْ تسعى الـى قُبّتِهـا

بِنْتُ عَشْرٍ لـم تُعانِـقْ رَجُـلاً صُـوِّرَ البَـدْرُ على صورَتِهـا

ولقـد قَبَّلْـتُ فاهـا قُبْلَـةً كِـدْتُ أَلْقَـى اللّـهَ من لَذَّتِهـا

ولا أُحِـبُّ لنفسي ولا لِغَيري ان نَعْتَسِـف الطريق ونَقْتَحِم الكلام بغـير دليل ، ولكنَّ الجـوَّ يوحي بان الشاعر لم يقصد الـى تحديد سنّ

---

(١) ديوانه : ١٤٨ ، تحقيق الدكتور محمـد يوسف نجم ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٢ م .

(٢) ترجمته في فوات الوفيات ، رقم : ٣٤٠ ، والبيت من شواهد النحو في اعراب الجمل .

(٣) من أبيات اطّلعتُ عليهـا في مخطوطة كتاب نوادر الهجري ، في مكتبـة استاذنا محمود محمـد شاكر .

العاشرة ، وإنْ كـان ذلك قد جاز، ولا يزال جائزاعلى نُـدرة نادرة ، وانما اراد هـذه السنَّ التي تزدهر بـين العاشرة والتاسعة عشرة ، والتي يُطلقون على مـن كان فيها من الفتيات والفتيـان بالانجليزية « تِيْنْ ايجرز » ، ونحـار في اختيار كلمة عربية مقابلة لهـا .

— ٥ —

وبعـد ،

فمـن اراد طريقةَ العرب وما ساروا عليـه في كلامهم ، فأمامه هذا الشعر المُبـين ، ولْيَقُل : « حَدَثَ ذلك في العشريـن او الثلاثين او الأربعين من هذه المئـة ، او من هذا القرن » ، ولا يخافَـنَّ اللَّبْس ؛ فنحن لا نقول : حـَدَث ذلك في العشرين من هذا القـرن ، ونقصدُ سنة ١٩٢٠ ، وانما نُحَدِّدُهـا ونقول ، حدث ذلك في سنـة عشرين ، وليس فـي العشريـن .

ومن ارادَ المخالفـة عن استعمالهم الذي أَلِفُـوه ، وارادَ ان يُحْدِثَ كلامًا جديدا، فـلا بأس عليه ان يجمع لفـظ العقد فيقول : العشرينات والثلاثينـات . وقد وَرَد في كلام العـرب تثنية العقد :

« قال الأخفش ، اخبرني المبرّد قال : انشدني سليمان بن عبد اللـه بن طاهر لنفسه : « وقد مَضَتْ لـي عشرونان ثنتان » . . فقلت لـه : ايّها الامير ، هذا لَحْـنٌ لان إعراباً لا يَدْخُـل على إعراب » (١) .

وإنكارُ المُبَـرِّد لا ينصرف الى تثنية العقد، وانما انصرف الى وجود إعرابَين : فالـواوُ والنون للرفع في جمع المذكـر السالم، والالف والنون للرفع في المثنّى . ولو قال : لـي عشرينان ثنتان ، ما انكر المبـرِّد شيئا .

واذا جازت التثنيـة على هذا الوجه جاز الجمـع .

أمـا ما سوى ذلك ، كإضافة يـاء النسبة قَبْلَ الجمع ، فشيءٌ تنبـو عنه الاسماع ، وتمجُّـه الأذواق ، وليس ما يدعو اليه ، مَهْمـا يُزَيِّنه لنـا المزيّنون بتخريجاتهـم .

---

(١) المرزباني ، الموشـح ٣٥٧ ، المطبعة السلفية بمصر سنـة ١٣٤٣ هـ .

تعريب رموز نظام الوحدات الدولية

الدكتور ابراهيم مدكور

١ ــ خلفية عامة

يُقصد بنظام الوحدات الدولي International Units System ، بشكل عام ومبسّط ، ذلك النظام الذي يتناول تعريف وحدات القياس الطبيعية ، وتحديدها على اساس ثابت من العلاقات المادّية والرياضية التي تحكمها قوانين الطبيعة . وقبل تطوير هذا النظام كانت الدول المختلفة (ولا يزال بعض منها حتى الآن) تستعمل نظام وحدات خاصًّا بها ، تعطيها تعريفاتها ومفاهيمها المحلّيّة التي تطوّرت عن النظام الاقتصادي العلمي السائد فيها . ومن الأمثلة الشائعة على ذلك : ــ

القدم Foot ــ وحدة قياس الطول في بريطانيا وامريكا .

المتر metre ــ وحدة قياس الطول في فرنسا وغيرها .

الذراع ــ وحدة قياس الطول في البلاد العربية (وحدة قديمة وغير علميّة) .

وبتطوّر النظام الاقتصاديّ العالميّ،وزيادة حجوم الاتصالات والتبادلات التجارية والعلمية والتكنولوجية ، نشأت الحاجة الى وضع نظام وحدات دوليّ يُمكن تعميمه واستعماله دون الحاجة الى معادلة الوحدات المستعملة من بلد الى آخر ، وما يتبع ذلك من صعوبات تكنولوجية معقّدة،وتكاليف اقتصادية باهظة .

ومن الناحية الاستعماليّة في مجالات التعليم والأبحاث والدراسات والتدوين والمراسلات ، نشأت الحاجة الى وضع رموز موحّدة ومتّفق عليها للوحدات المستعملة ، يُشترط فيها أن تحقّق الاختصار

والسهولة ، من جهـــة ، وعدمُ الْتباسٌ ، من جهة اخرى . وقد وَضَعَتْ منظمةُ القياسيّات الدّوْليّة

International Standards Organization (ISO)

نظاما لتعريف الوحـــدات في النظام المِتْريّ ، كمـــا وَضَعت نظام تَرْميزٍ خاص لتلـــك الوحدات .

وفي هـــذا الصدد واجهَتْ الدوائـــرُ العلمية والتعليمية والصناعية والتجارية في البـــلاد العربية مشكلتين : ــ

الاولى : تعريب هـــذه الوحدات .

والثانية : وضـــع نظامِ رموزٍ لهـــا .

وقـــد بُذِلَتْ محاولاتٌ عديدة في مجـــال التعريب ، وأَسْفَرت عن نتائجَ مُرْضِيَة نسبيًّـــا ، وإنْ كانت تَعْوزُها في احيـــانٍ كثيرة الدقّةُ والضَبْط وسـهولةُ التداول اللفظـــيّ او الكتابيّ .

وفي مجالِ الرمـــوز ، وهو ما يُهِمُّنا في هـــذا البحث ، بدأَتْ المحاولاتُ المتفرّقة منـــذ العشرينات من هذا القرن ، وكـــان الطابَعُ العامّ لتلـــك المحاولات انها فرديّة ، او شبهُ فرديّة ، من جهة ، وانها لم تنظر الى نظام الوحدات بكلّيته ، بل كانت تَسْتَهْدِف الكلماتِ الأكثرَ شيوعا ، ولا سيما في مجالات التعليم المدرســـيّ ، لتعطيَها الرموز « الملائمـــة » ؛ وبذلك انتشر بعضُ الرموز وشـــاع . وهي رموزٌ مقبولة ، او علـــى الأصحّ مُقْنِعَة ، اذا ما أُخِذَتْ بمفردها وعلـــى النطاق المدرسي الضّيق ، ولكنها غـــيرُ ملائمة للاستعمالات الموسَّعـــة ، ولا سيّما في مجالات التعليـــم الجامعيّ وما في مستواه .ومـــن الامثلة على ذلك : ــ

وحدة القياس (متـــــر) رمزهـــا (م) .

وحدة القياس (كيلو متر) رمزهـــا (كم) .

وحدة القياس (ثانيـــــة) رمزهـــا (ث) .

وابتداءً مـــن الخمسينات ، ومع توسُّع التعليـــم الجامعي وانتشاره في الاقطار العربيـــة ، أصبحت الحاجة اكثر الحاحا ، كمـــا هو معروف ،

الى تعريب التعليم ، وتعريب العلوم ، وبالتالي الى تعريب الرموز الخاصة بالوحدات .

لقد بُذِلَتْ محاولاتٌ شَتَّى في هذا المجال على النطاق الفرديّ، وعلى نطاق المؤسسات (مثل بعض الجامعات والمجامع اللغوية ، وعلى الأخصّ في مصر) إلاّ أنَّ طبيعة العمل الفردي ، من جهة ، وطبيعة تركيب تلك المجامع اللغوية ، من جهة أخرى ، وتَدَفُّق الكُتُب والوثائق العلمية والتعليمية ، وسرعة تطوّر العلوم ، وعدم توافر القدرة على المتابعة والتطوّر في المفهوم العلمي واللغوي ، من جهة ثالثة ، أدَّت بكثير من تلك المحاولات الى نهايات مسدودة ، باستثناءِ الرموز الخاصّة بالمواد الكيميائية،وقد أُهْمِلَت في العديد من البلدان العربية بسبب عجزها عن النموّ المتقدم ، واخذ العديد من المدارس والمؤسسات يستعمل الرموز اللاتينية بدلاً من العربية .

ومنذ عدّة سنوات حاوَلَت المنظمة العربيّة للمواصفات والمقاييس معالجةَ الموضوع ، ولكنّها — رُبَّما لنفس الأسباب السابقة — وَجَدَت نفسها غير قادرة على تعريب الرموز كنظامٍ متكامل مُرِن . واصدرت المنظمة في أوائل السبعينات ترجمةً عربية للمواصفات القياسية الدولية ، أعْقَبَتْها في تشرين الاول ١٩٧٤ بترجمةٍ منقَّحةٍ باسم « المواصفات القياسية العربيّة رقم (١) وحدات النظام الدولي ، والتوصيات الخاصة باستخدام مضاعفاتها ، وبعض الوحدات الأُخرى المعيَّنة » .

وصدرت الترجمة المنقَّحة في طبعتين : —

إحداهما تَحْمِل رموزا عربيّة للمصطلحات العربية .

والثانية تحمل رموزا لاتينيّة للمصطلحات العربية .

أما الرموز العربيّة،فالملاحَظ انَّ استخدامها بشكل غير منهجي ادى ببعض الرموز الى ان تكون بعيدة عن روح اللغة العربية ، او ان تكون عمليةُ الترميز فيها « عملية شكلية » ، بمعنى ان يَنْقُص

الرمزُ عن الكلمة الكاملة حرفـــا أو حرفين ، أو أن تُترك بعض الاصطلاحات دون إحداث رموزٍ لها على الاطلاق ، بسبب التعقيد الناشيء عن تركيب الوحدات بعضها ببعض ، وكما هو في المثال التالي : —

وحدةُ الكتلة تقاس بالكيلوجرام (الكيلوغرام) ورمزها (كجم) أو (كغم) .

وحدةُ التيار الكهربائي تقاس (بالأمبير) ورمزها (مـب) .

وحدةُ كمية المـادة تقاس (بالمول) ورمزها (مول) .

وحدةُ شدة الاضاءة تقاس (بالقنديل) ورمزها (قنـد) .

وحدةُ القُدْرة تقاس (بالواط) ورمزها (واط) .

وحدةُ الطاقة تقاس (بالجول) ورمزها (جـل) .

وحدةُ كثافـة التدفق المغنطيسي تقـاس (بالتسـلا) ورمزها (تسـلا) .

وحدة الحثّ تقاس (بالهنري) ورمزها (هنـري) .

وحدة الفيض الضوئي تقاس (باللومن) ورمزها (لُمن) .

أمـا عن استخدام المضاعفات ، فـان نظام الترميز الذي اقترحَتْه المنظمة العربية لـم يَصْلُح للعمل ابـدا ؛ وهذه أمثلة منه : —

كمية الطاقـة (كيلو جول) ورمزها (كيلو جل) .

كمية الطاقـة (ميغا جول) ورمزها (ميغا جل) .

الكثافة الحجميـة للشحنة ورمزها (ميكرو كمب/م٣) .

وهكذا نُلاحِظ انـه في الوقت الذي رَمَـز الى الكيلو في وحدة الكيلو غرام بالرمـز « ك » ، فانه لم يستطع أن يستعمـل نفس الرمز في وحدة كميـة الطاقة ، وتحوَّلَ الرمز الـى الكلمة الكاملة . وأما رَمْزُ الكثافة الحجمية للشحنة فواضح انـه « نصف رمز » ، اذا صحّ التعبير .

امّـا عند استخدام الرموز اللاتينيـة للمصطلحات العربية ، فـان نظام الترميز القائم علـى منهجية معيّنة ، مرتبطة باستخـدام الحرف اللاتيني ، استطـاع أن « يُثْبِت » ، وان يبدو غـير متناقض مع نفسه . الا انـه، بطبيعة الحال ، غير مقبول لعدم صلته باللغـة العربية ، كما هو موضّح في المثـال التالي : ـ

وَحدة الطول تقاس بالمتـر ورمزها (m)

وَحدة الزمن تقاس بالثانيـة ورمزها (s)

وَحدة الزاويـة المستوية تقاس بالزاويـة

الدائـرة ورمزها (rad)

وَحدة القـوة تقاس (نيوتن) ورمزها (N)

شدة المجـال الكهربائي تقـاس

(بالفولط / متـر) ورمزها (kv / m)

ومنـذ عدّة اشهر شُرِعت المنظمـة العربية للمواصفات والمقاييس بمراجعـة الترجمة المذكورة ، لتحديثهـا وتنقيحها علـى الأُسُس السابقـة عينهـا .

٢ ـ تقييـم العمـل

رغـمَ الجهود التي تبذلها المنظمـة العربية للمواصفات والمقاييس في هذا المجال ، ورغم اهمية الموضوع ، فان اختيار الرموز العربية بشكل غير منهجي ودون رؤيـة واضحة للموضوع بأكملـه ، وكذلك دون محاولة لتطوير مفهـوم الحرف ووظيفته شكلا ومضمونـا ، ادّى ، ويؤدّي الى طريـق مسدود . وكذلك كـان اختيار الرموز اللاتينية للكلمات العربيـة ، وهي هنا الوحدات المعرَّبـة ، يبدو في نظرنا غير صحيح وغير علمـي ، لاسباب كثيرة ، اهمهـا : ـ

١ ـ صعوبة استعمال الرمـز اللاتيني في سياق الكتابـة العربية ، سواء في الكتابـة ام في الطباعـة .

ب ــ ارتباط استعمال هــذه الرموز بالمستوى التعليمي ، مــن حيث ضرورة معرفة الأحــرف اللاتينية نُطْقًا وكتابةً؛وهــذا يتعذّر في كثير من الاحيان علــى تلاميــذ المدارس الابتدائية ، في حــين انَّ تثبيت الرمــوز كجزءٍ اساسيّ من التفكيــر العلمي ، يتطلب استعمال هذه الرمــوز في المراحل الاولى للدراســة ، وبشكل تدريجــي ومتنــامٍ .

ج ــ ان اختلاف اللغــة العربية جَذْريًّا عن اللغــات الاوروبية ، سواء باصولها اللاتينية ام السلافيــة ام الاغريقية ، يجعل من عمليــة الترميز بأحرفٍ غــير عربية عمليةً على قــدر من الافتعال ، وعدم التناسق مع التوجــه الذهني الذي تفرضه اللغــة .

د ــ ان الرموز العلميــة يجب ان لا يُنْظَر اليها كمــادة للتداول فقط في اوساط او شرائح علميّــة معيّنة ، بل إنَّ طبيعة العصر والتقــدّم التكنولوجي،وتَشَــارُك المستويات التعليمية المختلفــة بالعمليات الانتاجية على مختلــف انواعها ، يجعل مــن الضروري أن تكون الوحدات المستعملــة برموزها واشكالها مفهومــة ومقروءة ، ليس لدى الجامعيين فقط ، بــل لدى الفنّيين المتوسّطين وشبــهِ المَهَرة كذلك ، اضافةً الــى الانسان العادي . وهــذا لا يتأتّى حين تكون الرمــوز المستعملة غريبة عن اللغــة المحلّية .

هـ ــ ان التطوّر العلمــي المرتَقَب خلال السنين القادمــة يُنبىء عن تزايد المعرفة العلميــة والتكنولوجية ، وبالتالــي تَزايُد الحاجة الــى الرموز ، سواء في الوحدات ام في المــواد الكيميائية ، او الرياضية او الطبيعية او غيرها . ومثل هــذا التزايُد لا يمكن ان يواجَــه الا من خلال نظــام للتعريب يَسْتَنِد كُلّيًّا الى الجذور الأساسية للُّغــة .

٣ ــ المفهــوم النظري للترميــز

يقوم الترميز اساســا على اختيار رموز ، علــى صورة اشكال معيَّنة مُتَّفَق عليهــا ، او حروف لغوية (وهــي بطبيعتها اشكال مُتَّفَــق

عليهـــا) تُخْتَصِر الحجم والزمن اللازمين للدلالة على المرموز لـــه ، وفي نفس الوقت تكون قابلـــــةً للاستعمال في مواقع متنوعـــة ، تبتدىء بالكتابة المُسْهَبـــة ، وتنتهي بالمعادلات الرياضيّة.وكذلـك ينبغي ان تكون مَرنـــةً مرونةَ الارقام الرياضية عينهـــا ، لانها تُعبّر في كثير من الاحيان عن القيم الفيزيائية للكمّيـــات الرياضية . وما لـــم يتوافَرْ في الرمز مِثلُ هذه الخصائص ، فسيظل الرمـــزُ عاجزا عن تحقيق الغرض الذي انشىء مـــن اجلـــه .

ومن هـــذا المنطلق كان اختيارُ الرمـــز اللاتيني (أو الياباني اذا شئت) يُعْتَبَر اختيـــارًا غير صحيح بالنسبة الى اللغـــة العربية .

على انَّ مرونـــة الحروف ذاتها وقابليّتها للتشكيـــل تلعبان دورا كبيرا في امكانيـــة ملاءمة هذه الحروف لاغراض الترميـــز .

٤ ـ الاساسيات التي يقـــوم عليها نظام الترميز بالعربيـــة

لقـــد كانت صعوبةُ التصرُّف بالحرف العربـــي واحدةٌ من الاسباب الرئيسية التي دفعـــت العاملين في المنظمة العربية للمواصفات والمقاييس ، وغيرَهم من المشتغلين بالتعريـــب ، الى التراجُع عـــن استعمال الرموز العربية بعد ان استنفدوا الرصيـــد المعروف من الحروف ، وهـــــو لا يتجاوز في الاحوال العاديّة الملائمـــة للاستعمال عشريـــن الى خمسة وعشرين حرفـــا ، لا تكاد تغطّي جزءا من نظـــام الوحدات الكامل .

ومن ناحية ثانيـــة ، اذا نظرنا الى الرموز الدوليـــة ، او الرموز المستعملة في بعض الـــدول ، ولا سيما في اوروبا وامريكا ، نجـــد ان الامكانيـــة العددية للأبجديـــة اللاتينية تصل الى اضعـــاف الامكانية العددية للأبجديـــة العربية ؛ عِلْمًا بأن عـــدد الاحرف الابجدية في معظم هذه اللغات يكـــاد يكون متقاربا .

يعود هـــذا الفرق بين الامكانيات اساســـا الى توافُر شكلَـــين للحرف في اللغات اللاتينية ، وهما الحرف الكبير والحرف الصغير (M, m ،

على سبيل المثـــال) . ومع انه يتوافر اكثر من شكل واحـــد للحرف العربي (ونعني بذلــك الاشكال الاولى والوسطى والاخيرة) فـــان طبيعة تكوين الاشكـــال الوسطى والاخيرة ، او الاولـــى ، بالنسبة الى بعض الحروف ، تَمْنَـــع في كثير من الاحيان مـــن استعمال هذه الاشكال بصورة مستقلّة ، كمـــا في الحروف الاوروبية . ان استعمال حرف النون ، على سبيل المثـــال ، هو اكثر ملاءمة حين تكون النـــون مستقلة ، اي على شكل (ن) في حـــين ان شكلها في الابتداء او الوســـط كثيرا ما يكون غير متميّز ، او يدعـــو للالتباس او الاختـــلاط . فعلى سبيل المثال ، اذا اخذنا حـــرف (النون) في العربيـــة مرة اخرى ، وحـــرف (N) بالانكليزية ، وَجَدْنا لدينـــا الاشكال التالية : ـ

ن ذ ـنـ

n N

يضاف الى ذلـــك استعمال الاصول اللاتينيـــة او الاغريقية للحروف الاوروبية الحاليّة ، وهـــي كَشَكْلٍ او رمز تتميَّز عن الشكـــل الحالي للحـــرف الاوروبي ، وبالتالـــي تزيد من امكانية نظـــام الترميز .

مثـــال : $\mathcal{A}$, a , A $\mathcal{R}$, r , R , b , B , $\mathcal{B}$

وهكذا كـــان تعريب الرموز الحالي يتضمَّـــن الأُساسيات التالية : ـ

ا ـ تسمية الحروف العربيـــة بشكلها المستقلّ حروفـــا كبيرة (مثال : ا ، ب ، ج ، د .. الـــخ) .

ب ـ تسمية الحروف العربيـــة بشكلها عند الابتداء بحروف صغـــيرة (مثال : بـ ، سـ ، صـ ، فـ ، يـ .. الـــخ).

وفي محاولة لاعطاء شكـــل الحرف عند الابتداء نوعـــا من الاستقلال ، اقترحنـــا اضافة حركة صغيرة الـــى آخره نسميها هنـــا « حركة الاستقلال » ، ليصبح علـــى النحو التالي : ـ

(مثال : بـ ، سـ ، فـ ، الخ) . (انظر اللوحة رقم ١) .

جـ ـ تحقيقا لزيـــادة سعة نظام الترميز ، ولا سيمـــا عند استعمال المعادلات المتضمنة للكثير مـــن الرموز والمتغيرات ، مـــن الممكن

« اضافة حركة » الـــى الحروف الكبيرة ، مشتقّـــة من انماط الكتابة العربيـــة ، وفي الوقت عينه تعطيها طابعـــاً متميّزًا يماثل اشكال الاحرف المائلـــة في اللغات الاوروبية (مثال : س، ص، ط، ظ، ع، غ، ح ... انظر اللوحة رقـــم (٢) .

ونسمي هـــذه الحركة هنا « حركـــة التميُّز » .

وبهذا يمكن تحقيق سَعَـــةٍ كبيرة للأبجدية العربية في مجـــال الرموز ، تكفي عندمـــا تُسْتَخْدَم استخداما منهجيًّـــا صحيحا لتغطية الاحتياجات المطلوبة ، عـــن طريق الاستعمال المفـــرد والمركّب والمتضاعـــف .

د ـــ استعمال الحَرْف الصغير للدلالة علـــى الوحدات العامة ، وغـــير المأخوذة عـــن اسماء اعلام مثل : ـــ

الشحنة الكهربائية ، ورمزها (شـ) .

الازاحة ، ورمزها (شـ / م٢) .

الزمن مقاس بالثانية ، ورمزه (ث) ... الـــخ .

هـ ـــ استعمال الحروف الكبيرة او الحـــرف الاعتيادي متّصلاً مع حـــرف كبير ، للدلالـــة على الوحدات المشتقّة مـــن اسماء اعلام ، مثل : ـــ

وَحدة الطاقة « جول » ، ورمزها (ج) .

وَحدة الجهد الكهربائي « فولت » ، ورمزها (ف) .

وَحدة التيار الكهربائي « امبير » ، ورمزه (ا) .

وَحدة كمية الكهرباء « الكولمب » ، ورمزه (كب) .

وَحدة المنافذة « هنري » ، ورمزها (هن) .

وحدة المسامحة « سينمس » ، ورمزها (سيم) ... الخ .

و ـــ الوصول الى الوحدات المركّبـــة من خلال استعمال اشـــارات

الضرب والقسمة الاعتياديـــة ، كما هو في المعادلات الرياضية . مثـــال ذلـــك : ـــ

كثافة التيّار الخطي « أمبير لكـــل متر » ، ورمزها : (أ/م) .
العزم الكهرو مغناطيسي « أمبير مضروبا بالمتر المربـــع » ، ورمـــزه : (أ / م٢) .

الممانعة وهي مقلوب الهنري ، ورمزها : (هن-١) ... الخ .

٥ ـــ انواع الوحدات المعرَّبـــة

١ ـــ الوحـــدات الأساسيّـــة :

وتشمـــل الوحدات الفيزيائية ، التـــي تُعْتَبَر الوحداتُ الاخرى جميعها مشتقة منها ؛ وهي ثمـــانٍ اساسيّة واثنتان مكملتان لهـــا ؛ وهذه تشمل وحداتٍ مشتقَّةً مـــن اسماء أعلام ، ووحداتٍ ليســـت كذلك ؛ وتُبَيِّن اللوحة رقم (٣) الرموز المعرَّبة للوحـــدات الاساسية . ويلاحَظ أن الرمزَين الدارجَين للمتـــر والكيلو غرام هما علـــى التوالي (م) و (كغم). ورغم أن هـــذه الرموز مقبولة باعتبارها قائمـــة بذاتها ، الا انـــه يجب تغيير الحروف الكبيرة فيهـــا الى حروف صغيرة ، لكي تتبـــع النظام المقترح وتصبح (م و كغ) .

٢ ـــ الوحـــدات المشتقَّـــة : ـــ

وهـــذه الوحدات يُعَبَّر عنها جُبْرِيًّـــا بدلالة الوحدات الاساسية ، او الوحدات المكملـــة . ويمكن التعبير عـــن رموزها بالعلامات الرياضيـــة المعتادة . على سبيل المثال :
تقاس وحدة النظام الدولي للسرعة بالمتـــر لكل ثانية . ووحدة النظام الدولي للسرعة الزاوية بالزاويـــة المستوية لكـــلّ ثانيـــة .

ورموزها في نظام الترميز المقترح هي م / ث ، مسم / ث .
بينما كانت الرمـــوز التي اقترحتْها المنظّمة العربيـــة للمواصفات والمقاييس هـــي :

m/s rad/s على التوالي .

كذلك نجـــد في الوحدات المشتقّة اسمـــاءً خاصّة لهذه الوحدات ، تتطلّب ايجـــاد رموز لها لكي يمكـــن اختصار كمية الرموز عنـــد استعمال الوحـــدات الاساسية للدلالة على الوحـــدات المشتقة .

والوحدات المشتقّة تتضمـــن العلوم الاساسية ، وهي : الكهرباء ــ الضوء ــ الصوت ... الـــخ ، كما هو فـــي اللوحة رقـــم (٤) .

تبيّن اللوحة رقـــم (٥) الوحدات الكهربائيـــة الاساسية والمشتقة في الكهربـــاء . وقد ذُكِر تعريف الوحـــدة واسمها ورمزها العربـــي المقترح . ويلاحَظ أن نظـــام الترميز الجديد سهل الاستعمال ، وغـــير مسبِّب للالتباس . وقـــد وُضِعنا الرمـــز بالحروف اللاتينية للمقارنة .

٣ ــ الوحـــدات المركّبـــة : ــ

وهـــي الوحدات التي تتألف مـــن تركيبات متنوّعة من الوحدات الاساسية والمشتقّـــة ، عن طريق ضرب هـــذه الوحدات او قسمتهـــا . مثال ذلك : ــ

وحدة العزم ، وهي نيوتن مضروبا بالمتر ، ورمزها (ن . م) اللزوجة الديناميكية ، وتساوي بسكال مضروبا بالزمن ، ورمـــزه (بس . ث) .

وبالرجوع الـــى اللوحات (٦ ــ ٧ ــ ٨ ــ ٩ ــ ١٠ ــ ١١) نجـــد الرموز العربيـــة المقترحة لمختلف انـــواع الوحدات في العلـــوم الاساسية الطبيعيـــة .

(**ملاحظـــة** : إنّ تعريب الوحدات ليس من عمـــل الكاتب . ولديـــه بعض التَحَفُّظات على بعض هـــذا التعريب) .

٤ ــ المضاعفـــات : ــ

تُسْتَخْدَم في النظـــام الدولي مجموعة من البادئات لهـــا اسماؤها ورموزهـــا ، وتَتَكَوَّن من مضاعفات واجزاء عشرية . والنظام الدَّوْلـــيّ يَفْتَرض ان يكون رمـــزُ البادئة مُتَّحِدًا مع رمـــز الوحدة المتّصل بها مباشرة ، لتكوين رمـــز وحدة جديدة يُمْكِن رَفعُها الـــى أُسّ موجب او ســـالب ،يمكن ان يَتَّحد مع رموز وحـــدات اخرى . مثال ذلك : ــ

البادئة سنتي ، ورمزها باللاتينية (c) والعربية (سم) .

الميكرو ، ورمزها باللاتينيـــة (u) والعربية (ميم) .

النانو ، ورمزها باللاتينيـــة (n) والعربية (نم) .

وتُبيِّن اللوحة رقـــم (١٢) أسماء البادئات ورموزهـــا اللاتينية والعربيـــة ، وقيمها الرياضيـــة ؛ ومثالا علـــى استعمالها بنظـــام الترميز المقترح .

٦ ــ استنتاجـــات

إنّ احرف اللغـــة العربية ، من حيث الأُساس ، صالحةٌ لاستخدامها في وضع نظام رمـــوز متكامل للوحدات الدولية . وهـــي ، اذا أُدخِل عليها بعضُ الاضافات او التعديـــلات البسيطة ، يُمْكِن ان تُعطي الحـــرف العربي مرونة كافيـــة في التطبيقات العملية ، ســـواء المكتوبة منها ، ام المقروءة،ام المتداولة لفظـــا . إنّ ادخال « حركة الاستقلال » و « حركة التَمَيُّز » على صورتَي الحـــرف العربي الصغير والكبير علـــى التوالي ، يُمَكِّن من استعمال هـــذه الاحرف في المجالات العلميـــة المختلفة دون ان تكون هناك فرصـــــة للالتباس أو الغموض . ان حركتـــي الاستقلال

والتميّز مشتقّتان من أنماط الخطوط العربيه ؛ فهي ليست غريبة او مفتعلة . ويمكن اضافتها كتابة وطباعة بسهولة واضحة .

إنّ نظام الترميز المقترح يفي،في راينا،بمتطلبات الرموز حسب النظام الدولي .

٧ ـ مَراجع :

١ ـ المنظمة العربية للمواصفات والمقاييس ، المواصفات العربية / القاهرة .

2. International Organization for Standards
SI Units,
Geneva, Switzerland

لوحة رقم (١)

الحروف الاعتيادية والحروف "المستقلة" المقترحة بإضافة حركة الاستقلال

ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض

ع ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض

ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن هـ و ي

ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن هـ و ي

لاحظ ان الحركة الاضافية التي أُدخِلَت على الحرف الصغير ، « حركة الاستقلال » ، مضافةٌ هنا على الحرف الطبيعي .

لوحة رقم (٢)

الأحرف الاعتيادية، والأحرف الكبيرة "المتميزة" بإضافة حركة التميز

ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س

ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س

ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن هـ

ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن هـ

و ي

و ي

الكمّيات الأساسيّة						
الوحدات الاساسيّة						
الطـــول	الكتلـــة	الزمـــن	التيار الكهربائي	درجة الحرارة المطلقة	كمية المـــادة	شدّة الاستضاءة
المتر	الكيلو غرام	ثانية	أمبـــير	كلفـــــن	مـــول	تنديلـــه
m	Kg	s	A	K	mol	cd
م	ك غ	ث	أ	ك	مل	قد

الوحدات المكملة للنظام الدَّوْلي	
زاوية مستوية	زاوية مجسَّمة
زاوية نصف قطر دائرية rad	زاوية فراغية Sr
مستر	جسر

اللوحـــة رقـــم (٣)
الوحدات الاساسية والمكملة لنظام الوحدات الدولي

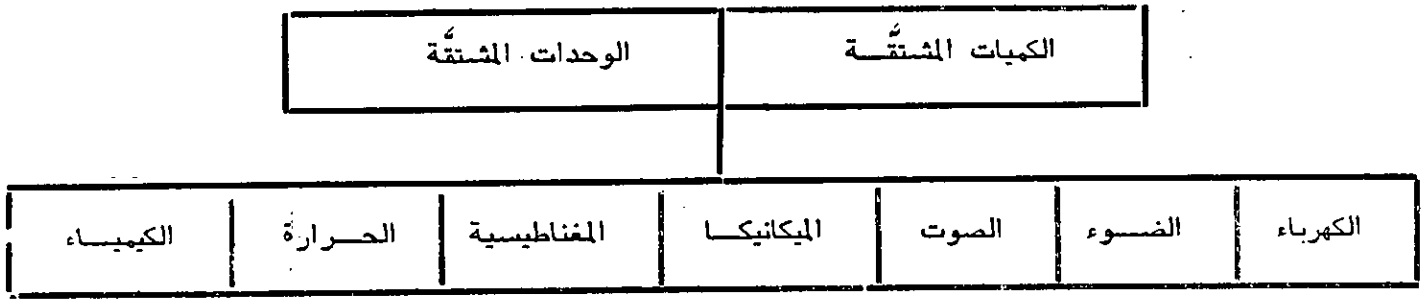

اللوحـــة رقـــم (٤)

العلوم الطبيعية التي دُخِلَت وحداتُها في هذا البحث

كهـــــــربـــاء

...درة	كمية الكهرباء	جهد كهربائي، فرق جهد، قوة دافعة	سعة كهربائية	مقاومة كهربائية	مواصلة كهربائية	تـــردد	الطاقة	الكترون فولت	كثافة الشحنة الحجمية	كثافة الشحنة السطحية	شدة المجال الكهربائي
...ط	كولمب	فولت	فاراد	اوم	سيمنس	هيرتز	جول		كولمب/م^3	كولمب/م^2	فولت / متر
	كب	ف	فد	ص	سيم	هـز	ج	ء ف	كب/م^3	كب/م^2	ف/م

...شحنة الكهربائية	الازاحـــة	عزم كهرومغناطيسي	نفاذيـــة	مسامحـــة	منافـــذة	ممانعـــة	موصلية	الحث الذاتي والمتبادل	كثافة التيار	التدفق الكهربائي	كثافة التيـــار الخطي
C	C/m^2	A.m^2	H/M	S	H	H^{-1}	S/m	H		C	A/m
شيم	شم/م^2	أ.م^2	هن/م	سيم	هن	هن-١	سيم/م	هن	أ/م^2	شفـــم	أ/م

...ستقطاب الكهربائي	عزم كهربائي ثنائي القطب
C/m^2	C.m
شم/م^2	شم.م

اللوحة رقـــم (٥)

رموز الوحدات الاساسية والمشتقة في الكـــهرباء

الصـــــــــــوت

التردد هيرتز	التردد الدوراني s^{-1}/min^{-1}	فترة (دورة) زمن (دورى) s	طول الموجه m	كثافة الكتلة kg/m^3	ضغط الصوت pa	سرعة الصوت m/s	سرعة الجسم M^3/s	مستوى قدرة الصوت ديسبل db
هز	ث$^{-1}$ ، د$^{-1}$	ث	م	كجم/م^3	باس	م/ث	م^3/ث	ديسبل

مستوى ضغط الصوت db	دليل خفى الصوت db	مساحة امتصاص مكافئة m^2	زمن الارتداد s
ديسبل	ديسبل	م^2	ث

اللوحة رقـــم (٦)

رموز الوحدات الاساسية والمشتقة في الصـــــــوت

الضـــــــوء

شدة الاضاءة شمعة cd	شدة استضاءة لكس lx	فيض ضوئي لومن lm	التـــــردد هيرتز H2	طول الموجـــه متر، انجستروم LA^{0},pn,nm,m	طاقة مشعـــة J	قدرة مشعـــة تدفق مشـع W	شدة الاشعـــاع W/sr
قد	لك	لم	هز	أ، ص	ج	و	و/جيسر

ـاعيـة $w/sr.m^2$	الوجود الاشعاعي w/m^2	الاشعاعيـــة كثافة الاشعـــاع w/m^2	كمية الضـوء lm.s	لضـــوع cd/m^2	وجود ضوئي lm/m^2	معرض ضوئـي lx/s	فعالية ضوئيـة lm/W
جسر	و/م٢	و/ش٢	لم.ثم	قد/م٢	لم/م٢	لك.ثم	لم/و

اللوحة رقـــم (٧)

رموز الوحدات الاساسية والمشتقة في الضـــوء

الكهرومغناطيسيـــــــة
والمغناطيسيـــــة

د فق فيض مغناطيسي وبر wb	كثافة التدفق المغناطيسي تسلا T	حث مغناطيسي هنرى H	التيار الكهربائي أمبير A	شدة المجال المغناطيسي A/m	فرق الجهد المغناطيسي A	كثافة التدفق المغناطيسي تسلا T								
وب	تس	هن	أ	أ/م	أ	تس								
جهد المتجه المغناطيسي wb/m	كثافة التيار الخطي A/m	المنفذية F/m	نفاذية H/m	عزم كهرومغناطيسي $A.m^2$	مغنطة A/m	ثابت قطاب مغناطيسي T	عزم مغناطيسي ثنائي القطب $N.m^2/A$, wb/m							
وب/م	أ/م	فد/م	هن/م	أ.م٢	أ/م	تس	ن م٢/أ ، وب/م							
الحث الذاتي المتبادل هنرى H	عزم كهرومغناطيسي عزم مغناطيسي $A.m^2$	مغنطة A/m	ممانعة H^{-1}	منافذة H	مسامحة S	قدرة فعالة W								
هن	أ.م٢	أ/م	هن-١	هن	سيم	و								

الوحدة رقم (٨)

رموز الوحدات الاساسية والمشتقة في المغناطيسية والكهرومغناطيسية

الميكانيكـــــــــــا

قـــوة	ضغط ، اجهـاد طاقة ، شغـل باسكال	قـدرة	الكتلـــة	الكثافة الخطيـة	الكثافـــة	كمية التحـــرك	عزم كمية التحـــرك
نيوتون		واط	كيلوغرام	كيلوغرام / متر	kg/m^2	kg . m/s	الزاوي $kg.m^2/s$
ن	بس	و	كغ	كغ/م	كغ/م٢	كغ.م/ث	كغ.م٢/ث

عزم القصور الذاتي	عزم القـوة	ضغط المائـع	الاجهـاد	اللزوجة الديناميـة	اللزوجة الحركية	التوتر (الشد) السطحي	الطاقة ، الشغـل
$kg.m^2$	N.m	1 bar	pa , m/m^2	pa.s	m^2/s	N/m	J
كغ.م٢	ن.م	بار	بس ، ن/م٢	بس . ث	م٢/ث	ن/م	ج

اللوحة رقـــم (٩٠)

رموز الوحدات الاساسية والمشتقة في الميكانيكـا

رجة الحرارة الثرموميـــــة كلفـــن K ك	درجة الحرارة سلسيوس C س	فترة درجة الحرارة k ويمكن استخدام c ك ، س	معامل التمدد الطولي K^{-1} ك-١	كمية الحـرارة J ج	معدل سريان الحرارة W و	الموصلية الحرارية W/m.k و/م.ك

امل انتقال الحرارة $W/m^2.k$ و/م٢.ك	السعة الحرارية J/K ج ك	السعة الحرارية النوعية j/kg.k ج/كغ.ك	انتروبيـــا J/k ج/ك	انتروبيا الفرعيـــة J/kg.k ج/كغ.ك	طاقة نوعيـــة J/kg ج/كغ	حرارة كامنة نوعية J/kg ج/كغ

اللوحة رقـــم (١٠)

رموز الوحدات الاساسية والمشتقة في الحـــــرارة

الكيميـــــــاء

كمية المادة Mol	كتلة الجزئي الغرامي kg/mol	حجم الجزئي الغرامي m^3/mol	طاقة الجزئي الغرامي J/mol	السعة الحرارية للجزئي الغرامي J/mol.k	انتروبيا الجزئي الغرامي J/mol.k	تركيز mol/m^3
مل	كغ/مل	م٣/مل	ج/مل	ج/مل.ك	ج/مل.ك	مل/م٣

تركيز الجزئي الغرامي mol/kg	معامل الانتشار m^2/s	معامل انتشار حراري m^2/s
مل/كغ	م٢/ث	م٢/ث

اللوحة رقـــم (١١)

رموز الوحدات الاساسية والمشتقة في الكيميـــــاء

البادئات في النظام العالمي

اسم البادئة	رمزها اللاتيني	رمزها العربي المقترح	العامل الذي تضرب به	
تيرا	T	ت	$\times ١٠^{١٢}$	مثال :
غيغا	G	غ	$\times ١٠^{٩}$	اذا كان رمز المتر (م)
ميغا	M	م	$\times ١٠^{٦}$	فان رمز الكيلو متر يصبح كم
كيلو	K	ك	$\times ١٠^{٣}$	والميغا متر يصبح مم
هيكتو	H	هـ	$\times ١٠^{٢}$	والميكرو متر يصبح ميم
ديكا	Da	دك	$\times ١٠^{١}$	والنانومتر يصبح نم
ديسي	D	د	$\times ١٠^{-١}$	والتيرا متر يصبح تم
سنتي	C	سم	$\times ١٠^{-٢}$	والغيغا متر يصبح غم
ميلي	m	م	$\times ١٠^{-٣}$	والميلي متر يصبح مم
ميكرو	μ	ميم	$\times ١٠^{-٦}$	والميكرو متر يصبح ميم
نانو	n	نم	$\times ١٠^{-٩}$	
بيكو	p	بم	$\times ١٠^{-١٢}$	

اللوحة رقم (١٢)

اسماء البادئات ورموزها اللاتينية والعربية المقترحة

احداث بلاد طرابلس الشام

١٠١٥ هـ / ١٠١٦ هـ
١٦٠٦ م / ١٦٠٧ م

للدكتور عدنان البخيت

يُعَيدُ نهاية القرن السادس عشر الميلادي بدات السلطنة العثمانية تعاني من اسباب الضعف والانحطاط (١) ؛ ومن مظاهر هذا الضعف كثرة حركات العصيان التي اصبحت تلفّ مختلف الولايات العثمانية، حيث كان من ابرزها الحركة الجلالية التي اكتسحت بلاد الاناضول، مستغلّةً المظالم الاجتماعية التي كانت قد لحقت بريف تلك الهضبة (٢). ولم تكن هذه الحركة لتَمُرَّ دون ان تترك لها اثرا على المناطق الشامية، خاصّةً المحاذية لها كحلب وبلاد طرابلس الشام (٣) . ولعلّه من المفيد

---

(١) حول اسباب ضعف الدولة العثمانية في اواخر القرن السادس عشر انظر :
Lewis, Bernard, The Emergence of Modern Turkey, 2nd edition, Oxford University Press, 1968, pp. 21 - 39, Inalcik, Halil, The Ottoman Empire: The Classical Age 1300 - 1600, Weidenfeld and Nicolson, London, 1973, pp. 41 - 52.

(٢) حول الحركة الجلالية انظر دراسة :
Mustafa Akdag, Turk Halkinin Dirlik Ve Duzenlik Kavgasi, Bilgi Yayinlari, Ankara, 1975.

وكذلك رسالة
Griswold, W. J., Political Unrest and Rebellion in Anatolia 1605 - 1609 Ph. D. Thesis, University of California, Los Angeles, 1966.

(٣) حول هذا الموضوع : انظر مزيدا من التفصيلات في الترجمة التي اوردها حسن ابن محمد البوريني (ت ١٠٢٤ هـ / ١٦١٥ م) لعبد الحليم اليازجي « الباغي الخارجي » (ت ١٠١٠ هـ / ١٦٠١ م) ، تراجم الاعيان من ابناء الزمان ، م ٢ ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٩٥٩ ، ١٩٦٣ ، م ٢ ، ص ٢٥٩ — ٢٧٠ ، كذلك انظر : المحبي ، محمد امين (ت ١١١١هـ / ١٦٩٩ م) ، خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر ، ٤ م ، تصوير دار صادر بيروت ، لا . ت ، م ٢ ، ص ٣٢٢ — ٣٢٤ .

هنا أن نتذكّر أن السلطنة العثمانية،انسجاما مع سياستها التقليدية (٤) ، لم تُلغِ الزعامات المحلّية المتعاونة معها في بلاد الشام بعد ضَمّ هذه البلاد الى الدولة العثمانية في عهد السلطان سليم الاول،بعد معركة مرج دابق (٢٥ رجب ٩٢٢ هـ / ٢٤ آب ١٥١٦ م) ، اذ أن معظم هذه الزعامات حافظت على وجودها مُستكينةً إبّان قوّة الدولة ضمن الإطار العثماني . الا أنها بدات تتحرّك في الربع الأخير من القرن السادس عشر لتُوسِّع من دائرة نفوذها على حساب السلطة العثمانية المحلّية ، ولكنّ ليس بقصد الاستقلال عن السلطنة العثمانية . ولقد استفادت من انشغال الدولة العثمانية في حروبها الطويلة المستديمة على الجبهتين الصفوية والنمساوية،بالاضافة الى الخسائر التي تكبّدها العثمانيون في اخضاع حركات التمرّد والعصيان في اليمن وفي غيرها (٥) . من بلدان سلطنتهم . كما انه كان قد تَرتّب على انتصار تحالُف البابوية واسبانيا والبندقية في معركة ليبانتو Lepanto البحرية،في السابع من تشرين الاول سنة ١٥٧١ م،أن قوّة الدولة العثمانية البحرية،من حيث العَدد والعُدّة والنوعية والحالة النفسية، قد أصبحت دون مستوى الاساطيل الاوروبية (٦) ، وان الدول الاوروبية ، خاصة الكاثوليكية منها ، قد عاودتها من جديد الفكرة

---

(٤) انظر مقالة :

Inalcik, H., "Ottoman Methods of Conquest", Studia Islamica, Vol. II (1954), pp. 102 - 29.

(٥) انظر :

Bakhit, M. A., The Ottoman Province of Damascus in the 16th Century. Ph. D. Thesis, SOAS, London, 1972, pp. 186 - 221.

(٦) حول معركة ليبانتو انظر :

Creasy, Edward S.,

Hisory of the Ottoman Turks, Reprint, Khayats, Beirut, 1961, pp. 219-22.

Inalick, H. The Ottoman Empire, pp. 41 - 42.

كذلك أنظر التحليل العسكري لهذه المعركة من الناحية الحربية في دراسة :

Guilmartin JR., John Francis, Gunpowder and Galleys: Changing Technology and Mediterranean Warfare at Sea in the Sixteenth Century, Cambridge University Press, 1974, pp. 221 - 252.

الصليبية المستهدفة استخلاص فلسطين من ايدي المسلمين ، ولكنْ هذه المرة ليس بارسال حملات من اوروبا،بل بالاعتماد على بعض القوى المحلية من الاقليات العِرْقيّة والمذهبيّة لتنفيذ هذا المخطط (٧) . وكان من ابرز هذه القوى الأُسرة المعنية الدرزية،والأُسرة الجانبولاطية الكردية في كلس واعزاز . ولقد وُسِّعت الاسرة الأخيرة من دائرة نفوذها،بحيث أُنيطت ولاية حلب في مطلع القرن السابع عشر بزعيمها، آنذاك،حسين باشا جانبلاط،الذي نتيجةً لتلكّئه في الانضمام الى حملة الوزير سنان باشا جغال زاده ضد الشاه عباس الاول (٩٩٦ هـ / ١٥٨٨ م — ١٠٣٨ هـ / ١٦٢٩ م) امر الوزيرُ المذكور بقتله في بلدة وان التركية سنة ١٠١٤ هـ / ١٦٠٥ م (٨) .

---

(٧) حول هذه الخطة انظر :

Salibi, K. "The Sayfas and the Eyalet of Tripoli" Arabica, Vol. xx, (1973), p. 33.

انظر ايضا لنفس المؤلف ، « فخر الدين المعني الثاني والفكرة اللبنانية » ، ابعاد القومية اللبنانية ، منشورات جامعة الكسليك ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٨٥ — ١١١ .

لمزيد من التفصيلات حول هذه الخطة انظر ايضا ما نشره الأبّ بولس قرالي :

١ — "فخر الدين الثاني وعلاقته بفردناند الاول وقزما الثاني امير تسكانيا" ١٦٠٥ — ١٦٢١ ، حريصا ١٩٣٨ .

٢ — وكتابه الثاني "فخر الدين المعني امير لبنان وفردناند الثاني امير تسكانيا" ١٦٢١ — ١٦٣٥ ، حريصا ١٩٣٨ .

(٨) حسين بن جانبلاط ، كردي الاصل،كان في ابتداء امره من الطائفة العسكرية المعروفة باسم المتفرقة،ثم خَلَف والده في امارة كلس،وتدرّج في المناصب الى أن أوكلت اليه حلب،ولكنه تلكأ في مساندة الوزير سنان باشا في حملته الفاشلة على بلاد فارس ، وكان من نتيجة ذلك أن سنان باشا امر بقتله في بلدة وان التركية في سنة ١٠١٤ هـ / ١٦٠٥ م . البوريني ، المصدر ذاته ، م ٢ ، ص ٢٧١ . انظر المحبي ، خلاصة ، م ٢ ، ص ٨٤ — ٨٧ .

أما سنان يوسف باشا المعروف باسم جغال زادة ، فلقد تربى في القصر السلطاني ، وتولّى عدة مناصب،منها ولاية ديار بكر في سنة ٩٩١ هـ / ١٥٨٣ م،كما تولى بعد ذلك بلاد وان وارضروم وبغداد . وفي سنة ١٠٠٦ هـ / ١٥٩٧ م تولّى بلاد الشام لبضعة اشهر . في سنة ١٠١٤ هـ / ١٦٠٥ م ، أوكلت اليه مهمة قيادة الجيوش العثمانية ضد بلاد فارس ، وكانت وفاته في نفس العام في ديار بكر ؛ انظر ترجمة حياته في محمد ثريا ، سجل عثماني ياخود تذكرة مشاهير عثمانية ، اسطنبول سنة ١٣١١ ، م ٣ ، ص ١١١ . كذلك انظر محمد بن جمعة المقار الحنفي (ت ح ١١٥٦ هـ / ١٧٤٣ م) ، الباشات والقضاة ، نشره صلاح الدين المنجد مع نُصّين آخرين باسم"ولاة دمشق في العهد العثماني" ، دمشق ، ١٩٤٩ م ، ص ٢٦ .

ولمـــا وصل خبر مقتله الى حلب ثـار ابن أخيه علـي جانبلاط، « ورفع علـم العصيان،وجَمَعَ الطائفة الذين يقال لهـم السكبانية حتى صار عنده منهم مـا يزيد على عشرة آلاف،ومنع مـال السلطنة (٩) » .في اثناء ذلك كانـت قوات الدولة العثمانية مشغولة في حـرب ضروس مع امبراطورية النمسـا،كما ان قوات الجلالية الخارجة عـن طاعة السلطان كانت تصول وتجول فـي بلاد الاناضول ؛ وكان قـد سَبَق ذلك أن القوات العثمانية قـد عادت خاسرة من حربها ضد الشـاه عباس . في مثل تلك الظروف عرض الزعيـم التركماني الاصل السنّي المذهـب يوسف باشا سيفـا (ت ١٠٣٤ هـ / ١٦٢٥ م) صاحب عَكّـار ، والذي كان يُوَلّى من حين لآخر بـلاد طرابلس ، خدماته على السلطان،عَلَـى « أن يكون أميرا على عساكر بـلاد الشام،على أن تكون جمعيّته بحماة،ويلتـزم بازالة علـي بك المذكور عن حلب » . فلما جـاءه الإذن السلطاني بذلك،أرسل يوسف باشا الـى العساكر العثمانية في دمشـق وفي غيرها من القلاع لملاقاتـه عند حماة . وعند التقاء الجانبين تَمكّن علـي بك ابن جانبلاط بسهولة تلفت النظـر من الحاق الهزيمة بالعساكـر العثمانية بقيادة يوسـف باشا سيفا،الذي تَوَجّه الى طرابلس الشـام ليهرب منها بأمواله الى جزيرة قبرس،ومنها الى حيفـا،ملتجئا الى الامير احمـد الحارثي . ومن هناك عـاد الى دمشق ليهرب منها الى طرابلس،مقـرّ سلطته .

ولحسن الحظ يتوافر لدينـا نَصّان لشاهِدَي عيان لتلـك الاحداث . صاحب النص الاول،ويعرف باسـم مصطفى بن جمال الدين ابـن كرامة،

---

(٩) البوريني المصدر ذاتـه ، م ٢ ، ص ٢٧١ ، لاحظ تعريف البوريني للسكبانية حيث يقول : « والسكبانية عبارة عـن طائفة كان وضعهم ان الواحد منهـم يحمل البندقية على ظهره ويقـود الكلب في ساجوره،ويمشي أمـام الامير أو الكبير حين يسير الى الصيد . وهو لفـظ فارسي ماخوذ من سـك ، فاما سـك فهو الكلـب بلغتهم،واما بـان فهو بمعنى الحامي،اي حامي الكلـب » م ٢ ، ص ٢٥٩ ؛ وكانوا يشكّلـون وحدة بارزة في فرقـة الانكشارية.انظـر :

Huart, CL. "Segban" E. I. , Vol. IV, pp. 203 - 4.

Gibb and Bowen, Islamic Society and the West, Oxford University Press, Reprint, 1963, vol. I, part I, pp. 59 - 61, p. 315.

من اهالي طرابلس الشـــام؛كتب تعليقة حول مـــا اصاب مدينته نتيجة لحركة علـــي بن جانبلاط ؛ والنَصّ الثاني للمـــؤرخ الدمشقي الشيـــخ حسن بن محمـــد البوريني (ت ١٠٢٤ هـ / ١٦١٥ م) الذي يصف لنـــا دقائق تلك الاحـــداث ومجرياتها كما كان يراها من دمشـــق . والنَصّان يكملان ويُعَضُدان بعضهمـــا البعض،ومن هنا جاءت ضرورة نشرهما معـــاً، حيث انهما مـــا زالا مخطوطين .

والذي يُهِمّنا هنـــا ان التعليقة التي بين ايدينا تُصَوِّر لنـــا مشاعر احد ابناء طرابلس،قاعدة السُنَّـــة،ضمن اطار من الاقليات الاســـلامية والمسيحية ، كما انهـــا تبين مدى الولاء القوي مـــن جانب الرعية للسلطان،حيث انَّ مَـــن عصاه « قد اطاع الشيطان » . وتُصَوِّر لنـــا كذلك نظرة اهالـــي طرابلس ليوسف باشـــا سيفا ؛ وهي نظرة احترام، لأنّ معظم المصـــادر المتداوَلة بين ايدينا والمعروفة لدينـــا ، **كتاريخ الازمنة** للبطريرك اسطفان الدويهـــي (ت ١٦٩٩ م) **وتاريخ الامير حيدر احمـــد الشهابي** (ت ١٨٣٥ م) **وأخبـــار الاعيان في جبل لبنان** ، لطَنّوس الشدياق (ت ١٨٦١ م) ، قـــد اعتمدت المؤرخ السنّي ، الشيخ احمـــد بن محمد الخالدي الصفـــدي (ت ١٠٣٤ هـ / ١٦٢٤ م) الذي كـــان معبّرًا عن وجهة نظر فخـــر الدين المعني الدرزي المتعاون مـــع العناصر المسيحية، خاصّة المارونيـــة منها ؛ بينما يوسف باشا سيفـــا ، كان سنّيًا ينعم بثقة ودعم الدولة العثمانية لـــه ، رُبّما الى درجة ان السكـــان كانوا ينظرون اليه على انـــه رجل الدولة ووكيلها (١٠) . كما ان هـــذه التعليقة تُبيِّن

---

(١٠) حول مكانة اسطفان الدويهي وطنوس الشدياق في مدرســـة التاريخ اللبناني الماروني انظـــر :

Salibi, Kamal, Maronite Historians of Medieval Lebanon, Beirut, 1959, Ibid., "The traditional Historiography of the Maronites", Historians of the Middle East, edited by Bernard Lewis and P. M. Holt, Oxford University Press, 1967, pp. 212 - 225.

انظر في نفس الكتاب مقالـــة
A. H. Hourani, "Historians of Lebanon" pp. 226 - 245.

حول اهميـــة دور اسرة آل سيفا في التاريخ المحلـــي ومن علاقاتها مع القُوى المحلّية

لنا ان قسما من اهالي طرابلس الشام كانوا قد هُجّروا مدينتهم وركبوا البحر،لعلمهم أن القوى المهاجمة هي قوى عاصية خارجة على طاعة السلطان ، خاصة وان قسما منها كان درزيا بقيادة فخر الدين المعني . ومما زاد في حراجة موقفهم،ان ذلك جاء في الوقت الذي كانت فيه الدولة مشغولة في اجتثاث الجلاليّة،ومشتبكة في حرب مع النمسا ، بالاضافة الى هزيمة العثمانيين امام الشاه عباس الاول،وما ترك ذلك من خيبة ومرارة . فلم يعد لدى سُكّان طرابلس من حيلة الا الهروب الى اقرب الجزر .

يُعرِّف صاحب هذه التعليقة نفسه بايجاز كبير حيث يصف نفسه بقوله : « ... العبد الفقير مصطفى بن جمال الدين المدعو بابن كرامة ». وعند العودة الى مخطوط **لطف السمر وقطف الثمر من تراجم الطبقة الاولى من القرن الحادي عشر** (١١) ، لنجم الدين محمد الغزي (ت ١٠٦١ هـ / ١٦٥٠ م) والقسم غير المنشور من **تراجم الاعيان من ابناء الزمان** (١٢) ، للحسن بن محمد البوريني ، (ت ١٠٢٤ هـ / ١٦١٥ م) ، **وخلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر**، لمحمد أمين الدين المحبي (ت ١١١١ هـ / ١٦٩٩ م) ، **وشذرات الذهب في اخبار من ذهب**،لعبد الحي بن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م) فاننا لا نعثر على ذكر لهذا الشخص . زيادة على ذلك فان خير الدين الزركلي وعمر رضا كحالة لا يذكرانه في معجميهما . وأما الرحالة رمضان بن موسى ابن احمد المعروف بالعطيفي الدمشقي الحنفي (ت ١٠٩٥ هـ / ١٦٨٤ م) الذي زار طرابلس الشام سنة ١٠٤٣ هـ / ١٦٣٤ م فانه لا يذكر اسم

= الاخرى انظر مقالتي الدكتور كمال الصليبي :

Kamal S. Salibi,"Northern Lebanon Under the Dominance of Gazir", Arabica, Vol. XIV, (1967), pp. 144 - 166.

"The Sayfas and the Eyalet of Tripoli 1579 - 1640", Arabica, Vol. XX, (1973), pp. 25 - 52.

(١١) مخطوط المكتبة الظاهرية رقم ٤١ ، الاوراق ١٦٨ — ٢١٧ .

(١٢) المكتبة الوطنية،باريس Cod. Arab. 1190 Mixt 346

هذا الشخص من ضمن العلماء الذين قابلهم أثناء اقامته في طرابلس (١٣).

الا أن الشيخ والقطب الصوفي عبد الغني النابلسي (ت ١١٤٣ هـ / ١٧٣١ م) يذكر في **التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية**، التي دَوَّن فيها اخبار رحلته في سنة ١١١٢ هـ / ١٧٠٠ م الى طرابلس ، أنّ من بين من لقيه « ... الشيخ الفاضل والبارع الكامل الشيخ علي بن كرامة »، ويذكر في مكان آخر أن عليّ بن كرامة قد زاره : « فزارنا في هذا اليوم أيضا عدّةٌ من الأفاضل المكرّمين والعلماء المدرّسين، منهم الشيخ الفاضل حاوي الفضائل الشيخ علي بن كرامة » . ويضيف أن عليًّا هذا قد زاره مرة ثالثة (١٤) . وعند العودة الى كتاب **تراجم علماء طرابلس وأدبائها**، لعبد الله حبيب نوفل (ت ١٩٤٧ م) ، لا نجد ذكرا لمصطفى بن جمال الدين بن كرامة هذا، بل لافراد آخرين كعمر بن مصطفى أبي اللطف (ت ١١٦٠ هـ / ١٧٤٧ م) ومصطفى بن عبد الحميد كرامة (١٥) . واذا ما رجعنا الى التعليقة نفسها فاننا نلمس، من ثناياها ومن لغتها ، أن مصطفى هذا كان على مستوى جيّد من حيث تَمَكُّنه من اللغة العربية ، وان له ولدا اسمه عمر ، وَقَعَ معه في الاسر ؛ وما عدا ذلك فان المعلومات التي يوردها عن نفسه تكاد تكون شبه معدومة .

---

(١٣) انظر نص الرحلة مع الدراسة التي قُدِّم لها بها ناشر الرحلة

Stefan Wild "Al-Utaifis Journey to Lebanon in 1043/1634"

مجلّة الأبحاث ، بيروت ، مجلد (٢٣) سنة ١٩٧٠ ، ص ٢١٣ — ٢٢٢ .

لسوء الحظ عند إعداد هذه الدراسة لم اتمكن من الاطلاع على نسخة رحلة يحيى المحاسني (ت ١٠٥٣ هـ / ١٦٤٣ م) ، "المنازل المحاسنية في الرحلة الطرابلسية"، المحفوظة في مكتبة جامعة اسطنبول تحت رقم ٤٣٢٩ .

(١٤) انظر النابلسي ، الشيخ عبد الغني (ت ١١٤٣ هـ / ١٧٣١ م) ، "التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية"، حققها وقدّم لها هريرت بوسة ، بيروت ، ١٩٧١ م ، ص ٤٩ ، ص ٧٦ ، ص ٨٧ .

(١٥) نوفل ، عبد الله حبيب ، "تراجم علماء طرابلس وأدبائها"، مطبعة الحضارة ، طرابلس ، ١٩٢٩ م ، ص ٢٥ ، ص ١٢٧ — ١٣٨ .

ان هذه التعليقة المصنّفة ضمن مجموعة Levinus Warner (١٦) ، (ت ٢٢ حزيران ١٦٦٥ م) ، قنصل هولندا في اسطنبول ، مسجّلة في مكتبة جامعة ليدن تحت رقم (١) Cod. Or. 944 (١٧) ، وهي تقع في اربع ورقات،ومجموع أسطُرها مائة واربعة وسبعون سطرا مكتوبة بخط اعتيادي ، ومدونة بتاريخ ١٠١٦ هـ / ١٦٠٦ م ، وعلى الأرجح انها النسخة الأمّ،حيث لم أعثُر على اية اشارة اخرى عنها في بقية فهارس المخطوطات المنشورة،وعلى الغالب انها وصلت فارنر باسطنبول عن طريق حلب،بواسطة محمد بن عمر العرضي الحلبي (ت ١٠٧١ هـ / ١٦٦٠ م) ، الذي كان قد اتصل بفارنر،وكان يشتري له المخطوطات العربية ويُزوِّده بها (١٨) ، أو عن طريق فردريك أخي

---

(١٦) ليفنوس فارنر Levinus Warner ، من طلبة جامعة ليدن،درس اللغات الشرقية فيها ، وسافر الى اسطنبول سنة ١٦٤٥ م . وفي سنة ١٦٥٥ م عُيِّن قنصلا لهولندا في العاصمة العثمانية ، وبقي في ذلك المنصب الى حين وفاته في ٢٢ حزيران سنة ١٦٦٥ م . وأثناء اقامته الطويلة تلك تمكّن من شراء عدد كبير من المخطوطات العربية والفارسية والتركية والعبرية التي أوصى بها قبل وفاته لمكتبة جامعة ليدن،لتكون بذلك النواة الاولى لمقتنيات تلك المكتبة من التراث الشرقي . حول حياته واقامته باسطنبول انظر مقالة

Drewes, G. W. J., "The Legatum Warnerianum of Leiden University Library" in Levinus Warner and His Legacy, E. J. Brill, Leiden, 1970, pp. 1 - 31.

(١٧) انظر فهرس مكتبة جامعة ليدن Voorheove, P.

Handlist of Arabic Manuscripts in the Library of the University of Leiden and Other Collections in the Netherlands, in Bibliotheca Universitatis, Lugduni Batavorum, Leiden, 1957, p. 361.

(١٨) محمد بن عمر العرضي (ت ١٠٧١ هـ / ١٦٦٠ م) نسبة الى بليدة العرض في برية الشام من اعمال حلب ، من اسرة حلبية معروفة بالعلم ؛ ولي القضاء بحلب،وتولّى افتاء الحنفية فيها لمدة سنتين ثم سافر الى اسطنبول حيث لم يستمرىء الاقامة هناك،وبعد عودته من العاصمة العثمانية نجده يتولى افتاء الشافعية بعد وفاة اخيه . ونعثر على رسالة منه لفارنر،ونظرا لاهميتها فاننا نورد نصها :

« حضرة بكر مطارد وواحد الفرائد (نلاحظ انه يكرر مثل هذين التعبيرين حيث يورد له المحبي نصا يذكر فيه ... « حضرة شيخ الاسلام ودرة تاج الملك

فارنر، الذي كـــان قد عمل لفترة قصيرة كقنصل لهولندا في حلـــب (١٩) ، ممّا يدلّ علـــى أن فارنر كان على اتصال بحلـــب ، على مستوى النشاط التجاري ، وكذلك على مستوى تُجّـــار المخطوطات التي شُغِف بشرائها .

تعليقة مصطفى بـــن جمال الدين بن كرامة حول احـــداث سنة ١٠١٥ هـ / ١٠١٦ هـ ١٦٠٦ م /١٦٠٧ م .

= وفص الختام بكـــر مطارد العلم وثاني الفرقد » ... خلاصـــة ، م ٤ ، ص ٩٣ ، ايلجي (السفير) ببك المكـــرم لا زال مدعي العلم لـــه مسلم ، نفاوض جنابـــه الترحاب (كـــذا النص) . هو ان الواصل اليكم من كتـــب المرحوم كاتب چلبي (ت ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٧ م) ستة كتـــب ، نزهة الخاطر للكاشي، وهـــو كتاب جليل مشتمل على أشعار عربيـــة وفارسية، وثمنه اثنـــا عشر غروشا، والمجلد الاول من تذكرة ابـــن حمدون وثمنه ستة عشر غروشا، وشرح شواهـــد التلخيص (لبدر الدين الغـــزي) وثمنه اربعة غروش ونصف، وشرح مقامات الحريري ، المتوســـط للشريشي وثمنه ثلثمائـــة عثماني، وجزء من العقد لابن عبد ربـــه وثمنه غرش واحـــد، وشرح العبدونية وثمنـــه غرشان، فالمجموع خمســـة وثلاثون غرشا وثلثمائة عثماني. وأمـــا تاريخ البناكتي (محمـــد بن سليمان الاشعري (ت ٨٩١ هـ / ١٤٨٦ م) صاحـــب كتاب روضة أولي الالباب في التاريخ، وتاريخ ختاي، وتاريخ خسروي، ورسائل الخوارزمي، فوعدنا الدالون بهمـــا، يكون معلوما لكم، والفتون ان شاء اللـــه تحصلها والسلام . من الفقير محمـــد العرضي ». ويضيف في حاشية على تلـــك الرسالة ما يلي : « ولا تؤاخذونا باخلاف الوعـــد بالمجيء اليكم يـــوم الاحد الماضي، فانه صار لنا مانع بـــل موانـــع. وتبلغ شوقنا الى المربـــوط في الدار بمقتضى تسميتكم نقولا والســـلام . وقد اشترينا نحن لانفسنا تاليفـــا لجدّنا ابن الحنبلي (رضي الديـــن) بمائتي عثماني فتفضلوا بها لنـــا والسلام وان شاء اللـــه عن قريب ناتيكم » . من هـــذا النص نلحظ بوضوح مـــدى العلاقة الحميمة التي كانت تربط الاثنين . انظـــر الخفاجي ، شـــهاب الدين أحمـــد بن محمـــد بن عمر (ت ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٨ م) ريحانة الألبّـــا وزهرة الحياة الدنيـــا ، ٢ م ، تحقيق عبـــد الفتاح محمـــد الحلو ، القاهرة ، سنة ١٩٦٧ م ، م ١ ، ص ٢٧٤ — ٢٧٨ . المحبـــي ، خلاصة ، م ٤ ، ص ٨٩ — ١٠٣ ، البغدادي ، اسماعيل بن محمـــد أمين الباباني (ت ١٣٣٩ هـ / ١٩٢٠ م) ، هدية العارفين : أسماء المؤلفين وآثـــار المصنفين ، م ٢ ، منشورات مكتبة المثنـــى ، بغداد ١٩٥٥ ، ص ٢١٤ ؛ انظر ايضـــا : اللوحة رقم ١٢ ، المنشورة صورة لهـــا كملحق لكتـــاب Levinus Warner and His Legacy.

(١٩)

Drewes, G. W. J., "The Legatum Warnerianum", in Levinus Warner and His Legacy P. 16.

تعليقة تتضمن ذكـــر أسرنا عند الكفّار والسبب الداعـــي للفرار وما أحل الله بالباغي من الويل والدمار ، والحمد للـــه الملك القهار والصلاة والسلام على النبـــي المختار وعلى آلـــه وصحبه السادة الاخيار آنـــاء الليل واطراف النهـــار صلاة تمحو عن قائلهـــا الاوزار .

« بسم اللـــه الرحمن الرحيم وصلى اللـــه على سيدنا محمـــد وعلى آلـــه وصحبه وسلم وحسبي اللـــه « ونعم الوكيل » (٢٠) . الحمد للـــه الذي وعـــد الصابرين المراتب العلية والمهم الشكر فنالوا بـــه اعظم مزية ، واشهد أن لا الـــه الا الله وحده لا شريك لـــه شهادة تدفع عَنّا كُلَّ بَلِيَّة ، وتورثنا سعادة ابدية سرمدية ، واشهد ان سيدنا محمد عبده ورسوله القائم بأعباء الرسالة وأمـــر الرعية ، صلى اللـــه عليه وعلى آلـــه وصحبه المنعوتين بمكارم الاخـــلاق والصفات البهية صلاة دائمة متوالية يتضاعف ثوابهـــا كل بكرة وعشية . أمـــا بعد فيقول العبد الفقير مصطفى بن جمال الدين المدعو بابن كرامة أجاره اللـــه من الزلل والندامة:

لمـــا كان بتاريخ اوائل شهر صفر سنة خمس عشرة بعـــد الالف وقد حصل على الديـــار الطرابلسية ما هو ليس بقابل للوصف ، ورد أمـــر من ظل اللـــه في ارضه القائم بسنّته وفرضه المؤتمن على حقّـــه واليد المبسوطة على خلقـــه، من احتباه اللـــه لوراثة الرسالة وجعل طاعته فريقا بين الهدى والضلالة لا دنيا الا بـــه ومعه ولا دين الا لمـــن والا (ه) وتبعه ، كافل الأُمّـــة وراعيها وسايس الملّـــة وحاميها ، نظام الجملة وجلاء الغمة ورباط النعمـــة ، من عصى السلطان فقـــد أطاع الشيطان ، من شايعه حمـــد في يومه وغده ورعى من العيش فـــي أرغده ومن نابذه صار في خسران وعانقه الخذلان ، جعل اللـــه رايته العليا وآيتـــه الكبرا ، مـــا تسابح القمران (٢١) ، وتوالى الملـــوان (٢٢) ، واستقر في مكانـــه جبـــل لبنـــان .

---

(٢٠) من سورة آل عمران آيـــة رقم (١٧٣) .

(٢١) القمران : الشمس والقمر ؛ أنظر جمال الدين محمـــد بن مكرم بن منظور (ت ٧١١ هـ ١٣١١ م) ، لســـان العرب ، ١٥ م ، بـــيروت ، ١٩٥٥ م ، م ٥ ، ص ١١٣ .

(٢٢) الملـــوان ، الليل والنهار، وقيل طرفا النهـــار ، ابن منظور ، لســـان العـــرب ، م ١٥ ، ص ٢٩٠ ـــ ٢٩٢ .

بعد ان انهي لسدّته،لا زالت الايام طوع ارادته،أنّ علـي بن جانْ (٢٣) بـولاد بغى واستغنى فطغى وركـب اضاليل الهوى واباطيل المنـى واحاديث النفوس الكواذب ووسـاوس الآمال الخوابث ، جال في تيهه وشقائه وسفاهة عقلـه وقلّة رايه،ودخل في ظلمـة المعصية وخرج من نـور الطاعة وركب المركب الذي لا بـد ان يترجل راكبه بل ينخذل فارسه ، مَـدَّ يدًا قصيرة ليتناول غايـة بعيدة ، أضلّه عماه وزلّت بـه قدماه ، امتطى ظهـر الاغترار واداع دواعي البوار ، اوقـد نارا للحرب بدر منها بوادر الفتنـة وهزرت على يـده شقاشـق (٢٤) المحنة ، فلما

---

(٢٣) علـي بك ابن الامير احمـد ابن جانبلاط الكردي ، ابن اخي حسين باشـا جانبلاط ، انابه عمـه في حلب عند خروجه للقـاء الوزير السردار سنان باشـا جفال زادة، وعندما وصله نبـا قتل عمه بامر الوزير المذكور رفع رايـة العصيان في حلـب، وكان جيشه المكـوّن من عناصر السكبان الهاربين مـن الخدمة العسكرية يزيد على عشرة آلاف شخص . ومَنَع الوالـي المعيَّن على حلب من الدخول اليها ، وسـار من حلب باتجاه الجنـوب حيث هزم العساكر العثمانية بقيادة يوسـف باشا سيفا (ت ١٠٣٤ هـ / ١٦٢٥ م) قـرب حماة ، سنة ١٠١٥ هـ / ١٦٠٦ م وغنم اشياء كثيرة من معسكـر العساكر الشامية ؛ وبعد هـذا الانتصار استدعى فخر الدين الذي اجاب دعوتـه وانضم اليه في حركة العصيان،فارسـلا واحتلاّ مناطق يوسـف باشا سيفا باستثناء قلعـة طرابلس ، وخرَّبا بعلبك وتوجها باتجاه دمشـق حيث هزما عساكرها للمـرة الثانية في نواحي المرادء ومـن هناك اتجهت عساكرهم لتهاجم دمشق من جهة المزة،وبـدأ افراد السكبانية والدروز ينهب الاحياء الخارجية لمدينـة دمشق ، ولم يرفع الحصار الا بعد ان دفعت لـه اهالي دمشق مائة وخمسة وعشرين الـف غرش . وفي طريق عودته مَـرَّ على حمص الاكراد وجرت اتصالات لـه مع يوسف باشا سيفا ، ادت الى عقـد مصاهرة ما بين ابـن جانبلاط ويوسـف باشا سيفـا ، ومن هناك عـاد الى حلب فارسل السلطان لـه الوزير الكبير مراد باشـا ، لأنّه (اي علـي بك) كان قد قارب ان يملك البـلاد بالاستقلال ، وفي القتال الذي نشب قـرب مرعش نجا علي بك جانبلاط براسه الـى مدينة حلب ومنها الى بلاطية،ومـن هناك قصد اسطنبول حيث عفـا عنه السلطان وولاّه حكومـة طمشوار ليُقْتَل فيها بعـد حوالي ١٠٢٠ هـ / ١٦١١ . انظـر ترجمته في البوريني ، المصدر ذاتـه ، م ٢ ، ص ٢٧١ ــ ٢٩١ ، المحبـي ، المصدر ذاتـه ، م ٣ ، ص ١٣٥ ــ ١٤٠ .

(٢٤) شقاشق : جمـع الشقشقة وهي « لهـاة البعير،ولا تكون الا للعربي من الابـل » « وقيل هو شيء كالرئـة يخرجها البعير من فيـه اذا هاج » . ابـن منظور ، لسـان العرب ، م ١٠ ، ص ١٨٥ .

تقررت احواله لديـــه،لا زالت حمائم النصر ترفرف بين يديـــه ، عيّن عليه سردارا كافل المملكة الطرابلسيـــة (٢٥) ، لا برحت مـــدا الايام من الاغيار محمية ، أمـــير الامرا الكرام كبـــير الكبرا الفخام : حضرة يوسف باشا بـــن سيفا (٢٦) ، أسعفه اللـــــه في اموره اسعافا وادام اللـــه ايامه

---

(٢٥) المملكة الطرابلسية : كانت تشكل احدى ممالك ونيابات بلاد الشام في العهد المملوكي ، حول هـــذه المملكة انظر ابـــا عبد اللـــه بن محمد المعروف بشيخ الربوة الدمشقي الانصاري (ت ٧٢٧ هـ / ١٣٢٧ م) ، نخبة الدهـــر في عجائب البـــر والبحر ، تحقيق أ . مهران ، بريل ، ليـــدن ، ١٩٢٣ ، ص ٢٠٧ ــ ٢٠٩ ؛ كذلك احمـــد بن علـــي القلقشندي ، (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) ، صبح الاعشى في صناعـــة الانشا ، القاهرة ، م ٤ ، ص ١٤٢ ــ ١٤٩ ، حول هـــذه المملكة في اواخر العهد المملوكي راجع غرس الديـــن خليل بن شاهين الظاهـــري ، (ت ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م) ، زبدة كشف الممالك وبيـــان الطرق والمسالك ، نشره بولس راويس ، بـــاريس ، ١٨٩٤ م ، ص ١٢٣ . امـــا فيما يتعلق بالحياة الثقافية في طرابلس فـــي العصور الوسطى ،فتراجَع المـــادة المجموعة عند عمـــر عبد السلام التدمري ، الحياة الثقافية في طرابلس الشـــام خلال العصور الوسطى ، بـــيروت ، ١٩٧٢ ، هذا بجانب المـــادة المتوافرة في كتاب اخبار الاعيـــان في جبل لبنـــان ، ٢ م لطنوس الشدياق (ت ١٨٥٩ م) الذي حققه فـــؤاد افرام البستاني ، بـــيروت ، ١٩٧٠ م ، م ١ ، ص ١١ . كذلك انظـــر

FR. Buhl, "Tarabulus" E. I. vol. iv, P. 660

وترجمة المقالـــة نفسها في دائرة المعارف الاســـلامية ، م ١٥ ، ص ١١٧ ــ ١٢٠ ؛ أمـــا مصطلح « كافل » فهو مرادف لمصطلح « نائـــب » وهو من القاب كبار النواب كنائب دمشق ، راجـــع القلقشندي ، المصدر ذاتـــه ، م ٤ ، ص ٤٥٣ .

(٢٦) يوسف باشا سيفا (ت ١٠٣٤ هـ / ١٦٢٥ م) ، زعيم سُنّي مـــن اصل تركماني او كردي ، كانت اسرتـــه من القُوى المحلّية البارزة في منطقـــة عكار ، واوكلت اليه ولايـــة طرابلس الشام اكثر من مـــرة ؛ عرف عنه زعامته للجناح اليمني ضـــد الجناح القيسي بقيـــادة فخر الدين المعني ، وربطتـــه علاقات المصاهرة مع المعنيين والجنبلاطيين . حول حياته انظـــر : البوريني ، تراجم الاعيان من أبنـــاء الزمان ، انظـــر النص المنشور ادناه . المحبـــي ، خلاصة الاثر ، م ٤ ، ص ٤٧ ــ ٤٩ ، ص ٥٠٣ ، الدويهي ، البطريرك اسطفان (ت ١٧٠٤ م) ، تاريخ الازمنـــة ، نشرة الاب فرديناد توتل اليسوعي ، المطبعـــة الكاثوليكية ، ١٩٥١ ، ص ٣٢٠ ، كذلك انظـــر مقالـــة

Salibi, K., "The Sayfas and the Eyalet of Tripoli, 1579 - 1640," Arabica, vol. XX (1973), PP. 25 - 52.

الزاهرة واعلا مقامه في الدنيا والآخرة . بولايته الرعية تنام وهم آمنون ويصحون (ا ا) بوجوده مسرورون ، نفوسهم في ظلال السكون وادعة ، وفي رياض الامن راتعة . فتوجّه امتثالا لأمره المطاع الواجب الاتباع نفذه الله في سائر الاقطار والبقاع ليخرجه من محروسة حلب ، وجمع العساكر وحثّ بالطلب ، هدى الى اجهاد النفس في المصالح ووقفها على سبيل المراشد والمناجح (٢٧) : بين ثغر يُسَدّ وعضد يُشَدّ وشتات يُجمَع وخَرْق يُرقَع وذمام يؤكّد وعهد يؤيّد . فلما بارز في عاشر شهر ربيع خارج حماة كاتب (ا) بن جان بولاد لبعض امراء العرب (على الهامش الاعراب) على مبلغ فاركبه هواه ، هيهات ما اضلّ فعْلَ ذلك الشقيّ من راي واسواه ، تيمّن الاماني الكاذبة وظن الظنون الخائبة ؛ فلما تلاقى العسكران وتصادم الجيشان واصطفّ الخيل والرجل وامتلأ الحَزَن (٢٨) والسهل وبرقت الابصار بشعاع السيوف وسفرت رسل الحتوف بين الصفوف ودار كأس الموت دهاقا وعاد لقا الفريق بالفريق عناقا ، وصار الفارس اقرب من ظلّه والسيف ادنى للوريد من حبله ففي ذلك المحل فرّ الشقي الموعود بالاموال وزيّن له الشيطان فعله وحثّه بالاستعجال وصوّر له الاماني الفاسدة والآمال ، فلما شاهد فراره العساكر صار راي كل لصاحبه مغاير وعاد (ت) السواعد غير مساعد (ة) والاعضاء غير معاضد (ة). ولم يزل صاحب الدولة والسعادة ، بلّغه الله الحسنى وزيادة ، ثابت الجنان لا تهوله (جاءت يهوله) صدمات الفرسان ، وصار كلما حَرَّض من العسكر جحفلا ، يُظهر ضعفا وتجلجلا ، فعند ذلك تطايرت من حوله العساكر قاصدين حماة ولم يمكث معه الا الذي ربّاه في حماه ، فسار عند ذلك صاحب الدولة وقد ادخر سعيه ليوم لا ينفع الانسان توّته ولا حوله والسما تحسد الارض بوطيه لها في سيره والنجوم تَوَدّ لاجل الثواب لو خرّت مع سنابك خيله ، ودخل محروسة طرابلس في

---

(٢٧) المناجح جاء في اللسان : « وانجح الرجل ، صار ذا نجح فهو منجح من قوم مناجح ومناجيح » ، لسان العرب ، م ٢ ، ص ٦١١ .

(٢٨) الحَزَن : « ما غلظ من الارض في ارتفاع » ، لسان العرب ، م ١٣ ، ص ١١٤ .

خامس عشر شهـر ربيع الاول، وانسرّ الناس بقدومه لأنّـه عليه المعوّل .

واما ابن جان بولاد طاوع شيطانه اذ اضلّـه وزلّ معه حين استزلّه أبى الّا امتـداد عنانه في الانقياد لشيطانه ، واستنفاذ قـواه في الاستسلام لهواه ، فدعا ابـن معن (٢٩) فاستجاب لدعائه واسرع لندائـه وسوّل لهـم الشيطا (ن) تسويلا واستغواهم تَغَرُّرا وتضليـلا وحَبّب اليهم العناد حتى شيط بلحمهـم ودمهم وكره اليهم الرشـاد حتى القوه وراء ظهرهم وصافح بينهـم (ا ب) فغادرهم رهينـا وقارنهم وسا (ء) قرينا، ولم يزل يلحـم في اسفاح الشحنا (ء) وهـم له يجيبون حتى وصلوا ظاهر طرابلس ونزلـوا بارض الجون (٣٠) ، جعلـوا يغيرون وينشرون

---

(٢٩) فخر الدين المعنـي (ت ١٠٤٣ هـ / ١٦٣٥ م) ، درزي المذهـب ، كان زعيم الجناح القيسي في بـلاد الشام ؛ بنى جيشا قويـا من العناصر الهاربة من الخدمـة التي كانت تعرف بالسكبانية ، استفاد مـن علاقاته باوروبا عـن طريق الموارنة وشجع التجارة مع اوروبـا فازدهرت موانيء لبنـان، خاصة صيدا ، نشطت الزراعة فـي عهده، خاصة زراعـة شجرة التوت لتربية دودة القـز ، حارب بني سيفا ، وبنى القلاع وشحنها بالجنود ؛ تـم القضاء عليه في عهد السلطان مـراد الرابع ؛ من اجل المزيـد عن حياته انظر احمـد بن محمد الخالدي الصفدي (ت ١٠٣٤ هـ / ١٦٢٤ م) ، تاريخ الامير فخـر الدين المعني ، تحقيق اسـد رستم وفؤاد البستاني ، بيروت ، ١٩٦٩ ؛ المحبـي ، خلاصة ، م ٣ ، ص ٢٦٦ ــ ٢٧١ ؛ عيسى اسكندر المعلوف ، تاريخ الأمير فخـر الدين المعني الثاني ، المطبعـة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٦٦ ؛ الاب بولس قرألي ، فخـر الدين المعني الثاني امير لبنـان : ادارته وسياسته ، ١٥٩٠ ــ ١٦٣٥ ، حريصـا ١٩٣٧ ؛ لنفس المؤلف ، لبنـان والدولة العثمانية في عهد فخـر الدين المعني الثاني ، مطبعة مصر الجديـدة ، ١٩٥٢ ؛ انظر ايضا محاضرة كمال الصليبي : « فخـر الدين المعني الثاني والفكرة اللبنانية » ، ابعاد القومية اللبنانيـة ، ص ٨٥ ــ ١١١، ولنفس المؤلـف .

"Fakhr al-Dīn" E. I. , vol. ii, PP. 749 - 51.

(٣٠) الجون : يفيـد معنى الزاوية ويذكر عـادة مضافا الى عكار ، جون عكار ، وفـي سنة ١٥٨٤ م ، نُهبت الخزنـة المصرية التي كانت في طريقها الـى اسطنبول في ذلك الموقـع ، مما دعا الدولة العثمانية الـى تجريد حملة على تلك المنطقة كان من نتائجها ضرب الزعامات في جبل لبنـان، خاصة الزعامة المعنيـة . حول هذه الحادثة انظر ، الدويهي ، اسطفان ، تاريخ الازمنة ، ص ٢٨٤ ــ ٢٨٥ ، الشدياق ، طنوس ، أخبار الاعيان في جبل لبنـان ، م ١ ، ص ٦٧ ، ص ٢٣٣ ، ٢٣٨ ؛ حول معنى كلمة جون ، انظـر فريحة ، انيس ، اسماء المـدن والقرى اللبنانية وتفسـير معانيها ، جونيـة ، ١٩٥٦ م ، ص ٩٧ .

من الفتن مـــا ينشرون،لا عن الدما (ء) كفّوا ولا عـــن المحارم عفّوا ، ما الذئب بالقياس اليهـــم الا من الضالحين ولا الحَجّـــاج في العراق معهم الا أول العادلين ولا فرعـــون في بني اسرائيل اذا قابلته بهـــم الا من المقربين ، مـــا تركوا للرعايا فضة الا فَضّوهـــا ولا ذهبا الا ذهبوا بـــه ولا ضيعة الا أضاعوها ولا فرســـا الا افترسوه ، توالت مظالمهـــم وظلمهم واتّصلت غائمهـــم وغُمُّهم ؛ عيَّنوا درويش بن جان بولاد (٣١) مع شرذمة هي فراش النار وأوباش الامصار فتتابعت اليـــه كلاب الغارة الشعوا (ء) وتعاوت لديـــه ذئاب الفتنة الصمّا (ء) . دخل طرابلس في أواخـــر شهر ربيع ، فالاعيان من اهلهـــا دخلوا السفن والبعض آوى (جاءت آوا) الى حصن منيـــع دخلها بمن لفّ لفّيته وصافح علـــى الضلال لكفته من اشياع الغواية واتبـــاع الغباوة أولئك الكلاب العاوية والعصبـــة الضالة الباغية،لا يقيمون لـــه وزنا ولا يمتثلون له اذنا وانمـــا صار لهم سُلَّما الـــى الاموال المستهلكة والموارد المُرْدِيَـــة المهلكة . وفي صبيحة نهـــار السبت رابع عشرى ربيـــع سافر بعض المراكب فبكـــت لمصابهم الارض والكواكب قاصديـــن الجزيرة (٣٢) والناس تبكـــي بادمع غزيرة،فلما اسفر نهار الاحد وكان يـــوم يشيب فيه لهوله الغـــراب والولد ، غلايين (٣٣) ،

---

(٣١) درويش بـــن جان بولاد : يُعَرِّفـــه البوريني بقوله،درويش بيك ابن عـــم علي بيك وانـــه اخذ مدينة طرابلس الشام لكنه لـــم يتمكن من احتلال القلعة التي تحصن فيها مملوك يوســـف باشا سيفا ، الذي كان يعرف ايضا باســـم يوسف ، انظر النص المنشـــور ادنـــاه .

(٣٢) المقصود بالجزيرة هنـــا جزيرة قبرس ؛ انظـــر نص البوريني المنشور ادنـــاه والملاحظات المدونـــة عنها في الهامش .

(٣٣) غلايين : جمع كلمـــة غليون التي هي تحريف لكلمة galleon, galion الانجليزية و galeone الايطالية ، وهي سفينة أكبر مـــن galley كان يستخدمها الاسبان في التجـــارة خاصة مع ممتلكاتهم في العالـــم الجديد . والجدير بالذكر ان الشيخ عبـــد الغني النابلسي في رحلته الى طرابلس يذكر مـــا يلي « وقد رأينا على حافة المينـــا أنواع المراكب والسفن،وقـــد ذكر لنا اسماءهم صديقنا الحاج نـــور الديـــن الطرابلسي المذكور ... فاعلم ان انواع المراكـــب واسماءها كثيرة بلغت عشرين نوعا بعضهـــا يخالف بعضا في الصورة والهيئـــة واسماؤها متعددة كل اسم يطلق على مركـــب مخصوص لا يتناول المركب الآخر لكنه يطلق على الجميع المركبـــة

النصارى علينـــا اقبلت ، فالعقول طارت والدمـــوع فارت والاصوات قد علت لهذه النازلـــة الهائلة والفظيعة والحادثة الكارثة ، يـــا لها من مصيبة لا يداوي كَلْمها آسٍ ، ولا يســـدّ ثلمها تَناسٍ ، ففي لمحـــــة ادركونا ، وضربونا بالمكاحل الطيّارة فاهالونـــا وبِشَرَر نارهم الهبونا واحاطوا بنـــا فاخذونا . كـــان في السفينة من المسلمين مائتـــا (جاءت ماتا) نفـــر وسبعة انفـــار رجال ونساء واطفال ، عبيـــد واحرار صاروا باجمعهم في قبضـة الحربيين الكُفّـــار الاشقياء الفُجّار بين مقتول، نقل اللـــه روحه الى دار السلام، واســـير موثق بين ايدي الكَفَرة اللئام وجريح تَمَنّـــل لـــه الاجل فقال لسان حاله هذا اقصى المـــرام ؛ ما الحيلة وقد حصل القضا (ء) ونـــزل البلا (ء) وكُتِب الرضى والتسليم ونحن بـــه آمنون لا حول ولا قوّة الا باللـــه « انا للـــه وانا اليه راجعون » (٢٤) ، لا نسخط لقدر اللـــه وهو عدل ولا ننتكر (٢ أ) لقضاء اللـــه وهو فصل ومن عنده الفضل ، يولي ويبلـــي ويسلب ويعطي لـــه الخلق وفعله الحق ، امـــر اللـــه سبحانه وتعالى لا يقابـــل الا بالرضى والصبر على مـــا قضى وامضى ، علما بـــأن مقاديره لا تجرى الا على موجبات الحكمـــة وتدبيره لا يخلو مـــن باطن المصلحة وظاهر النعمـــة .

= والسفينة » . ويعدد عشرين نوعا : منها الغليون . انظـــر : التحفة النابلسية في الرحلـــة الطرابلسية ، ص ٧٠ ــ ٧١ ، كذلك

Dozy, R., Supplement aux Dictionnaires Arabes, vol. ii, P. 226.

انظـــر كذلك The Oxford English Dictionary, vol. iv, P. 21.

ونجد أن ابـــن اياس ، (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م) يستخدم هـــذا المصطلح فيقول في أخبـــار سنة ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م ما يلي : « ثـــم احضر السلطان قايتباي بالقرب من (الجيزة) المركـــب الكبير الغليون الذي عمره واصرف عليـــه نحوا من عشرين الـــف دينار فارسوا بـــه قبالة المقياس ، وصنعوا لـــه ثمانية مراسي وعلقوا في صواريه القناديل في الاشـــراط .. » بدائع الزهور في وقائـــع الدهور ، م ٤ ، تحقيق محمـــد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٠ م ، ص ٢٧٦ ؛ انظر أيضا حبيب الزيات ؛ « معجم المراكب والسفن في الاسلام » المشرق ، مجلد ٤٣ (١٩٤٩ م) ، ص ٣٥٥ ، والجدير بالذكـــر أن الاستاذ انيس فريحة اســـم يذكره في معجمه ، معجم الالفاظ العاميـــة في اللهجة اللبنانيـــة ، بيروت ١٩٤٧ ، كما ان الدكتور البـــير مطلق لم يذكره في معجم الفـــاظ حرفة صيد السمك في الســـاحل اللبناني ، بيروت ، ١٩٧٣ .

(٢٤) من سورة البقرة ، آيـــة رقم ١٥٦ .

استمرَّينا بذلك الأسر نكابد المشقات والقهر بقلب هلوع ، وروع مروع نبكي على ايامنا الماضيات ونحسد من تقدَّمنا من الاموات . ثم لما تجلَّت عنا غمة الخطوب ودارت لنا بشاير الرضا من المحبوب وانشقّت سحابة محنته وتجلّت غمرة كربته وطلعت نجوم ارادته وهطلت سحابة سعادته واذن الله سبحانه وتعالى باخراجنا من الضيق الى السعة ومن الانزعاج الى الدعة ، القى (جاءت القا) الله سبحانه وتعالى الرأفة في قلب ذلك العلج النصراني فأمرني بالخروج الى محروسة صيدا في ثامن عشرى شهر ربيع الثاني وطلب فدوى (عني) وعن ثلاثة وعشرين نسمة ضممتهم الي من الاهالي : نساء واطفال اربعة آلاف وثمانمائة ذهبا عال ، فعاهدته على ذلك واسرعت بالذهاب من غير تكاسل ولا اهمال مستجيرا برسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله واصحابه خير صحب وآل مستشفعا مستغيثا متوسلا به في البكور والآصال ، فاعطف الله الكبير المتعال على هذا الضعيف قلوب سراة ذي أموال ، أعطونا تلك (جاءت ذلك) العشرة بخمسة عشر الى مضيّ شهرين،فقبلت منهم على ذا الحكم جميع ذلك الغبن ثم قالوا نحن سخينا بمالنا عليك فلا تدعنا نطالبك ، نحيل بكتابك على من يكاتبك ؛ فشكرت فعلهم ومدحت فضلهم وقلت هذه المداينة لا أعدها الا كأنها عطية وهي عندي بمنزلة الهدية وانشا (ء) الله قبل تمام المدة نوصلكم جميع هذه العدة ، ثم اني قبضت تلك (جاءت ذلك) النقود بالتمام والكمال واقبضتها للحربيين فأخرجوا في الحين جميع العيال . فلما شاهدتُ الولد الأعزّ عمر لطف الله به وبفضله له غمر تهللت مني وجوه الانس وكانت قبل عابسة واورقت (جاءت واورق) غصون من الفرج بعد أن كانت يابسة . ثم في اوائل شهر جمادي الاول دخلنا محروسة بيروت اقمنا برهة من الزمان . وفي غُرّة شهر شعبان من السنة المزبور (ة) جئنا (٢ ب) الى الاوطان فلاح لنا النجاح وانتشر نوره واومض برق الفلاح ولمعت تباشيره فوجدنا صاحب الدولة والسعادة حضرة يوسف باشا بلغه الله من خيري الدنيا والاخرى ما يشا (ء) دخل الديار الطرابلسية وحكمها ، ومن ايدي الخوارج والبغاة

قد أنقذها ، وقطع عروق البغاة اهل العناد واطلع فيها كواكب السداد . فكانما بُدِّلت من الظلمة نورا ، واعقبت من موتها نشورا .

ونرجع الى ذكر الباحث عن مدينته المتعجل الى انقطاع مدته . بسط يده في المظالم يحتقبها والمحارم يرتكبها وضرب على اهالي حلب ضرايب ضربت الاموال بالتمحيق والبضائع بالتمزيق.تلك البلاد تلهبت بجمرات ظلمه ، وتنهّبت ببدرات (٣٥) غشمه فالمحارم مهتوكة والدما (ء) مسفوكة ولسان الحال يقول.قد يكون للباطل دولة وللفساد صولة ، ثم يأتي من الانتقام والاصطلام ، ما يسقط الهام على الاقدام ، أما علم ان العزيمة من امير المؤمنين تنزل امثاله مثلا وتجعله لاهل الشقاق والنفاق مثلا ! اما علم انه اذا رماه بشعبة من افكاره ومسّه بجذوة من ناره عاد حرصه ندما وصار وجوده عدما ! وغُودِرُ اشياعه بددا بل طرائق قددا ! نصب عليه سردارا الصدر الاعظم والدستور المعظم نظام العالم مدبر جمهور بني آدم مراد باشا (٣٦) ادام الله اجلاله وبَلَّغه من خيَري الدنيا والاخرى آماله،فسار اليه بأسعد الطوالع والفواتح وايمن المحامد والمناجح فخيلت لركوبه الارض مائجة والبحار هائجة والمناجح تطرق بين يديه والميامن تسير حواليه وآيات الظفر تقرا

---

(٣٥) البدرة : هي « جلد السخلة اذا فطم ويقال ثلاث بدرات » واستخدم بمعنى كيس فيه الف أو عشرة آلاف ، لسان العرب ، م ٤ ، ص ٤٩ .

(٣٦) مراد باشا « صاحب الحروب مع المجر والعجم والجلالية » ، عُيِّن حاكما لليمن سنة ٩٨٤ هـ / ١٥٧٦ م ، واعطي بعد ذلك حكومة قرمان ، شارك في الحرب ضد بلاد فارس،ولي دمشق حيث شيد فيها سنة ١٠٠٢ هـ / ١٥٩٣ م سوقا عرف باسمه ، عقد صلح ستنا ثروك سنة ١٦٠٦ م ، مع النمسا ، عُيِّن بعد ذلك سردارا على الشرق لاخضاع الحركة الجلالية وحركة علي بك ابن جانبلاط ، كانت وفاته سنة ١٠٢٠ هـ / ١٦١١ م انظر الغزي ، لطف السمر وقطف الثمر ، ورقة ، ٤٤ ب ــ ٤٥ أ . المحبي ، خلاصة الاثر ، م ٤ ، ص ٣٥٥ ــ ٣٥٨ ، ابن جمعة المقار ، ولاة دمشق ، ص ٢٣ ، عبد القادر بدران (ت ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٧ م)، منادمة الاطلال ومسامرة الخيال ، منشورات المكتب الاسلامي للطباعة والنشر ، دمشق ، ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ م ، ص ٣٧٩ ــ ٣٨١ . صلاح الدين المنجد « خطط دمشق » مجلة الشرق ، م ٤٢ ، (١٩٤٨) ، ص ٦٢ ــ ٦٤ .

عليه والنصر يتراءى من ذائب اعلامه وبنوده وعناية الله محيطة على مواكبه وجنوده.ولم يزل سائرا والسعود تواكبه ولطائف (جاءت الطايف) الله تصاحبه حتى قرب من مدينة حلب،فخرج علي بن جان بولاد قاصدا له بالطلب يحضره الى مصرعه الاغاليل ويعجله الى هلكه الاباطيل ، حدتهم (؟) لاستعجال (جاءت الاستعجال) الآجال ، وتصورت لهم المنايا في سور الاماني والآمال،ساروا وآجالهم تفسح في مطامعهم ومناياهم تحثّ خطاهم الى مصارعهم . نقلهم الله بأقدامهم الى مصارع حمامهم (١٣) فلما التقوا وكان ذلك في شهر جمادى الآخرة دارت على أعدا (ء) الله به الدائرة من شهور سنة ست عشرة بعد الالف . وما أحلّ اللّه بهم من الانتقام ما شبّ عن طوق الوصف وعلت ريح الاقبال « لحزب الله » (٣٧) ، وذرت ريح الادبار على أعدا « حزب الله » متعهدون بالمنايح الزهر واعدا (ء) الله بوزر المعاندين ازداد « حزب الله » شدة مراس وقوة بأس مترصدون بالمنايا الحمر ، فاز « حزب الله » بأجر المجاهدين واعدا (ء) الله بوزر المعاندين ازداد « حزب الله » شدة مراس وقوة بأس وثبات مقام ، وصدق انتقام ، واعدا (ء) الله انقلبت مواكبها وتضعضعت مراكبها وانخفض بيارقها لما شاهدوا الرايات المنصورة تزحف اليهم زحفا ، ملأت قلوبهم رجفا وهي تخفق بالنجح ، والطبول تنطق بالفتح ، أمر بتسوية الصفوف التي لا فلول يعتريها ولا رجوف ، وجعل الجيوش ميامن يقاربها اليمن والنجاح ، ومياسر اقتضت اليسر والفلاح، وصار هو وقواده قلبا قالبا لمن قابله وناكسا لمن واجهه.فحين ترآى الجمعان وأفضى الامر الى قرب العيان والتهبت جمرة الضراب والطعان التقى الجمع بالجمع وقرع النبع بالنبع (٣٨) وبلغت القلوب الحناجر وشافهت المناحر المناخر فعند ذلك صمتت الالسنة وخُطبت السيوف

---

(٣٧) « حزب الله » من سورة المائدة آية رقم (٥٦) ، وكذلك ذكرت في سورة المجادلة آية رقم (٥٨) .

(٣٨) النبع : من اشجار الجبال تصنع منها القسيّ ، لسان العرب ، م ٨ ، ص ٣٤٥ — ٣٤٦ .

على المنابـــر واستمخرت (٣٩) سمر الرماح وتصافحـــت بيض الصفاح بلـــغ « حزب اللـــه » من اقتناص الاعدا (ء) اقصى المبالغ ووطئوهـــم وطء القانع الدافـــع زحموا الاعدا (ء) مـــن جوانبهم وتمكنوا مـــــن نقض مواكبهم فضاق بهـــم المجال وتحكّمت بهم الآجال فلم تَـــرَ (جاءت تـــرا) الا رؤوسا تندر ودمـــا تهدر وأعضا (ء) تتطاير واجساما تتزايل، اوسعهم ضربا وشقّـــا وطعنا ورشقا وجرحـــا وزرقا؛ وطئوهم بسنابك الخيل وتركوهم كجفا (ء) السيل صبوا عليهم سوط (جاءت صوط) (عذاب) فأسلموهم لعوادي بتـــار وتباب بين قتيل عجل اللـــه بروحه الى دار جزائه وأسير قـــد أوثقه ما ارتكب من سوء رأيـــه ، وابن جان بولاد نكص على عقبـــه وقد كادت صروف الايـــام تفترسه وبأنيابها تنتهشه،لم ينـــج الا بشرذمة لاذت بذمّة الهرب ولن يفوتوا يـــد الطلب،اطار الرعب قلوبهم وسكن الخـــــوف لبهم ، خرجوا من تحت طـــي السيوف وقد شارفتهم ، وشبـــا (٤٠) الحتوف وقد شافهتهم ، ولم يزل دائرا في البلاد ليجد من يعينه علـــى البغي والعناد فلم يجد (٣ ب) لـــه مساعد ولا خل معاضد،فأحـــب عند ذلك قرب الموت لمـــا رأى من ضيق العيش وبعد الاوطان وقهـــر الجيش،ودخل على بعض البغاة فـــأراد (جاءت فارد) بعضهم أن يوثقـــه ويجعله اسيرا وبعضهم ظاهره وكـــــان في خلاصه نصيرا.فانهزم وتصـــد الاعتاب العليّة والســـدّة العالية السنيّة في سابع عشرى شهر رمضـــان سنة ست عشرة بعـــد الالف من هجرة سيد ولـــد عدنان يلتمس العفـــو ، وَرَمَّقُه على تَلَف وشفاهته علـــى شرف، فأُخِّر لأَجَل مضروب وانسيء لأُمـــل مكتوب .

وأمـــا « حزب اللـــه » عادوا منصورين مؤيدين موفورين لـــم يَمَسَّهم جراح ولا عضّهـــم سلاح،غنموا أموالهم التي لـــم يؤدوا منها حقا معلوما ولم يغنوا منهـــا سائلا ولا محروما ، ودخـــل الصدر الاعظم مدينة حلـــب والزمان ضاحك متظاهر البشر مـــن الفتح الذي نطقت بـــــه

---

(٣٩) من مخـــر : استمخر قابل ، لســـان العرب ، م ٥ ، ص ١٦٠ ــ ١٦١ .

(٤٠) شبـــا : الشباة طرف السيف وحَـــدُّه،وجمعها شبا ، لســـان العرب ، م ١٤ ، ص ٤٢٠ .

السنةُ الشكر ومنحت لـه ابواب البشر ، والممالك ملأى (جاءت ملىء) تهاني وبشارات والأوليا شورى بين أفراح ومسرات ، وسلمت قلعة حلب الشهبا بعد دخوله بثلاثة ايام من غير حصار ولا اهتمام لعظيم سطوته (جاءت حطوته) ، منحة من الكبير المتعال ، عُرتهم هزّة وتحكّمت بهم الأوجال ، طلبوا الذين (جاءت الذي) كانوا في القلعة الامان فأعطاهم ، فنزلوا على اسوا الاحوال ، هناه الله بالطوالع السعيدة عند نهضته ودلت عليه البشائر الحميدة في سفرته وقد دانت له الطوائف وآمن به الخائف . كان حلوله بمركز غرة الديمة الوطفا عن السنة الشهبا والنور المنتشر بعد الظلام المعتكر ، انحسرت الغمّة بتلألؤ جبينه ودرت النعمة باخلاق يمينه فاصبح العدل ممدود الرواق والسلطان نصره الله ساطع الاشراق ، محروسا بعين عناية الملك الخلاق الواضع قدمه على ناصية الشمس ، الساحق بضيائه انوار البدر ، الضارب برواقه من فوق النجم المبسوط بين المغربين شعاعه الممدود على الخافقين شراعه ؛ فالله يديم له الفتح يمينا ويسارا ويزيد أعداه ذلاً وخسارا ويجعل اعداه حصائد سيوفه ورهائن خطوب الدهر وصروفه .

ترجمة يوسف باشا سيفا للشيخ حسن بن محمد البوريني (٤١)

« الامير يوسف بن سيفا واخوه الامير علي ، قد اتفق (١٤٩ ب) مسيرنا الى طرابلس الشام فنهضت اليها من دمشق في شوال سنة ثمان والف من الهجرة النبوية على مهاجرها الف الف تحية . ومررنا

---

(٤١) الشيخ حسن بن محمد البوريني (٩٦٣ هـ / ١٥٥٦ م ــ ١٠٢٤ هـ / ١٦١٥ م) ، مؤرخ من اصل نابلسي عاصر احداث سنة ١٠١٦ هـ / ١٦٠٥ م ، حول حياته وثقافته ومنزلته العلمية ومؤلفاته ، انظر الترجمة الوافية ومصادرها التي افردها له صلاح الدين المنجّد في تقديمه للمجلد الاول من تراجم الاعيان من ابناء الزمان ، دمشق ١٩٥٩ م ، ص ٥ ــ ٢٦ . النص الذي ننشره ماخوذ من مخطوط تراجم الاعيان من ابناء الزمان ، نسخة ميّنا ، رقم

Cod. Arab, 1190, Mixt. 346

وهذا النص يقع في خمس صفحات ونصف في كل صفحة تسعة وثلاثون سطرا .

على مدينة عكـــار (٤٢) فاجتمعنا بالاميرين المذكورين وكان الامير علـــي لـــه تعلق بأهداب الآداب ، وتوثق من معرفته بأوثق الاسبـــاب ؛ ولعمري لقد شاهدت دولـــة سيفية وشهدت بسعادة يوسفيـــة وعاينت مجدا عاليا وجـــودا وافيا يشمل البعيـــد والقريب . وكانت بهما عكـــار صافية ، ووعود الزمان بالمراد لمـــن قصدها وافية ، فاشتهرت بعـــد الخمول وقُصِدَت حتى صارت محـــطّ الحمول ؛ ولعمري أن الدولـــة السيفية كانت وريفة الظلال باســـمـــة الثغور عن عقـــود الاقبال . وقد مدحتُ صاحب انشاء الدولـــة المذكورة ، الامير يوســـف ذو السيرة المشكورة بقصيدة ميميـــة ومدحت اخاه عليـًّا بأخرى رائية ، وانصرفتُ من عكار الى طرابلس الشـــام وطرفي لبرق اقبـــال هاتيك الديار قد شـــام ، ورايت في الطريق بقايـــا حصن يقال له عِرْقا (٤٣) وقـــد عرقه الدهر الجاير بمديـــة جوره عَرْقا ، وشاهدتُ تحامل الزمـــان على نواحيه وتشتيته لجموع ساكنيـــه واهليه مع انـــه من الحصون القديمة التي

---

(٤٢) النصوص المتوافرة بين أيدينا لا تشير الى مدينة تعرف بعكار بل تشير الى حصن عكـــار . فيقول عماد الدين اسماعيل ابـــو الفداء (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) ، : « وعكـــار حصن في الجبل المذكور (جبل عكـــار) » . أمـــا القلقشندي فيذكر ما يلي : « وهي قلعـــة على مرحلة من طرابلس في جهـــة الشرق بوسط جبل لبنـــان في واد ، والجبل محيط بهـــا وشرب اهلها من عين تجري اليهـــا من ذيل لبنان المذكور ولها ريض ليس بالكبـــير » . وكانت تشكل نيابات مملكة طرابلس الشـــام في العهد المملوكي ونيابتها امرة عشرة ونائبهـــا يخاطب « النائب بحصن عكار » انظـــر ، تقويم البلدان ، حققه م . رينود والبارون ماك كوكين دي سلان ، المطبعـــة الملكية ، باريس ، ١٨٤٠ م ، ص ٦٨ ؛ صبح الاعشى في صناعة الانشـــا ، م ٤ ، ص ٨٥ ، ص ١٤٤ ، ص ٢٣٥ ، م ٧ ، ص ١٧٦ ، م ٩ ، ص ٢٥٣ ، م ١٢ ، ص ٤٦٤ — ٤٦٥ ، يورد المؤلـــف هنا نص كتاب تقليد لاحسد النواب .

(٤٣) يعرف ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) ، عِرْقَة ، بقولـــه : « عرقة بكسر أولـــه وسكون ثانيه ... بلدة في شرقي طرابلس بينهمـــا أربعة فراسخ وهي اخـــر عمل دمشق وهي في سفـــح جبل بينهما وبين البحر نحو ميـــل وعلى جبلها قلعة لها » ويذكرها ابـــو الفداء بقوله : « هي بلدة صغيرة ذات قلعـــة صغيرة ولها بساتين ونهـــر صغير ... » ، انظر معجـــم البلدان ، م ٦ ، تحقيق فردناند وستنفلد ليبزج ، ١٨٦٨ ، م ٣ ، ص ٦٥٣ — ٦٥٤ ، تقويـــم البلدان ، ص ٢٥٤ — ٢٥٥ .

محت رسومه كل ديمة مستديمة . فلما دخلتُ طرابلس عجبتُ من محاسنها ورأيتُ عجايب البحر بالقرب من مساكنها ودخلتُ اليها مسا ليلة الاحد من اواسط ذي القعدة المنتظم في سلك شهور سنة ثمان بعد الالف من هجرة خير الانام عليه من الله الصلاة والسلام . ونزلتُ في منزل وكيل الامير علي اليوسفي السيفي وهو المسمى بعلي ابن المقدم،وكان بين جماعته هو المشكور المقدم وكان النزول عنده باشارة استاذه المذكور بل بأمره الذي يطيعه كل مأمور ، فاكرمنا اكراما وواصل الينا انعاما وحبانا الطافا ومَنَّ علينا إسعادا وإسعافا ، وحضر الينا علماء طرابلس مسلّمين ولدعوى العلم من جانبنا مسلمين . وقد صدر أن الامير يوسف بن سيفا حاكم مدينة طرابلس صاحب هذه الترجمة أرسل في اواسط سنة خمسة عشر بعد الالف الى باب السلطنة العلية بقسطنطينية المحمية يتطلب حكما سلطانيا منشورا خاقانيا ، بأن يكون راس العساكر الشاميَّة وامير الامرا في هاتيك الولاية السنية لينتقم من علي بيك ابن الامير احمد بن جان بلاد الخارج بحلب الشهبا الذي تباعد عن الطاعة وابى ؛ فاجيب الى ذلك ، وظَنَّ السلطان ايده الله تعالى انه قادر على ما هنالك وارسل اليه الحكم المطاع الواجب الاتباع بأن يكون راسا على جميع العساكر ورئيسا لجميع الجماهر من حدود غزة والقدس ونابلس واللَّجُّون وعجلون والكرك الى حدود طرابلس وجبلة واللاذقية وحمص وحماة وما هناك من الاكراد والترك والعرب،وان يسعى على ازالة حكمه من حلب ونواحيها وان يعيد الحكم السلطاني في البلاد المذكورة من قوادمها الى خوافيها . فلما جاء الامر المذكور وتَقَدَّر عنده الحكم المنشور أرسل الى حكام العباد وراسل الامرا في سايـر البلاد فاجتمعوا في حماة وجعلها موطنه وَحِماه،وذهب هو ايضا اليها ونصب سرادقه عليها. ونهض علي بيك من حلب الى هناك وتقابلا وتقاولا وتجاولا ، ذاك مع السكبانية الباغين وابنُ سيفا مع عساكر حضرة سلطان المسلمين ، فقدَّر الله تعالى ان الكسيرة الكبيرة وقعت على جانب عسكر السلطان، وخرج سيف ابن سيفا من الاجفان ولكنه ما عاد اليها بعد الخروج،

وقد قبل قدم الخروج قبل الولوج ، فر الى الشام وما عرجوا على الخيام ، فيالها (١٥٠ أ) من كسرة ما وجدوا بعدها نصره ؛ فلما دخل علي بيك الى مخيم الشاميين وابن سيفا وراى هناك سعادة وسلاحا ورمحا وسيفا، قوي مزاجه وعز مع الغير امتزاجه فارسل الى ابن معن فخر الدين يطلبه للاقبال اليه بعد انكسار الشاميين. فاقبل اليه وورد عليه وكان اجتماعهما عند منبع العاصي، وكان ذلك رسما لاجتماع العصاة من الداني والقاصي ، فاتفق رايهما أن يرسلا الى طرابلس عسكر (ا) ياخذها من يد ابن سيفا واتباعه ؛ فعيّنا لذلك درويش بيك ابن عم علي بيك مع جماعة لتفريق جيش ابن سيفا بعد اجتماعه ، فبادر ابن سيفا الى الهرب من شدة الخوف والرهب الى ركوب السفينة بنفس لفراق وطنه حزينة وابقى قلعة طرابلس حصينة بجيوش في ضمنها كمينة وجعل راسهم مملوكه يوسف ، ودعا له بالحماية من موجبات التلهُّف والتأسُّف، واتخذ سبيله في البحر سربا وقضى الناس من فراقه لاوطانه عجبا ، واخذ معه اموالـه الكثيرة وصحب محاسن امتعته العزيزة وسار معه غالب اهل طرابلس من الرجال والنساء في مراكب متعددة وسفن في البحر متبددة فما (ما) سفينته التي سار فيها فقد جرّتها الريح الى قبرص «٤٤» ونواحيها، ودخل الى بعض مداين الجزيرة المذكورة ولم يجد ما رامه عندما قدم عبوره فطار في السفينة باجنحة الشراع واقلع عن ذلك الساحل بقوادم القلاع وسار الى الجانب القبلي ملججا ولم يلو على طرابلس معرجا حتى خرج من ساحل حيفا «٤٥» من توابع اللجون (جاءت الجون) ولم يسمع نصيحة

---

(٤٤) حول تاريخ جزيرة قبرص في العهد العثماني انظر :

Hill, Sir George, A History of Cyprus, vol. iv, Cambridge University Press, 1952, PP. 1 - 99.

ومقالة : Dakkot, Besim, "Kibris" I. A., vol. vi, PP. 672 - 76.

(٤٥) حول النصوص الجغرافية التي تذكر حيفا انظر ما جمعه الاب مرمرجي الدومنيكي في بلدانية فلسطين ، بيروت ، ١٩٤٨ ، ص ٦٥ . في سنة ٩٤٥ هـ / ١٥٣٨ م كان عدد سكان حيفا عشرين خانة جميعهم من المسلمين وريع حاصلاتها المدفوع

اخوانه الذين في نصحه يُلجّون. وامـا السفينة التي حملت امتعته المصونة واحتملت درره المكنونة فانهـا صارت للنصارى غُنْمـا ولقي بذهابها خسرانا وغرمـا،وكاد (جاءت وكان) يقتـل وكيلها الذي أقامه عليها وجعله ناظـرا وحافظا لديها ؛ والذاهب لا يعـود والطوالع ليست متمخّضة للسعود.وامـا مَن سار من رجال طرابلس ونسائهـا في صحبة الامير ابن سيفا فانهم وَجَدوا بالأسر حَيْفًا وليتهم لو تبعوه حتى دخلوا حيفا ، فأخذتهم النصارى وصـاروا في قبضتهم اسارى،فكـم عزيزة صارت في ايديهـم ذليلة ومن مصونة اصبحت في قبضتهم بعـد الصحة عليلة،وكم من عزيز في ايديهـم قد ذَلّ ومن عظيم قد احتُقِر بعد ما جَـلّ ؛ ولعمري انها كانت لفضيحة قبيحـة ومصيبة اصابت لعـدم قبول النصيحة . ثم ان الطاغية الذي أسر نسـاء اهل طرابلس الشـام مكث في نواحي قبرس

= للدولة كـان يساوي ٤٧٨١ اقجة . كما يشار الى وجود اسكلة (ميناء) فيها تتقاضى الدولـة رسوما عن السفن التي ترده ، مقدارها الف اقجة سنويا ؛ والجدير بالذكر أن البحـار العثماني بيري محي الدين ريس (ت ح ١٥٥٥ م) يشير في وصفه لساحـل فلسطين الى وجود قلعة مدمرة في حيفـا الا أن ميناءها كـان يصلح للرسو ، وبموجب احصاءات سنة ١٠٠٥ هـ / ١٥٩٦ م ، كـان عدد سكان حيفـا ٣٢ خانة جميعهم من المسلمـين ومجموع ما يتحصل منها عشرة آلاف اقجة . الا أن هـذا الاحصاء لا يشير الى رسـوم الاسكلة مما قد يوحي بانها كانت معطلة كميناء . انظـر طابو دفتري رقم ١٩٢ (اسطنبول) ، ص ٣ ، طابو دفتري رقـم ١٨١ (انقـرة) ، ص ١٩ ــ ٢٠ .

Heyd, U. "A Turkish Description of the Coast of Palestine in the Early Sixteen Century", Israel Exploration Journal, vol. vi, (1956), pp.210-211.

انظـر ايضـا : "Hayfa", E. I^2 . vol. iii, PP. 324 - 26.

راجع بالاضافة الى مـا ذكر اعلاه جميل البحري ، تاريخ حيفـا ، المكتبة الوطنية ، حيفـا ١٩٢٢ م .

من اجل مقارنة حيفا مع كل من يافـا والناصرة في القرن السادس عشر انظر مقالتي :

Bernard Lewis : "Nazareth in the Sixteenth Century, According to the Ottoman Tapu Registers".

"Jaffa in the 16th Century, According to the Ottoman Tahrir Registers", in Studies in Classical and ottoman Islam Variorum Reprint, London, 1977, PP. 416 - 446.

كاسبا للآثام ، وشرع يبيع النســـا لرجالها ، وينادي لكـــل فرقة وعيالها، فبلـــغ الناس في النســـا مبلغا عظيما وثمنـــا جسيما لكنْ مع الفضيحة الكاملة والحسرة الشاملـــة التي احرقت القلوب وعَظُمت الكروب ، وكـــان الرجل ينظر زوجتـــه مأسورة ، ويرى جاريته منظورة والمنـــادي ينادي في كل نادي،فمنهم مـــن يقدر على الفكاك ومنهم من يسقـــى من الإشراك في الأشراك،ومنهم مـــن يُفكّ نفسه دون اهلـــه فيذهب عنها وقد فقد نور عقله،فكم من بِكْـــرٍ جميلة الصورة اصبحت في يـــد المشركين وهي مأسورة ، وكـــم من غلام يفوق البدر عند التمام ، وقـــد ناح عليه ابواه عند الفراق وذاب منهما الجســـم بشديد الاحتراق،وذلك من اعظـــم المصايب واشدّ النوايب . وامـــا ابن سيفا فانه خرج من البحـــر ضيفا عند الامـــير احمـــد (٤٦) ابن المرحوم الامير طرباي ابن الامير علـــي الحارثي،وهو الآن امير لـــواء اللجون (٤٧) فقام اليـــه مكرِّما ولنزوله معظِّما واظهر لـــه ما يليق بأمثاله من اكارم الأُمرا وأُمرا الاكارم ، وابرز لـــه ما يساوي

---

(٤٦) حول حياة الشيخ احمـــد بن طرباي الحارثي ، (ت ١٠٥٧ هـ / ١٦٤٧ م) ، امـــير لـــواء اللجون ودور اسرته في تاريـــخ سنجق اللجون بشمالي فلسطـــين منذ اواخر العهد المملوكي،انظر المحبـــي ، خلاصة الاثـــر ، م ١ ، ص ٢٢١ ــ ٢٢٢ . كذلك مقالـــة موشي شارون :

"The Political Role of the Bedouins in Palestine in the Sixteenth and Seventeenth Centuries", in Studies on Palestine during the Ottoman Period, edited by Moshe Maoz, Jerusalem, 1975, PP. 11 - 30.

كذلك دراستي : الأسرة الحارثية في مرج بنـــي عامر ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م ــ ١٠٨٨ هـ / ١٦٧٧ م . المقدمـــة لندوة تاريخ العرب الحديث ، جامعة عـــين شمس ، القاهرة ، ٧ ــ ١٢ ايـــار ١٩٧٧ ، (تحـــت الطبـــع) .

(٤٧) حول لـــواء اللجون انظر دراستي المشار اليهـــا سابقا خاصة هامش رقـــم ٢ ، ص ٢٥ . ولقد كـــان هذا اللواء يشمل النواحي التالية : شفا ، ساحل عتليت ، ناحية شمرا وناحية جنـــين ، لمزيـــد من التفاصيل انظر :

Wolf Dieter Hutteroth and Kamal Abdulfattah, Historical Geography of Palestine, Transjordan and Southern Syria in the late 16th Century, Erlangen, 1977, PP. 157 - 161.

البحار الزاخرة من المكارم ؛ والحال أن ابن سيفا طلّع الى الامير المذكور وليس معه من جماعته سوى سبعة رجال على ما هو مشهور (١٥٠ ب) غير أن معه من الاموال مالا يدخل تحت الاحصا ولا يشمله الاستقصا ، وارسل علي بيك ابن جان بُلاد الى الأمير احمد طرباي رسالة تشتمل على ما معناه،انك يا امير احمد اُجتهد في قتل ابن سيفا وجَرِّد في قتله وقتاله رمحا وسيفا ولك المال بأسره وتحرَّ لنا الرأس فبادر بذلك فلا حرج عليك ولا بأس ، وان لم تفعل جوزيت منا بالعتاب او بغاية التعزير والعقاب . فأجاب بأن هذه كلمة لا تقال،ومَن وقع في مثل هذا فعثرته لا تُقال ، ليس ذلك من فعل الامرا ولا من شان الاعيان والكبرا ؛ كيف يكون ضيفي ويناله رمحي وسيفي ؟ ثم انه بادر الى اهداء الخيول المسوّمة (٤٨) وتقديم الضيافات المعظّمة وقال له مرحبا بك يا امير واهلا بجودك الخطير ، لو كان لي مال لقَدَّمته اليك ووضعته بين يديك ، ولكن عندي خيول ليس لها مثيل ولا يشابهها جواد ولا في التمثيل،وفيها جواد جيد قوي ايد جموح أبيّ ما علا ظهره احد بعد ابي ، وهو لك مني عطية راضية مَرْضيّة ليس فيها منّة عليك بل هي نعمة منك اليك ؛ ثم انه اضافه اياما عديدة وخَدَمَه خِدْمَةً سعيدة واكرم مثواه واجلّ ممشاهُ ؛ ثم انه ارسل الى عسكر الشام يطلبهم الى بلاد اللجون فساروا اليه ووردوا عليه ، فسار معهم على

---

(٤٨) يلاحظ أنه عند عودة الامير فخر الدين المعني من ايطاليا،بناء على موافقة السلطات العثمانية سنة ١٠٢٧ هـ / ١٦١٧ م ، الى صيدا عبر عكا ، ان الامير احمد الحارثي « ارسل كتخداة بتقدمة الخيل ايضا التي ترتضيها الغواة ». راجع الشيخ احمد بن محمد الخالدي الصفدي ، تاريخ الامير فخر الدين المعني ، ص ٦٩ .

طريـــق حوران (٤٩) ولـــم يسر على جُـــبّ يوســـف (٥٠) وأرض كنعان (٥١) خوفـــا من الامير فخر الدين ابن معن فانـــه عَدُوُّه وعند (٥) أصحاب الضرب والطعن ، فلمـــا دخل الى أرض الشام وجـــد أهلها في

---

(٤٩) في أواخر القـــرن السادس عشر الميـــلادي كانت حوران تشكل قضاء مـــن ضمن سنجق دمشـــق الشام ، وشمل هذا القضاء النواحي التاليـــة : ناحية البطيحة ، ناحية الجولان الغربـــي ، ناحية الجولان الشرقي ، ناحيـــة الكفارات ، ناحية بنـــي كنانـــة ، ناحية بنـــي جهمة ، ناحية بنـــي ماتكة ، ناحية بنـــي الاعسر ، ناحية جيدور ، ناحية بنـــي كلاب ، ناحية بني مالك الصدير ، ناحية بني مالك الاشراف ، ناحية البثنية ، ناحية بني عبد اللـــه ، ناحية بنـــي صرما ، ناحية بنـــي مقلـــد وناحية بنـــي نشبة،وليست نشية كما جاءت عنـــد Hutteroth انظـــر :

Bakhit, M. A. The Ottoman Province of Damascus in the 16th Century, Ph. D. Thesis, London, 1972, PP. 85 - 93, (in the press),

والملاحظ أن الاستـــاذ هوتروث يضيف ناحية اخرى هـــي ناحية بني عطية ، أنظـــر هوتروث ، المرجع ذاتـــه ، ص ٢٠٤ ـــ ٢٠٥ .

(٥٠) جـــب يوسف بالقرب من نابلس ؛ فيما يتعلق بهـــذا المكان أنظر ما جمعه عنه الاب مرمرجي الدومنيكي ، بلدانية فلسطـــين ، ص ٤٩ ـــ ٥٠ .

(٥١) أرض كنعان (الارض المنخفضة أو الغـــور) ، كانت في البداية تُطْلَق على بـــلاد الساحل ثـــم اتّسع مدلولها ليشمل بـــلاد سورية الجنوبية الغربية بأكملها . الا أن مفهـــوم الجغرافيين المسلمين لهـــذه البلاد كان على الارجح يقتصر على الشمـــال الشرقي لبـــلاد فلسطين . يذكر أبو الفداء واديًا يُعْرَف بوادي كنعان فيـــه ضيعة تعرف باســـم كفرلا تبعد عن جـــب يوسف اثني عشر ميلا وانها بالقرب من بانياس . كما أن الشيخ صدر الدين أبـــا عبد اللـــه محمد بن عبد الرحمن الدمشقي الشافعي العثماني (ت ٧٨٠ هـ / ١٣٧٦ م) يذكر صفـــد بقوله « أما صفد نفسها فحصـــن منيع بقنّة جبـــل كنعان » راجع ياقـــوت : معجم البلـــدان ، م ٤ ، ص ٣١١ ـــ ٣١٢ ، أبـــو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٢٤٨ ـــ ٢٤٩ ، ص ٢٧٠ ـــ ٢٧١ .

Bernard Lewis, "An Arabic Account of the Province of Safad" BSOAS, vol. xv, (1953), P. 479.

فيما يتعلق بالمفهـــوم التوراتي لهذه البلاد ، أنظـــر :

Smith George Adam, The Historical Geography of the Holy Land, New York 1907, PP. 4 - 5.

كذلك الخارطة رقـــم (٣) المرفقـــة بكتاب :

Yeivin, Sh., The Israelite Conquest of Canaan, Nederlands Historishch — Archaelogisch Institute, Istanbul, 1971.

الخيام وهم في انتظار العساكر القادمة من الأطراف لحصول الإسعاد منهم والاسعاف على ابن جان بلاط ومن معه من الاخلاط كابن معن ويونس (٥٢) ابن الحرفوش،وكلّ من باطنه خاين مغشوش ؛ فانهم لما كسروا جيوش ابن سيفا على حماه حرس كلّ منهم بيت المغرور وحماه،وقصدوا طرابلس الشام فهتكوا حريمها ولم يبق لها احترام، واقام بها درويش ابن حبيب ابن جان بلاط مدة يفسد فيها ومن معه من الاخلاط الى ان اصبحت قاعا صفصفا وما عفا عن اهلها ، فما هي من ظلمه عفا ، لا سيّما بيوت توابع ابن سيفا فانه قد اورثهم حيفا،اللهم الا قلعة طرابلس المحمية فانها نجت من حوادث البليّة،وما ذاك الا ان يوسف مملوك ابن سيفا حماها وحصّن ربعها وموطنها وحماها ، وكان يلقي من باطن القلعة المذكورة نيرانا محرقة يخرب بها بيوت اكابر طرابلس،لا سيما بيوت التابعين لابن سيفا . ولما وصل درويش ابن حبيب الى طرابلس الشام واوصل الى اهلها ما قدر عليه من التعدي والآلام ذهب علي بيك ابن عمه وابن معن الى نواحي بعلبك فأحرقوا ربضها ونهبوا المدينة وما قدروا عليه من قراها،واستمرّوا راحلين الى ان استقرّوا في البقاع وانزلوها في الحضيض بعد اليفاع.

ولنذكر في اثناء هذه الحكاية (التي) توجب غاية النكاية،وهي ان الامير موسى ابن الحرفوش امير الامراء ودار الاماجد الكبرا فخر بني حرفوش بالاتفاق؛ بل هو فخر امراء الشام على الاطلاق،كرم لا يباريه الغمام وعهد صادق العقدة في غاية الابرام وشجاعة فاقت على الاسود واصالت على كل ذي اصل يسود ، نهض من بعلبك وهو حاكمها الى نواحي حمص مستقبلا لابن جان بلاط وجيوشه ، مداراة

---

(٥٢) جاءت في النص يوسف بن الحرفوش،والأصحّ كان اسمه يونس بن حسين بن موسى الحرفوش الذي اصبح « امين بلاد بعلبك » بدل عمه الامير موسى بن علي الحرفوش الذي كان ذا ميول سنّية،وتدخّل للصلح ما بين علي بن جانبلاط من جهة وما بين يوسف باشا سيفا من جهة اخرى،الا انه فشل في مهمته وهرب مع يوسف باشا سيفا ؛ انظر البوريني ، تراجم الاعيان ، م ٢ ، ص ٢٧٥ ، ايضا ورقة ١٤٨ ب ، ١٤٩ أ ، المحبي ، خلاصة ، م ٤ ، ص ٤٣٢ ــ ٤٣٣ .

عن عِرضه ومحامـــاةً عن ارضه،فتحادثا وتقـــاولا وتشاورا فيما صدر وتجاولا،فقال الامـــير موسى هلّا تعطيني عهدا على الصلح بـــه جرح الخراب يوسى ، وانـــا اذهب الى الشام وآخـــذ لك العهد الوثيق من الانام؟فقال اذهب سليمـــا وكن يا موسى كليما ؛ فحضر الى الشـــام ورمي من عسكرها بغايـــة الكِلام لشدّة مـــا اوجعوه بغيظ الكَلام ظنًّا من جهلائهم انـــه عليهم،وما كان الاّ ناويا ســـوق الخير اليهم ، (١٥١ أ) فلما حضر الى امـــير الامرا قال له بما قد جيئت على قدر يـــا موسى فجرِّدْ سيف عزمـــك لعلَّه يُذهِب البوسى،فقال يـــا امير الامرا : ابن جان بـــلاط يطلب منك أن تعطـــوا حوران لعمرو (٥٣) البدوي مـــن العرب المفارجة،والبقاع العزيـــزي لابن الفريخ (٥٤) منصور بـــن بكري،وأدخلوا

---

(٥٣) عمـــرو البدوي هو عمرو بن جبر شيخ عشيرة المفارجة ، حليف فخـــر الدين المعني ؛ كان رشيد بـــن سلامة بن نعيم شيخ السرديين مـــن المفارجة ينافسه على المشيخة في حوران،وكان رشيـــد موضع عطف الدولة العثمانية ، حيث أعطي سنة ١٠٢١ هـ / ١٦١٢ م ، المشيخـــة بحوران ، حول دورهما في معركة الصراع القيســـي ـــ اليمني ؛ انظر البوريني ، المصدر ذاتـــه ، م ٢ ، ص ٢٢٤ ـــ ٢٢٥ ، ص ٢٣٢ ـــ ٢٣٣ ، انظـــر كذلك نص البوريني الموجود في مكتبة جامعة ليـــدن باســـم : كراستان نُقِلتـــا من خـــط الشيخ حسن البوريـــني Cod. or. 1515 ورقة ٤ ا ، حيث أن هـــذا النص يتفق مع النص الـــذي نشره صلاح الدين المنجّـــد في هامش ص ٢٢٥ من المجلـــد الثاني ، راجع ايضا الشيخ احمـــد الخالدي الصفدي ، المصدر ذاتـــه ، ص ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ص ١١ ، ص ١٣ .

(٥٤) الامير منصور بـــن الفريخ (ت ١٣ ربيع الثاني ١٠٠٢ هـ / ٦ كانون الثاني ١٥٩٤ م) قُتِـــل في دمشق بأمر من السلطان بنـــاء على رغبة والي دمشق آنذاك مراد باشا ، ولقد كـــان امير البقاع العزيزي بعد القضاء علـــى اسرة آل الحنش البدوية السنية أعطي حكومة نابلس وامارة الحـــاج والتزم أموالا للدولة على صفـــد ، كان يقف ضد الدروز والمعنيين خاصة : ترك عشرة أولاد أكبرهـــم قرقماس الذي قُتِل على يـــد الامير موسى بن الحرفوش في ١٠٠٣ هـ / ١٥٩٤ م ، بايماز من فخـــر الدين المعني بعد أن رفض الامـــير يوسف باشا سيفا ايواءه . مـــن هنا نرى أن منصور بـــن الفريخ قد قُتِل قبل هذه الحوادث . ولربما اختلـــط الامر على الناســـخ فخلط ما بين اســـم ابـــن الفريخ واســـم الامير فروخ بن عبد اللـــه الجركســـي امير الحاج الذي تولّى حكومـــة نابلس وعجلون والكرك ســـنـــة ١٠٢١ هـ / ١٦١٢ م ، وامارة الحاج ، ولـــم يزل في هذا المنصب الى أن مـــات بمكة المشرفة في سنة ثلاثين والف

كيوان (٥٥) الى الشـــام كما كان ، واكتبوا عرضا بـــأن ابن جان بلاط لم يدخل الى أرض الشـــام ، وان ابن معن فخر الديـــن يؤدي ما عليه من مـــال السلطان،وبلاده موصوفة بالامان ؛ فعَقَدَ امير الأُمَـــرا ديوانا لهذه المطالب ، التي جـــاء الامير موسى وهو لها طالب ، فاتفقوا علـــى أن حوران تعطى لعمـــرو ولكنْ في السنة القابلة،وامـــا البقاع فان اعطاءه لمنصور المذكور غـــير معقول ، لكونه عند الرعايا غـــير مقبول ، واما كيوان فانه يرجع الـــى الاوطان وعليه ما علـــى الناس من الامان ، واليمين من جانبنا لازمـــة لجميع الاخوان وقد كنت حاضر (ا) فـــي الديوان بدعوة من وكيـــل السلطان،فقال امير الامرا وهـــو الوكيل للفقير العليل : اكتب لنـــا صورة مكتوب الى ابن جـــان بلاط واخبره بما جرى عليه الاتفاق مـــن قبول دخول كيوان والعفو عنـــه وعن ذنوبه،ومن وعده باعطـــا (جاءت بااعطا) حوران ، لعمرو في السنـــة القابلة،ومن الاعتذار من عـــدم اعطا البقاع لمنصور بـــن الفريخ ابن بكري،واُخبِرْه بأن المحضر سيصل اليـــه بما طلب في حقّه وفي حـــقّ ابن معن . فلما انفض الديوان علـــى ذلك وقع الاتفاق على أن يحضروا في اليـــوم الثاني الى بيـــت رجل من الجند الشامي يقال لـــه تركمان (٥٦) حسن فاجتمع

= (١٦٢٠ م) ، انظر احمـد الخالدي الصفدي ، المصدر ذاتـــه ، ص ٧ ، ص ٨ ، ص ٩ ، ص ١٦ ، ص ٢٧ ، ص ٣٥ ، الغزي ، لطـف السمر ، ورقة ٢١٢ ب ـــ ٢١٣ أ ، المحبـي ، المصدر ذاتـــه ، م ٣ ، ص ٢٧١ ، م ٤ ، ص ٤٢٦ ـــ ٤٣٢ .

(٥٥) كيوان بن عبد اللـــه (ت ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٣ م) ، زعيم الجنـاح العسكري بدمشق المتعاون مع فخـــر الدين المعني ، كانت نهايته على يـــد فخر الدين نفسه ، حول دوره في معركة الصراع ما بـــين العسكر في دمشـــق واستغلال العسكـــر للصراع القيسي ـــ اليمني في صراعهم ذاك ، انظر الغزي ، لطـف السمر ، ورقة ٤٣ ب ـــ ٤٤ أ ، ب ، المحبـي ، المصدر ذاتـــه ، م ٣ ، ص ٢٩٦ ـــ ٣٠٣ .

(٥٦) تركمان حسن المقصود بـــه حسن باشا ابن عبد اللـــه الامين الكبير المعروف بشويزة حسن مـــن صدور دمشق واعيانها الذي كـــان يرجع اليه في المهمّـــات ويعول عليه في الامور،وكانت تناط به أمور دمشق عند غياب ولاتها . توفي سنة ١٠٢٧ هـ/ ١٦١٧م. احتلّ ابنه محمـــد دورا مماثلا الى حين وفاته سنة ١٠٧١ هـ / ١٦٦٠ م ، حول حياتهما انظـــر ، الغزي ، لطف السمر ، ورقة ٢٩ ب ، ٣٠ أ ، المحبـــي ، المصدر ذاته ، م ٢ ، ص ٢٤ ـــ ٢٧ ، م ٣ ، ص ٤٢٧ ـــ ٤٢٨ .

الجند كلّه في بيت الجندي المذكور ما عدا الوكيل الاكبر عن السلطان وقاضي القضاة فانهما ما حضرا ولا استحضرا.فوقع الاتفاق على كتابة مكتوب مرغوب خطابا لعلي بيك ابن جانبلاط بما سبق من الاتفاق، وعلى كتابة ديباجة محضر بأن المذكور ما وطىء ارض الشام،وان ابن معن يوصل مال السلطان في محله ، وبلاده آمنة الطرقات . فأما المكتوب فقد كَتَبْتُه وخَتَمَه اعيان الجند،وأما المحضر فانه عرض على الشيخ محمد بن سعد الدين (٥٧) فما قبل معناه ولا رضي بفحواه، وابرق وارعد وما وعد ، بل توعد و (قال) انا انا لا اكتب هذا ولا ارتضيه ولا اقبله ولا امضيه ؛ فرجع الامير موسى الى ابن جانبلاط بغير المراد ، فعند ذلك قال ابن جان بلاط ما يظهر مقامي عند جند الشام الا باظهار البرهان ، واظهار السيوف البارقة والخرصان (٥٨).وقام من يومه قاصدا بلاد بعلبك وبلاد البقاع،وتخريب الاماكن والبقاع ؛ وأما الامير موسى ابن الحرفوش فانه استمر هاربا من ابن جانبلاط الى دمشق، فاخبرهم بأنه ترك الجماعة قصدا للموت على الطاعة ، واقتضى حضوره الى دمشق حضور جند ابن جانبلاط وحشرات ابن معن الى بعلبك فنهبوها ، والى من بقي من النسا والرجال ففرّقوها ، وخيّم ابن جان بلاط وابن معن في البقاع العزيزي ، وانحاز اليهم يونس بن الحرفوش ومن معه من أولاد عمه مغاضبا لحضرة الامير الكبير ذو القدر الخطير الامير موسى ابن عم يونس المذكور ، وخرج الجند الشامي الى الميدان الاخضر بدمشق وخيّموا هناك،واستحضروا سنجق القدس وسنجق نابلس وسنجق غزة وسنجق اللجون وسنجق

---

(٥٧) الشيخ محمد بن سعد الدين الجباوي (ت ١٠٢٠ هـ / ١٦١١ م) ، شيخ الطريقة الجباوية بدمشق كان ملّاكا كبيرا ، وكان يتوسط لدى الحكام نيابة عن الرعية خاصة عند زيادة الضرائب.لمزيد من التفاصيل حول حياته راجع البوريني ، المصدر ذاته ، م ١ ، ص ٣٠٥ ــ ٣٠٦ ، الغزي ، لطف السمر ، ورقة ٦ ب ــ ٧ ا ، المحبي ، المصدر ذاته ، م ٤ ، ص ١٦٠ ــ ١٦١ .

(٥٨) خرصان : جاءت خرصاز ، أما الخرصان فهي الرماح ، انظر لسان العرب ، م ٧ ، ص ٢١ ــ ٢٤ .

عجلون،واما صند فانها كانت مع فخر الدين بن معن وهو كان مع المخالفين الخارجين.ولم تزل الجند تتزايد في دمشق،وكذلك عسكر الخوارج فانه ايضا كان يزيد.وترددت الرسل في الصلح من الجانبين فما حصل اتفاق،واختلفت آراء الجند الشامي فمنهم من كان يميل الى الصلح ومنهم من كان يميل الى القتال،حتى ان ابن جان بلاط ارسل من خوارجه جماعة الى دمشق (١٥١ ب) يطلبون الصلح فما رضي بذلك راس جاويشة العسكر الدمشقي،وهو محمد الشهير بابن الدزدار (٥٩). وخرج العسكر الشامي من الميدان الاخضر الى مكان يسمى المراد (٦٠) وزحف ابن جان بلاط وابن معن ومن معهم الى مقابلة العسكر الشامي. ومع ذلك ايضا فان ابن جان بلاط كان يُظهر إرادة الصلح،فما وافق على ذلك ابن الدزدار المذكور ومن تبعه من الجند الشامي ؛ والقدرة غالبة ويد الله غالبة . وفي اواسط جمادى الآخرة من شهور سنة خمس عشرة بعد الالف زحف الفريقان،ووقع بينهما القتال،فما فاتت ساعة او قريب من ساعتين واذا بالعسكر الشامي قد رهب فهرب ، مع كثرة عدده ووفور عدده.وبالله لقد اخبرني من رأى الفريقين ان خيل اهل الشام حزرت فكانت تناهز اربعين الف فرس،وكانت عددهم وآلة (جاءت الت) حربهم في غاية القوة والمتانة،ولكنّ جند الله غالب وقدره سالب ؛ ولما هرب اهل الشام انقسموا فرقتين،فواحدة ذهبت الى اذرعات (٦١) في اواخر ارض حوران هربا من ابن جان بلاط

---

(٥٩) لم اعثر له على ترجمة في المصادر المتوافرة لدي .

(٦٠) المراد تقع الى الجنوب الغربي من دمشق .

(٦١) اذرعات ، كانت في العهد الفاطمي كما نقل ابو الفداء من حسين بن احمد المهلبي (ت ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م) صاحب كتاب المسالك والممالك المعروف بالعزيزي ، « مدينة كورة البثنية » ؛ ويذكر ياقوت أنها « بلد في اطراف الشام بجاور ارض البلقاء وعمان،ينسب اليه الخمر ».في القرن السادس عشر كانت تقع في ناحية بني مقلد.وتذكرها دفاتر الطابو باسم « قرية مدينة اذرعات » وانها كانت خاص ميرميران . بلغ عدد سكانها حوالي سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م ثماني عشرة خانة مسلمة ، ليرتفع عدد سكانها حوالي سنة ٩٥٠ هـ / ١٥٤٣ م ، الى ثمان واربعين خانة مسلمة وخمسة مجردين وخانة مسيحية واحدة ،

وابن معن،واخـــرى رجعت الى الشام.والراجعة الى الشـــام قسمان، القسم الاول ســـاروا متفرقين مشتتين،والقســـم الثاني مكثوا في دمشق محاصرين،وغلقـــت الابواب وتهيأ من بهـــا للحراب؛فقصدها حزب العدوّ ونهبوا ما كـــان خارج السور من المســـاجد والخانات والاسواق والدور ، وانبثّ الخوارج الأشقيـــا في البيوت الواقعة خارج دمشـــق،واخذوا الأسباب عـــن آخرها الا قليلا تَخَبّوا تحـــت الارض،وأسروا كثيرا مـــن الاولاد وتحاموا الحريم مـــن النسا ؛ وذهب ابن سعد الديـــن الشيخ محمـــد الى ابن جان بلاط وهـــو نازل على قرية المِـــزَّة (٦٢) فما قابله بالمزة ، وطلب منـــه حاميا يحمي محلّته المعروفة بالقبيبات (٦٣) فاعطاه

= انظـر : ياقوت ، معجـم البلدان ، م ١ ، ص ١٧٥ ــ ١٧٧ ، ابـو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٢٥٢ ــ ٢٥٣ ، طابـو دفتري ٤٣٠ (اسطنبـول) ، ص ٥٥٥ ، طابـو دفتري ٤٠١ (اسطنبـول) ، ص ٦٧٠ .

(٦٢) المـزة بالكسر ثم التشديد .. وهي قريـة كبيرة غناء في وســط بساتين دمشـق ويقال لها مـزة كلب . كان عدد سكانها في النصـف الاول من القرن السادس عشر على النحـو التالي :

طابو دفتري رقم (٤٠١)	طابو دفتري رقم (٢٦٣)
(ح ٩٥٠ هـ / ١٥٤٣ م) اسطنبول	(٩٥٥ هـ / ١٥٤٨ م) اسطنبول
(١٥٠) خانـة مسلمة	(٢٦٢) خانـة مسلمة
(٣٥) مجـرد مسلـم	(ـــــــــ)
(١) خانـة مسيحية	(٣ خانـة مسيحية)

طابو دفتري رقم (٤٠١) ص ٦٠ ــ ٦١ طابو دفتري رقم (٢٦٣) ص ١٨٢ ــ ١٨٥

ياقوت ، معجـم البلدان ، م ٤ ، ص ٥٢٢

(٦٣) القبيبات : يُعَرِّفها الشيخ محمـد احمد دهمان بانها « محلة مشهورة في الميـدان قرب الجامع الكريمي « جامع الداساق »،سميت بذلك لان اكثر بيوتهـا ذات قباب ولا يزال بعضها باقيـا الى الآن ».انظر القلائـد الجوهرية في تاريخ الصالحيـة لابـن طولون ، م ٢ ، تحقيـق الشيخ دهمان،دمشـق ١٩٤٩ ، ١٩٥٦ ، م ١ ، ص ١١٠ (الهامش) . كان عـدد سكان هذا الحي بموجب دفاتـر الطابو على النحـو التالـي :

طابو دفتر (٤٠١)	طابو دفتري (٢٦٣)	طابو دفتري (٤٧٤)
(ح ٩٥٠ هـ / ١٥٤٣ م)	(٩٥٥ هـ / ١٥٤٨ م)	(٩٧٧ هـ / ١٥٦٩ م)
(٢٧٣) خانـة مسلمة	(٣٧٩) خانة مسلمة	(٣٩٨) خانة مسلمة
(٦) مجـرد	(٦) مجـرد	(١٢) مجـرد
ص ٤٤ ــ ٤٥	(١) خانة مسيحية	(١) خانة مسيحية
	ص ٤٢ ــ ٤٨	ص ٧٢ ــ ٧٩

رجلا من السكبانية يقال لـــه عقيل فمكث عنده حاميا بيتـــه وحده ، ولم يَحْمِ بيتـــا من القبيبات سوى بيته.على أن بيته قـــد اخذ منه خيله وبغاله ودوابه وغالب مالـــه النقد،فكان الحامي يحمي لنفسه . أما اهـــل القبيبات فقد غُدِروا من شيخهـــم المذكور لانه قال لهم من رفع يـــده للقتال كان من المقتولين ، فالقـــوا سلاحهم وظنوا انهم يُرْحَمون بترك قتالهـــم؛فما كان القاء السلاح الا سببـــا لخراب الديار وعدم حماية الذمـــار ، فاجتمع عليهم الذلّ والجبن ونهبُ المـــال وبعض الاولاد،واللـــه تعالى ينتقم من اهل الغرور والعنـــاد ؛ واستمرّ النهب في المحـــلات الخارجة عن سور دمشق ثلاثة ايـــام ولم يبقوا صامتا ولا ناطقا ولا ولـــدا صغيرا من اهل الاسلام،وما نجـــا سوى اهل محلة الشاغور (٦٤) فانهـــم حاربوا الخوارج خارج السور وقتلـــوا منهم ما يزيد على ثلاثين رجـــلا بالخصوص.وقد قتل من الخوارج في الايـــام الثلاثة في نواحي بساتين دمشق وعلـــى أبوابهـــا وبين بيوتها ما يقرب من الفـــي رجل ، وغالب القتل كـــان من شباب دمشـــق واحداثها . واما ابن سيفا فانـــه ما خرج مع الجند الشامي الى القتـــال،فاستمرّ محتجبا في البيوت مع النســـا لا الرجال زاعما انـــه مريض؛فلما بلغته كسر العسكر خاف وغَـــمَّ اعضاه الارتجاف

---

(٦٤) الشاغور ، أحـــد الاحياء الخارجية لمدينـــة دمشق ، تذكر دفاتـــر الطابو الشاغور البرانـــي والشاغور الجواني.وكان عـــدد سكانها كما يلي :

أ ـــ الشاغور البرانـــي

طابو دفتري (٤٠١)	طابون دفتري (٢٦٣)	طابو دفتري (٤٧٤)
(٥٥٩) خانة مسلمة	(٤٣٦) خانة مسلمة	(٥٣٦) خانة مسلمة
(٤٢) مجـــرد	(ـــــــ)	(١٧) مجرد مسلم
(٢) خانة مسيحية	(ـــــــ)	(٤) خانة مسيحية
ص ٢٦ ـــ ٢٩	ص ٨٢ ـــ ٨٨	ص ٩٢ ـــ ١١٠

ب ـــ الشاغور الجوانـــي

طابو دفتري (٤٠١)	طابون دفتري (٢٦٣)	طابو دفتري (٤٧٤)
(٣٢٧) خانة مسلمة	(٢٦١) خانة مسلمة	(٢٢٠) خانة مسلمة
(٣٠) مجرد مسلم	(١٩) مجرد مسلم	(٨) مجرد مسلم
(٦) خانة مسيحية	(٤) خانة مسيحية	(٢) خانة مسيحية
(١٣) شريـــف	ص ٨٨ ـــ ٩٢	ص ٨٧ ـــ ٩٢
ص ٢٩ ـــ ٣٢		

فوزن لقاضي دمشـــق وبعض اعيانها ما يزيد على مائـــة الف غرش،وهي التي كانت سببـــا لخلاص المدينة من حصار ابـــن جان بلاط وابن مهنى؛ وذلك انه اعطى المـــال المذكور وفتحت له ابواب دمشق ليـــلا ونجا براس حمراء،ونجـــا وخرج مع البازي عليه ســـواد وسار معه بعض الجند الشامي،وسار معـــه ايضا المرحوم الامير موسى ابـــن الحرفوش؛ولم يزالوا معه حتـــى وصل الى حصن الاكراد (٦٥) واستحصن بـــه لانه كان محفوظا مع عمـــه الامير محمود ابن سيفا.وقبض ابن جان بلاط المـــال (١٥٢ أ) الذي اعطاه ابـــن سيفا ورحل عن دمشق بعد الايـــام الثلاثة، وذهب متوجها الى نواحي حلـــب،وسيشرب في مجلسه مـــا جلب وحلب. وللقصة تتمـــة مفيدة تذكر ان شاء اللـــه تعالى في هذا الكتاب بالخصوص لانها مشروحة في فصـــل بها مخصوص،واللـــه اعلم .

---

(٦٥) يذكرها ياقوت في معجمه بقوله « حصن الاكراد علـــى الجبل المقابل،وهو بين بعلبك وحمص.وكـــان بعض أمراء الشام قد بنـــى في موضعه برجا وجعل فيـــه قوما من الاكراد طليعةً بينه وبين الفرنج،واجرى لهـــم ارزاقا فتدبروها باهاليهم ثـــم خانوا علـــى انفسهم في غـــارة فجعلوا يحصنونه الى ان صارت قلعـــه حصينة منعت الفرنج عن كثير مـــن غاراتهم؛فنازلوه فباعه الاكراد منهـــم ورجعوا الى بلادهـــم. وملكه الافرنج وهـــو في ايديهم الى هذه الغاية.وبينه وبين حمص يـــوم ولا يستطيع صاحبها انتزاعها من ايديهم.ويذكر ابو الفداء انه كان مقرّ ولاية السلطنة قبل فتح طرابلس . امـــا القلقشندي فيذكر انه احدى نيابات مملكة طرابلس الشام ونيابتـــه امـــرة عشرة ورســـم المكاتبة للنائب « النائـــب بحصن الاكـــراد ».ياقـــوت ، معجم البلدان ، م ٢ ، ص ٢٧٦ ، ابـــو الفداء ، كتاب تقويم البلـــدان ، ص ٢٥٩ ، القلقشندي ، صبـــح الاعشى ، م ٤ ، ص ٨٥ ، ٢٣٥ ، م ٧ ، ص ١٧٦ . راجع المـــادة التي اوردها عـــز الدين بن شداد (ت ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م) . عن حصن الاكراد في كتابـــه "الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشـــام والجزيرة" ، تحقيق سامي الدهان ، منشورات المعهـــد الفرنسي ، دمشق ، ١٩٦٢ ، الجـــزء المتعلق بلبنان والاردن وفلسطـــين ، ص ١١٥ ـــ ١٢٠ .

انظـــر كذلـــك :

Elisseeff, N., "Hisnal-Akrad" E. I. vol. iii, PP. 503 - 506.

التقريـــر الســـنـــوي الاول

لمجمع اللغـــة العربية الاردني لعـــام ١٩٧٧ م

اولا : ـ الخطـــوات التاسيسيّـــة

صدر قانون مجمـــع اللغة العربية الاردني رقـــم (٤٠) لسنة ١٩٧٦ م في عـــدد الجريدة الرسمية رقم (٢٦٣٤) تاريخ ١٩٧٦/٧/١ م .

وفي اليوم الأول مـــن شهر تشرين الأول سنة ١٩٧٦ بـــدأ المجمع بخمسة اعضاء ، عُيّنهـــم مجلس الوزراء ، بنـــاءً على تنسيب من وزير التربية والتعليم ، وفقـــاً للفقرة (ب) من المـــادة (٢٠) من القانون المذكور ، فكانوا هـــم النواة لمجلس المجمع ، والمكتـــبَ التنفيذيَّ الأول لـــه . واقترنَ قرار التعيين هـــذا بالارادة الملكية الساميـــة .

وعَقَد مجلسُ المجمـــع اجتماعه الأول برئاسة وزير التربية والتعليم ، وانتَخَب رئيســـا لـــه ، ونائبا للرئيس ، ونسب الى السيد الوزيـــر تعيين امين عـــامّ للمجمع : فكان الدكتور عبـــد الكريم خليفة رئيسا للمجمع ، والدكتـــور محمود السمرة نائبـــا للرئيس ، والدكتور محمـــود ابراهيم والدكتور سعيد التـــل عضوين . وصَدَر قرار وزيـــر التربية والتعليم بتعيين الأستاذ عيســـى الناعوري امينا عامـــاً للمجمع .

وصـــدرت الارادة الملكيـــة السامية بتعيين الدكتور عبـــد الكريم خليفة رئيســـا للمجمع .

هـــذه كانت الخطوات الأولـــى والاساسية لتاسيس المجمـــع ؛ وهو المجمع الرابع في العالـــم العربي ، بعد مجمع دمشـــق ، ومجمع القاهرة ، ومجمـــع بغداد . والقانون رقم (٤٠) لسنـــة ١٩٧٦ م يحدّد

اهداف المجمع في المـادة (٤) منه ، كما يحدد في المـادة (٥) الوسائل التي يحقّق بهـا المجمع هذه الاهـداف .

ثانيا : ـ مقـرّ المجمع وانتظام العمـل

مـن ١٩٧٦/١٠/١ م الى ١٩٧٧/٧/١ لـم يكن للمجمع مقر خاص بـه ، يستطيع أن يمارس فيه عمله بانتظام وفعالية . وكـان يأمل ان يكون مقرّه المبنـى القديم لمجلس الأُمّـة ، فهو خير مكان يمكن ان يصلح للمجمع . ومن اجـل ذلك قام رئيس المجمع بمقابلة دولـة رئيس الوزراء ، ثـم تشرّف الرئيس واعضاء المكتـب التنفيذي بمقابلة جلالة الملك المعظم . وقـد تفضّل جلالته بابداء اهتمامه الكريم بالمجمـع ، وبرسالته السامية ، وقـال جلالته انه يمنح المجمع دعمـه المطلق ، ووعـد جلالته بدراسة موضوع المبنـى القديم للمجلس .

وخلال هـذه الفترة لقي المجمـع من الجامعة الاردنيـة رعاية مشكورة ، ومسـاعدات ثمينة سهّلت لـه ممارسة المهمّ والضروري من أعماله : فكـان المكتب التنفيذي ومجلس المجمـع يعقدان اجتماعاتهما في رحاب الجامعة ، كمـا كان قسم كبـير من أوراق المجمـع وَمَحاضِر جلساته يُطبَـع ويُسْحَب على الآلـة الناسخة في الجامعة نفسهـا ، وبوسائل الجامعـة ، وبواسطة بعض موظفيهـا .

وفي ١٩٧٧/٦/١ وقـع اختيار المجمع على مبنى مناسـب في جبل الحسين ، فاستأجره بمبلـغ (عشرة آلاف دينار سنويـا) . ومضى يؤثثـه بالعاجل الضروري من الأثاث لضمان انتظام عملـه ، كما عَيَّنَ المجمع ثلاثة موظفـين : واحدا للمحاسبة واللـوازم ، وواحدا لاعمال الديوان ، والثالث كاتب لـوازم ويساعد الاثنين ؛ وعَـيَّن كذلك اثنين من الأذنـة ؛ وطُبِعَت أوراق ومغلّفات وملفّات خاصة بالمجمـع . ولم يستكمل المجمع اثاثـه ولوازمه بعد .

وانتظم العمل في مَقـرّ المجمع ابتداء من ١٩٧٧/٧/١ ، واخـذ المكتب التنفيذي ومجلس المجمـع يعقدان جلساتهما في المقـرّ الجديد .

وقد انضمّ الى عضوية المجمع ستة اعضاء في بادىء الامر ، وعضوان بعد ذلك ، نسّبهم مجلس المجمع ، وصدرت بتعيينهم ارادة ملكية سامية ؛ فاصبح عدد اعضائه الآن ثلاثة عشر عضوا .

ثالثا : ــ موازنة المجمع

خلال الأشهر الثلاثة الأولى من تاسيس المجمع ــ وهي الأشهر الثلاثة الاخيرة من العام المالي ١٩٧٦ ــ حُوِّلت مخصصات لجنة التعريب والترجمة والنشر من وزارة التربية والتعليم الى حساب المجمع . وقد بلغت تلك المخصصات (١٤ر٣١٤ر٧٥٠) اربعة عشر الفا وثلاثمئة واربعة عشر دينارا وسبعمئة وخمسين فلسا .

وفي العام المالي ١٩٧٧ قرّر مجلس الوزراء تخصيص اعانة سنوية للمجمع في الموازنة العامة مقدارها (٦١ر٠٠٠) واحد وستون الف دينار ، تَسَلَّمها المجمع من وزارة المالية على اربع دفعات ، قيمة كل منها (١٥ر٢٥٠) خمسة عشر الفا ومئتان وخمسون دينارا .

وتَلقّى المجمع ، بفضل مؤازرة العضو الدكتور محمد سعيد النابلسي ، محافظ البنك المركزي ، تَبرُّعًا من البنوك المحلّية مقداره (٩ر٨١٢ر٥٠٠) تسعة الآف وثمانمئة واثنا عشر دينارا وخمسمئة فلس .

وعند إعداد الموازنة ، في اواخر عام ١٩٧٦ ، للعام المالي ١٩٧٧ ، طَلَب المجمع رصد مبلغ (١٠٠ر٠٠٠) مئة الف دينار لبناء مقرّ له ، فلم يُرْصَد المبلغ في الموازنة .

وهكذا تأخّر بناء مقرّ المجمع ؛ وسيعاد طلب رصد هذا المبلغ للعام المالي القادم . وقد قام رئيس المجمع اخيرا ، مع عضو المجمع الدكتور اسحٰق فرحان ، بمقابلة دولة رئيس الوزراء ، وبحثا معه في موضوع البناء،فوعد دولته بالاهتمام به .

رابعا : ــ اعمال المجمــع ومشاريعه

١ ــ رغبــة في انتظام العمل في المجمع ، قــام المكتب التنفيذي بوضع مشاريع الأنظمة التاليــة : استنادا الى الفقرة (د) من المــادة (١٣) من قانون المجمــع :

ا ــ النظــام المــالي .

ب ــ نظــام الموظفين والمستخدمين .

جـ ــ نظــام اللــوازم .

د ــ نظــام علاوات الانتقــال والسفر .

وقــد رُفِعَت هذه المشاريع بواسطة وزيــر التربية والتعليم الى مجلس الوزراء لاقرارهــا ، فأُحيلت الى ديوان التشريــع ؛ وقــام الديوان بدراستها واعادة صياغتها ، ثــم اعيدت طباعتها بصيغتها النهائية التي أقرَّهــا ديوان التشريع . ولكنَّ هــذه الانظمة لــم يتمَّ إقرارها بعد في مجلس الوزراء رغــم مضيّ بضعة اشهر على رفعها اليــه .

وفي المقابلة التــي تَمَّت اخيرا بين دولة رئيس الــوزراء ورئيس المجمع ، والدكتور اسحــق الفرحان ، جرى البحث في موضــوع الأنظمة المتأخرة ، واهمّيتهــا بالنسبة الى انتظام عمل المجمــع . فوعد دولتــه بالعمل السريع علــى اصدارها .

وقد أعَــدَّ المكتب التنفيذي كذلك عــددا من مشاريع التعليمات الداخلية التنظيمية ، وهــي تنتظر صدور الانظمة المذكورة آنفــا لكــي توضع موضــع التنفيذ .

٢ ــ من اهــم المشاريع التي انصرف اليها المجمــع مشروع تعريب التعليم العلمــي الجامعي . وقد ناقش هــذا الموضوع في ثلاثة اجتماعات مــن اجتماعات مجلس المجمــع ، كما بحثه في اجتماعات اخرى من اجتماعات المكتــب التنفيذي .

وقد قَـدَّم الدكتور احمـد سعيدان مذكرة اقترح فيهـا اسماء عدد من الكتـب الممكن الشروع في ترجمتهـا ، واقترح كذلك اسماء المترجمين ، وقـدَّر تكاليف الترجمة . فوافـق عليها مجلس المجمع ، كما عَرَض الامـر على جامعة اليرموك لمعرفـة رايها ، فأيَّدت المشروع ، ووعدت بالمشاركـة في الترجمة . ويرجى الشروع فـي الترجمة قريبا ، بالتعاون مـع الجامعة الاردنية وجامعة اليرموك ؛ ونأمل أن نجـد تعاونا كافيا من سائر الجامعـات العربية ، لكي تصبح اللغـة العربية في وقت قريب لغـة التعليم العلمي الجامعي في العالم العربـي بأسره .

٣ ــ وتعاوَنَ المجمـع كذلك مع الجامعة الاردنيـة ، ولا سيّما كليـة التربية فيهـا وعمادة البحـث العلمي والدراسات العليـا في الجامعة ، لانجـاز مشروع حصر المفردات المستعملة فـي المرحلة الابتدائية . وقد تَـمَّ المشروع في وقت قصير ، وأُرسِلَـت الاوراق كاملة الى الجزائـر ، حيث يتمّ الاشراف علـى تنسيق المشروع باكمله في العالـم العربي . وقد أَشْرَف على انجاز هـذا المشروع الأستاذ عبد اللـه عويدات ، من كلية التربية في الجامعة الاردنية ؛ وكان تمويل المشروع مـن الجامعة نفسها ، في حين دفـع المجمع مكافأة ماليـة للمشرف على المشروع مقدارها مئـة دينار .

٤ ــ ورغبةً في المسـاعدة على تعريب المصطلحات في دوائر الدولـة ومؤسساتها ، كتب المجمـع الى جميـع الوزارات والدوائـر والمؤسسـات الاردنية لتزويده بما لديها مـن مصطلحات اجنبية ، ليقوم بتعريبها ، والاتفاق بعدئـذ مع المجامع العربيـة الاخرى على توحيد مصطلحاتها في جميـع البلدان العربية . وقـد استجاب لهـذه الدعوة عدد مـن الوزارات والدوائر ؛ وسيمهد المجمـع قريبا الى لجنـة المصطلحات بتولّي هـذه العملية بالتعاون مع الدوائـر المعنيَّـة .

٥ ــ ومن اهــمّ المشاريع التي يعمل المجمع الآن جاهــدا لأجل تنفيذها اصدار مجلــة باسم (مجلة مجمع اللغــة العربية الاردني) لان هذه من الدعائم المهمــة التي يقوم عليها المجمــع ، ويؤدي عن طريقها رسالتــه العلمية واللغوية . ويأمــل المجمع ان يصدر العدد الاول منها قبــل نهاية العام الحالي[1] . ومــن اجل ذلك طلب المجمــع الى جميع اعضائه ، والى المجامــع الشقيقة ، المساهمة في تغذية المجلــة بالبحوث والدراسات.

٦ ــ تلقى المجمع عــدة دعوات من المنظمة العربية للتربية والثقافــة والعلــوم ، ومن المجامع الشقيقــة ، وبعض الجهات الثقافيــة الاخرى ، وشــارك في المؤتمرات والمناسبات الثقافية التاليــة :

ا ــ مؤتمر التعريب الثالــث في طرابلس / ليبيــا .

ب ــ مهرجان مجمــع دمشق بمناسبة مرور مئة عام على مولــد مؤسســه الرئيس محمــد كرد علي .

ج ــ مؤتمــر الدراسات العربية والايطالية فــي البندقية وفي باليرمو / ايطاليــا ١٩٧٦ .

د ــ تأبين المرحوم خــير الدين الزركلي في دمشــق .

هـ ــ حفلــة استقبال الاستاذ احمــد راتب النفاخ بمناسبة انتخابه عضوا في مجمــع دمشق .

و ــ مؤتمر الدراسات الايطالية / العربيــة في ايطاليا ، ١٩٧٧ .

وسيشارك اعضاء من المجمــع كذلك في مهرجان ابــن رشد في الجزائر في ربيــع العام القادم ، وفي مؤتمــر التعريب الجامعي في بغداد ، في هــذا العام .

٧ ــ اصبح المجمــع عضوا في اتحاد المجامــع العربية . وهذا يتيح لــه المشاركة الفعالة في اعمال المجامع العربية ، وفــي تنسيق العمــل معهــا .

(١) كتب هذا التقرير وقدم لمجلس المجمــع في ٣٠ ايلول / سبتمبر ١٩٧٧ .

٨ ــ ألّف المجمع ستّ لجان دائمة للمساعدة على سرعة انجاز اعماله وهي :

١ ــ لجنة الاصول .

٢ ــ لجنة التعريب والمصطلحات والمعاجم .

٣ ــ لجنة التراث .

٤ ــ لجنة الترجمة .

٥ ــ لجنة المجلّة والمطبوعات .

٦ ــ لجنة المكتبة .

وبهذه اللجان يستطيع المجمع أن يطمئن الى انتظام العمل فيه ، والى أنه يستطيع ان يمضي في تحقيق غاياته بخطى ثابتة ، آملا أن يجد الدعم الكافي من الدولة والمؤسسات الوطنية ، ليكون عمله مثمرا وفعالا في خدمة اللغة العربية ، والنهضة الثقافية في الاردن والعالم العربي ، باذن الله .

والمجمع يعلم أن المكتبة من أهم الدعائم التي يقوم عليها عمله ، وهو لذلك مهتم كل الاهتمام بتزويد مكتبته بالموسوعات والمعاجم والمراجع العلمية التي تهيىء له اسباب العمل الناجح المثمر .

ولقد كان المجمع يودّ أن يمضي في تنفيذ بعض مشاريعه الأخرى ، سيما اقامة موسم ثقافي للندوات والمحاضرات الفكرية ، مشاركة منه في حركة الثقافة الاردنية ، غير أن تأخّر استقراره في مبنى خاصّ به ، وتأخّر صدور انظمته ، عاقاه عن ذلك . وهو يرجو ان يكون العام القادم ، احفل بالنشاط المثمر ، ان شاء الله .

نـــدوة المجمع الثقافيّـــة الأُولى

الموضوع : ــ **اسباب الضعف في اللغة العربية**

عَقَـــد مجمع اللغة العربية الاردني ندوتـــه الثقافية الاولى في مقرّه في جبل الحسين الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الاحد ١٨/١٢/١٩٧٧ م. الموافـــق ٨/١/١٣٩٨ هـ. وكـــان موضوع الندوة (اسباب الضعف في اللغـــة العربية) . وقد **ادارها** رئيس المجمـــع الاستاذ الدكتور عبـــد الكريم خليفة ، واشترك معـــه فيها كلٌّ من عضو المجمـــع الاستاذ الدكتور محمود ابرُ هيـــم ، والدكتور نصرت عبـــد الرحمٰن ، من أعضاء الهيأة التدريسية في قسم اللغـــة العربية في كلية الآداب ، في الجامعة الاردنية . وحضر الندوة عـــدد من أعضاء المجمـــع ، ونخبة من المهتمين باللغـــة العربية ، والكُتّـــاب الأُردنيين ، ومن العاملين في مديرية التربيـــة في محافظـــة عمـــان .

استهلَّ الدكتور عبـــد الكريم خليفة الندوة بالاشـــارة الى أن هناك مشكلة حقيقية تستدعي الاهتمـــام والمناقشة ، وهي مُشْكلـــة الضعف العام في اللغـــة العربية ؛ فعلى الرغم من انتشـــار التعليم في العالـــم العربي بشكل واســـع ، لا يزال خرّيج الدراســـة الثانوية ، في الغالب ، يعجز عن قراءة صفحة واحدة قراءة صحيحة ، وعن كتابة رسالة قصيرة دون اخطاء كثـــيرة : في الاملاء ، وفي التركيب ، وفي القواعـــد الصرفية

والنحوية . وليس خريج الجامعه بأحسن حالا منه . يضاف الى ذلك ان الكثيرين من المعلمين والمعلمات ، حتى ممَّن يُدَرِّسون اللغة العربية نفسها ، يعانون ضعفا ملموسا فيها ، وكذلك الكثيرون من الكتاب انفسهم ، ولا سيما من الشبان .

واشار الدكتور خليفة الى ان هذه ، في الواقع ، مشكلة خطيرة ، لان اللغة هي مرآة الأمّة ، وهي رابطة الوحدة التي تشمل الأمّة في كل ارجاء وطنها الكبير ، وعلى الرغم من ان الموضوع قد استأثر باهتمامٍ واسعٍ وطويل الامد من جميع الهيآت المعنية باللغة العربية ، ظَلَّ الضعف كما هو ، ولم تُتَّخَذ اية خطوة عملية نحو معالجته .

وقال الدكتور خليفة إننا نجتمع الآن مع هذه النخبة الطيّبة من الاساتذة والمربّين الحريصين على كرامة اللغة العربية ، لكي نتبادل الرأي معهم في هذا الموضوع الحيوي ، لَعلَّنا نضع ايدينا على مَوْطن الداء ، ونتعاون معًا على ان نجد له الدواء .

ثمّ أعطى الكلمة للدكتور محمود ابرْ هيم ، فبدأ بالحديث على الازدواجية في اللغة ، وقال إن الطفل يتعوّد على سماع اللهجة العامّيّة في البيت والشارع ، وعلى التحدّث بها ؛ وحين يصل الى المدرسة يجد امامه لغة اخرى جديدة عليه ، يبدأ بتعلّمها على معلّميه ، فيحسّ عندئذ بهُوّة واسعة بين اللغة التي اعتادها ، واللغة الجديدة التي بدأ يتعلمها ، فكأنَّ هذه لغة اجنبية يُفْرَض عليه ان يتعلّمها وان يُتَرجِم اليها افكاره ؛ وهذا سبب من اسباب الضعف الذي نعاني منه في اللغة العربية .

وقال الدكتور محمود إن هناك اسبابا اخرى عديدة ، لا يمكنه ان يفصّل الحديث فيها دفعة واحدة ، ولكنه يقتصر الآن على هذا السبب الاول — وهو الازدواجية — على ان يعود الى تناول بعض الأسباب الاخرى .

وأُعطِيت الكلمة بعده الى الدكتور نصرت عبد الرحمٰن ، فبدأ بتلاوة نَصٍّ اخذه من (ادب الكاتب لابن قتيبة) يعيب فيه على المتأدبين

ضعف لغتهم ؛ ثم تلاه بنَصٍّ لاحمد امين في الموضوع نفسه ، من كتابه (فيض الخاطر) في المعنى نفسه . ثم قال إن بين هذين النَّصَّين نحو الف عام من الزمن ، ومع ذلك كانت الشكوى تَتردَّد في كليهما من ضعف لغة الكتاب . فالشكوى اذن قديمة جدًّا ، رافقت تاريخ الأدب العربي كُلَّه ، ولا تزال تتكرَّر بالنغمة عينها .

وقد انكر الدكتور نصرت أسباب هذه الشكوى ، وقال انها غير قائمة ، لانه لا يزال لدينا اليوم كُتّاب يكتبون بلغة افضل من لغة احمد أمين نفسه ، وهذا يعني ان اللغة العربية بخير ، وان الشكوى المتكررة ليست سوى من قبيل القلق الحريص على ان تَظلَّ اللغة قويَّة عزيزة .

غير أن الدكتور نصرت عاد فاعترف بوجود المشكلة ، وتحدَّث على سبب من اسباب الضعف في اللغة العربية ، اذ قال إن الكتب المدرسية في البلدان الغربيّة توضع على أُسُسٍ تربوية ونفسيه تُعْرف مقدرة الطالب في كل مرحلة من مراحل الدراسة ، فتجعل لكل مرحلة قاموسا من المفردات خاصا بها . واما عندنا فقد لاحظ المتحدث أن كتاب القراءة للصف السادس الابتدائي ، أصعب في مفرداته وتراكيبه من كتاب الصف الثالث الإعدادي ، مما يَدلُّ بوضوح على عدم وجود خطَّة تعليمية ذات اسس نفسية وتربوية سليمة . فلا غرابة اذن في ان يشعر الطالب بشيء من الفتور والتردد امام الصعوبة اللغوية التي تَبْرُز له في كتب المدرسة .

وعَقَّب الدكتور عبد الكريم خليفة على ذلك بان حاول تلخيص ما قاله الزميلان : الدكتور محمود ابرُهيم والدكتور نصرت عبد الرحمٰن ؛ ثم وجَّه الكلام الى الحضور ، وقال إن لديهم من الافكار والآراء حول الموضوع ما يمكن ان يزيد الموضوع انارة وبلورة .

واشترك في المناقشة كل من السادة : حسني فريز ، ومحمد عطيات ، والاستاذ مصطفى الزرقا ، وروكس العزيزي ، وعبد الرحمٰن بشناق ، والدكتور محمد بركات ابو علي . ثم طلب الدكتور محمود

ابرٰهيم الكلمة ، فاتّفق على رأي زميله الدكتور نصرت عبد الرحمٰن ، فقال إن ما يراه الزميل المحترم من ان اللغة العربية بخير ، وانه ليس في الامكان ابدع مما كان ، معناه ان المشكلة غير موجودة ، وان مناقشتها لا ضرورة لها ؛ ولكن الواقع ان ما يراه من ان هناك اليوم كُتّابًا يكتبون بلغة افضل من لغة احمد امين ، انما هو امر ينطبق على افراد معدودين ، وليس على المتعلّمين والمثقفين عامة . وقال إن استمرار الشكوى منذ زمن ابن قتيبة ، الى زمن احمد امين ، ثم الى اليوم دليل واضح على ان هناك مشكلة حقيقية تقتضي العلاج .

ثم اشار الدكتور محمود الى ان المشكلة تكمن في اكثر من سبب واحد : فهناك الكتاب المدرسي الذي لا تُراعَى فيه سنّ الطالب ومقدرته الذهنية ؛ وهناك المنهاج الذي لم يوضع على أُسُس نفسية وتربوية وتعليمية سليمة ؛ وهناك المعلم الذي كثيرا ما يكون هو نفسه ضعيفا في اللغة وقواعدها وبلاغتها . وما لم يُعَدَّ المعلّم إعدادا جيّدا ، سيظلّ هو احد الاسباب الكبرى في ضعف اللغة عند طلابه .

وختم الدكتور عبد الكريم خليفة المناقشة بقوله : ان هذه هي ندوتنا الاولى ، وقد خَصَّصناها لمعالجة اسباب الضعف في اللغة العربية ، لان المجمع قد قام أساسا من اجل خدمة هذه اللغة الشريفة ، لغة القرآن الكريم ، ولغة الأُمة العربية بأسرها . والمجمع يَعْتَبر هذه اللغة أمانةً مقدسة في عنقه ، يحرص على سلامتها ، وعلى كرامتها وعلى تلافي اسباب الضعف فيها .

وقال الدكتور خليفة إن لغتنا ليست اكثر صعوبة من اللغات الغربية ، فنحن لو اخذنا تصريف الأفعال باللغة العربية ، وقارَنّاه بتصريف الأفعال في اللغة الفرنسية ، مثلا ، لوجدنا ان لغتنا اسهل كثيرا . وضرب على ذلك مثلا من تصريف الفعل : (ذَهَبَ) ومقابله بالفرنسية (ALLER) وبيَّن كيف يتنقّل الفعل بالفرنسية بين شكلين مختلفين كل الاختلاف ، فيقال :

Je vais - Tu vas - Il va

Nous allons, vous allez, ils vont

. فهناك فِعْـلان يتصرفان معا ، لا فعلٌ واحـد ، في حين أن الفعل العربـي يَظلُّ واحدا في كـل تصريفاته .

وعَقَّب على ذلـك بقوله إن الصعوبة اذن ليست في اللغـة نفسها ، بـل هي في أسباب اخـرى خارجة عنها : مـن المنهاج ، والكتاب المدرسي ، والمعلـم ؛ ومتى صلحت هـذه كلها استطعنا التغلب على المشكلة مـن اساسها .

واضاف قائـلا إن هناك شيئا من الصعوبة الفعلية في قواعـد الصرف والنحو ، ولكن هـذه الصعوبة تزول متى عرفنـا كيف نتغلب عليها بالحكمة ، وبـأنْ لا نُعَلِّم الطلاّب منها الا ما هـو اساسيّ،وعلى شكل دوائر : تبـدا صغيرة ، ثم تَكْبُر مـع تعاقُبِ الصفوف ، ونُمُـوِّ الطالب . وامـا حين نعطي الطفلَ كـلَّ صعوبات القواعد وهو ما يزال دون سـنّ النضج ، فنحن نضع العقبات فـي سبيل تعلُّمه للغـة ، ثـم نلومه على التقصـير في فهمها .

وشَكَرَ الدكتور خليفـة للمشاركين في النـدوة تَفَضُّلَهم بالحضور ، وحسـنَ تعاونهم بالمشاركـة في مناقشة المشكلة ، ووعـد بأن يمضي المجمع في ندواته لخدمة اللغـة العربية ، معتمدا على مشاركتهم وتعاونهم وتشجيعهم للمجمـع ولرسالته المقدسـة .

حـــول "معجـــم الرياضيـــات"

تَلقَّـــى رئيس مجمع اللغـــة العربية الأُردني الكتاب التالي مـــن الدكتور محمـــد مرسي احمد ، عالِـــم الرياضيات المصري ، والأمين العام لاتّحاد الجامعات العربيـــة في القاهرة ، حول (معجـــم الرياضيات) الذي اهداه اليه المجمـــع الاردني ؛ والمجمع يعتزّ كـــل الاعتزاز براي الدكتور مرسي في (معجم الرياضيات) لانه صادر عن خبير وعالِـــم رياضي كبير .

« الاستاذ الكبـــير الدكتور عبد الكريم خليفة ، رئيس مجمع اللغـــة العربيـــة الاردنـــي .

تحيـــة طيبة ، وشكرا جزيلا على ما تفضَّلتم بـــه من اهدائي (معجم الرياضيات) الذي سيسـدّ ، ولا شك،فراغا كبيرا في تعليـــم الرياضيات باللغـــة العربية ؛ وكُنّـــا في أمسّ الحاجة الى مثل هـــذا العمـــل الجليـــل .

ولا اخفـــي عليك أنني مرتاح غايـــة الراحة لاطّلاعي على هـــذا المعجم ، لأنني،مـــع زملائي في مجمع اللغة العربية في القاهـــرة،مَعنيّون بتعريب وترجمـــة بعض مصطلحات الرياضيات ؛ وحتّـــى لا نُكرِّر عملا قد أُنجِز،نَلكُم منّـــا كل شكر وتقديـــر .

« اكـــرر التحية والشكر ؛ وفَّقكم اللـــه الى ما فيه خيرُ امتنـــا ونفـــعُ شبابنـــا » .

القاهـــرة — ٢٢/١٠/١٩٧٧ م .

التوقيـــع

(محمـــد مرسي احمـــد)

وجديـــر بالذكر أن (معجـــم الرياضيات) قد اشترك في وضعـــه عشرة اخصائيين فـــي الرياضيات من اساتذة الجامعة الاردنيـــة،ووزارة التربية والتعليم ، بتكليفٍ من لجنـــة التعريب الأُردنية في ايامهـــا الاخيرة قبـــل ان تَتحوَّل الى مجمع اللغـــة العربية الأُردني.وقد قام المجمـــع باهداء نسخ منه الى المجامـــع الشقيقة والمؤسسات العلميـــة الاخرى .

اعـــلان مسابقة فـــي التاليف

يُعلِن مجمع اللغـــة العربية الأردني إجـــراء مسابقة في التاليف ذات جوائز ماليـــة ، حسب الشروط التاليـــة :

١ ـــ موضوع المسابقـــة : (تعريب التعليم الجامعـــي) .

٢ ـــ الحـــد الأدنى للحجم المقترح : ١٠٠ (مئـــة) صفحة من حجم الفولسكـــاب ، مطبوعة على الآلـــة الكاتبة .

٣ ـــ موعد تسليم البحوث : قبـــل نهاية شهر أيـــار سنة ١٩٧٨ م ، ويتـــم تسليمها الى الامين العـــام للمجمع في ٣ نسخ .

٤ ـــ الجائزة الاولـــى مقدارها ـــ ٤٠٠ (اربعمئة) دينـــار .

الجائزة الثانيـــة مقدارها ـــ ٣٠٠ (ثلاثمئة) دينـــار .

الجائزة الثالثـــة مقدارها ـــ ٢٠٠ (مئتـــا) دينـــار .

٥ ـــ تُعلَـــن النتائج خلال شهر آب ســـنـــة ١٩٧٨ م .

رئيس المجمـــع

الدكتور عبـــد الكريم خليفة

المشتمل

الموضوع	الصفحة
١ ــ **كلمة العدد ــ** للدكتور محمود السمرة ، مقرر لجنة المجلة ، ونائب رئيس المجمع	٣
٢ ــ **ابن رشد في أدبه ــ** للدكتور عبد الكريم خليفة ، رئيس المجمع	٥
٣ ــ **نشأة الثقافة العربية الاسلامية (نظرة الى العراق) ــ** للدكتور عبد العزيز الدوري	٤٩
٤ ــ **الأندلس في المغرب ــ** عيسى الناعوري ، الأمين العام للمجمع	٧٩
٥ ــ **حول تعريب التعليم وتعريب العلم والتكنولوجيا ــ** للدكتور احمد سعيدان ، عضو المجمع	١١٠
٦ ــ **نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه ــ** للمستشرق الفرنسي الأستاذ جيرار تروبو ــ استاذ فقه اللغة العربية في السوربون ــ باريس	١٢٥
٧ ــ **العشرينات والعشرينيات ــ** للدكتور ناصر الدين الأسد ، عضو المجمع	١٣٩
٨ ــ **تعريب رموز نظام الوحدات الدولية ــ** للدكتور ابرهيم بدران	١٤٦
٩ ــ **احداث بلاد طرابلس الشام ــ** للدكتور عدنان البخيت	١٧١

اخبار وتعليقات

١ ــ التقرير السنوي الاول لمجمع اللغة العربية الاردني	٢٠٧
٢ ــ الندوة الاولى للمجمع ، حول « اسباب الضعف في اللغة العربية »	٢١٤
٣ ــ رسالة الدكتور محمد مرسي احمد ، الامين العام لاتحاد الجامعات العربية ، حول (معجم الرياضيات)	٢١٩
٤ ــ مسابقة تأليف	٢٢٠